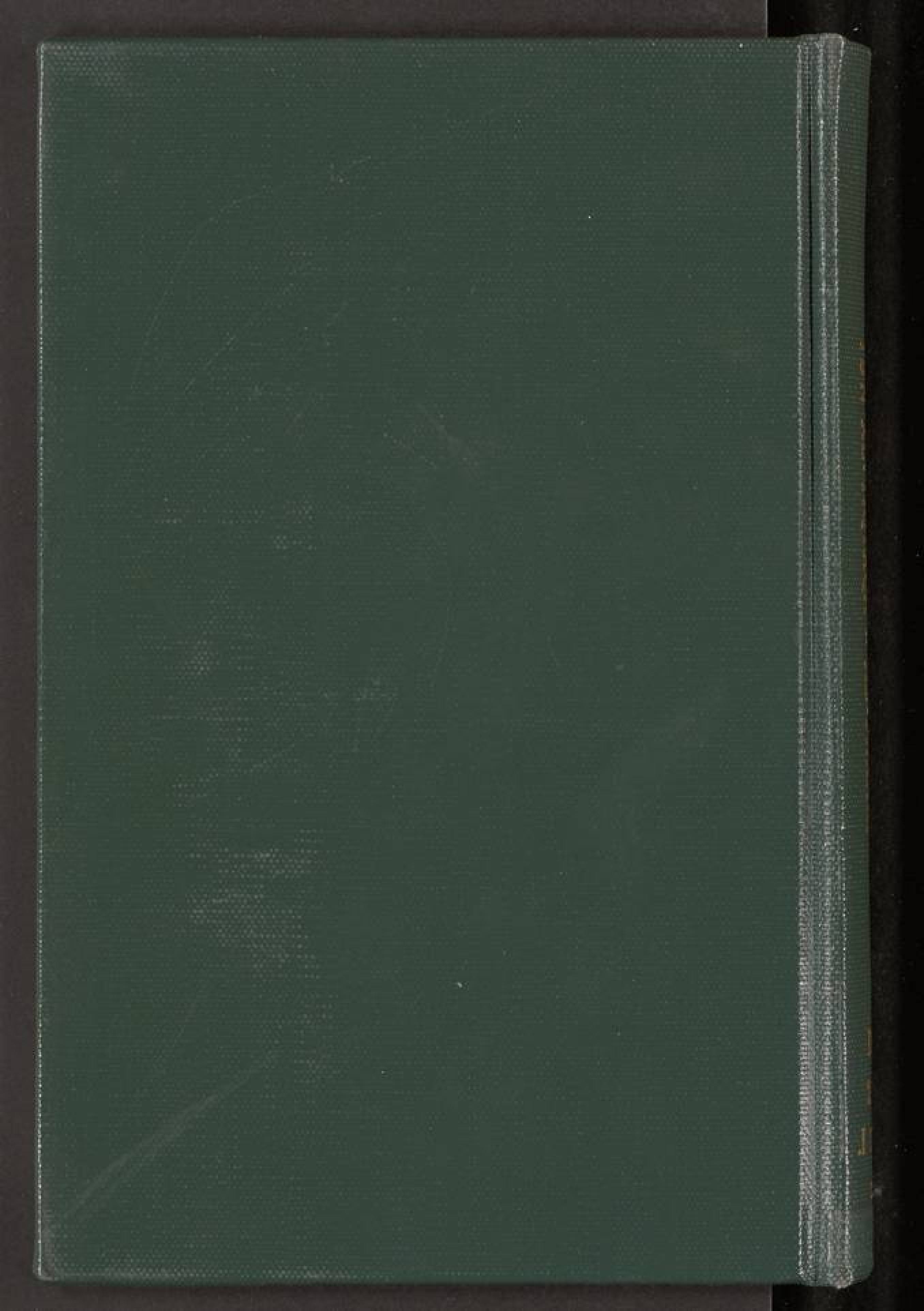



BOBST LIBRARY
3 1142 02824 5192

Ibn al-Tiqtaqā, Muhammad ---

/al-Fakhrī/

FRONT

كتاب

الفخري

﴿ في ﴾

الآداب السلطانية . والدول الاسلامية

تأليف

﴿ محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ﴾

« تجاوز الله عنه »

(طبع بمطبعة الموسوعات بمصر بباب الشعريه)

(على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر)

« في سنة ١٣١٧ هجريه »



﴿ قرّر مجلس ادارة (شركة طبع الكتب العربية في مصر) بجلسته ﴾
﴿ المنعقدة يوم الثلاثاء (٢٦ جمادي الثانية سنة ١٣١٧) طبع كتاب ﴾

﴿ الفخري ﴾

﴿ في الآداب السلطانية . والدول الاسلامية . تأليف محمد بن على بن ﴾
﴿ طباطبا المعروف بابن الطقطقي تجاوز الله عنه . والكتاب من أجل ﴾
﴿ كتب التاريخ مقداراً . وأسماها اعتباراً . وقد عرف ذلك علماء ﴾
﴿ أوروبا قبل علماء الشرق فسبقوا الى طبعه وجعلوا له ثمناً باهظاً جداً ﴾
﴿ بحيث يتعسر على كثير اقتناؤه فتعميماً للفائدة وخدمة للتاريخ ﴾
﴿ والادب والعلم التزمت الشركة المومى اليها بطبعه في مطبعة ﴾
﴿ الموسوعات والله الموفق لما فيه الخير والصلاح ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مسبب الأسباب . ومفتح الابواب . مقدر الأمور . ومدبر الدهور . واجب الوجود . وخالق الأخلاق والجود . مفيض العقل وواهب الكل . أقر انه المالك الوجود مملوكا لعظمته . وأشهد انه القاطر وأن الغيب غير مستور لحكمته . وأعوذ بجلال عزه من ذل الحجاب . وبفضل جوده من نقاش الحساب . وبخافي علمه مما فى الكتاب من العذاب . وأصلي على النفوس العلوية المطهرة من الأدناس . وعلى الاجسام الارضية المنزهة عن الأرجاس . وأخص من بينهم بأفضل الصلوات الزاكيات . وأكمل التحيات الناميات . من نادى والألسن حداد . وأرشد والاكباد غلاظ والقلوب جلاد . محمداً النبي الأمي ذا التأييدات الالهية . والتأكيدات الجلالية . وآله الطيبين . وأصحابه الصالحين . الذين كانوا صدقوه وقد أرسل . ونصروه وقد خذل . ما سمح جواد . ووري زناد . وبعد فان أفضل ما نظر فيه خواص الملوك . وسلكوا اليه أفضل السلوك . بعد نظرهم فى أمر الأمة . وقيامهم فيما استودعوه بالحجة . هو النظر فى العلوم . والاقبال على الكتب التى صدرت عن شرائف الفهوم . فأما فضيلة العلم فظاهرة ظهور الشمس . عرية من الشك واللبس . فمما جاء من ذلك في التنزيل قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ومما جاء في الحديث صلوات

الله وسلامه على من نسب اليه (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم) . وأما فضيلة الكتب فقد قالوا ان الكتاب هو الجليس الذى لا ينافق ولا يمل ولا يعاتبك اذا جفوته ولا يفشى سرك . وقال المهلب لبنيه يابني اذا وقفتم في الاسواق فلا تقفوا الا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب وكان الفتح ابن خاقان اذا كان جالسا فى حضرة المتوكل وأراد ان يقوم الى المتوضا أخرج من ساق موزته كتابا لطيفا فلا يزال يطالعه في ممره وعوده فاذا وصل الى الحضرة الخليفية أعاده الى ساق موزته * أرسل بعض الخلفاء في طلب بعض العلماء ليسامره فلما جاء الخادم اليه وجده جالسا وحواليه كتب وهو يطالع فيها فقال له ان أمير المؤمنين يستدعيك قال قل له عندى قوم من الحكماء أحادثهم فاذا فرغت منهم حضرت فلما عاد الخادم الى الخليفة وأخبره بذلك قال له ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد قال فأحضره الساعة كيف كان فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك قال يا أمير المؤمنين

(طويل)

لنا جلساء ماتمل حديثهم ... أمينون مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم مامضى ... ورأياً وتأديبا ومجداً وسوددا
فان قلت أموات فلم تعد أمرهم ... وإن قلت أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب ولم ينكر عليه تأخره . وقال الجاحظ دخلت على محمد بن إسحق أمير بغداد فى أيام ولايته وهو جالس فى الديوان والناس مثول بين يديه كان على رؤسهم الطير ثم دخلت اليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس في خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر

والمحابر والمساطر فما رأيته أهيب منه فى تلك الحال . وقال المتنبي (طويل)

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

والعلم يزين الملوك أكثر مما يزين السوقة واذا كان الملك عالما صار العالم ملكا . وأصلح مانظر فيه الملوك مااشتمل على الآداب السلطانية والسير التاريخية المطوية على ظرائف الاخبار . وعجائب الآثار . على أن الوزراء كانوا قديماً يكرهون أن الملوك يقفون على شيء من السير والتواريخ خوفا أن يتفطن الملوك الى اشياء لايحب الوزراء أن يتفطن لها الملوك * طلب المكتفى من وزيره كتبا يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال فلما رآه الوزير قال لنوابه والله إنكم أشد الناس عداوة لى أنا قلت لكم حصلوا له كتبا يلهو بها ويشتغل بها عنى وعن غيرى فقد حصلتم له مايعرفه مصارع الوزراء ويوجده الطريق الى استخراج المال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها ردوها وحصلوا له كتبافيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه * وكانوا يكرهون أيضا أن يكون فى الخلفاء والملوك فطانة ومعرفة بالامور * لما مات المكتفى عزم وزيره على مبايعة عبد الله بن المعتز وكان عبد الله فاضلا لبيبا محصلا فخلا به بعض عقلاء الكتاب وقال له اي هذا الوزير هذا الرأى الذي قد رأيته فى مبايعة ابن المعتز ليس بصواب قال الوزير كيف ذلك قال أى حاجة لك أن تجلس على سرير الخلافة من يعرف الذراع والميزان والاسعار ويفهم الامور ويعرف القبيح من الحسن ويعرف دارك وبستانك وضيعتك الرأى أن تجلس صبيا صغيراً فيكون اسم

الخلافة له ومعناها لك فتربيه الى أن يكبر فاذا كبر عرف لك حق التربية وتكون أنت قد قضيت أوطارك مدة صغره فشكره الوزير على ذلك وعدل عن عبد الله بن المعتز الى المقتدر وعمره يومئذ ثلاث عشرة سنة

وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رحمه الله اكثر مايجرى فى مجلس أنسه إيراد الاشعار المطربة والحكايات الملهية فاذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التواريخ والسير وجلس الزين الكاتب وعز الدين المحدث يقرآن عليه أحوال العالم * وهذا التقرير يستدعى شرح حال وذلك أنى حين أحلنى حكم القضاء بالموصل الحدباء حللتها غير متعرض لوبلها أو طلها ودخلتها كما قال عز من قائل . (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) وكنت بنيت عزمي على المقام فيها بقدر ماينكسر البرد . ويثقل البرد . ثم التوجه بعد ذلك الى تبريز فحين استقررت بالموصل بلغنى من عدة جهات مختلفة . ومن ذوى أراء غير مؤتلفة . غزارة فضل صاحبها الاعظم . المولى المخدوم الملك المعظم . أفضل الملوك وأعظمهم . وأكرم الحكام وأحلمهم . (فخر الملة والدين) الممنوح بخصائص لو كانت للدهر لما شكا صرفه حر . ولما مس أحداً منه ضر . ولو كانت للبحر لما كان ماءه ملحا أجاجا . ولا خاف راكبه منه أمواجا . ولو ظفرت بها الاقمار . لما لحقها السرار . (عيسى) الذى أحيي ميت الفضائل . ونشر طىّ الفواضل . وأقام سوق المكارم فى عصر كسدت فيه سوقها وأنهض مقعدات المحاسن بعد ماعجزت عن حمل أجسامها سوقها وذب عن الاحرار فى زمان هم فيه أقل من القليل . وملأ أيديهم من عطائه بأياد واضحة الغرة والتحجيل . وأفاء عليهم ظل رأفة لا ينتقل . وخفض لهم جناح رحمة فما ينى يتفضل . عليهم ويتطول . كلما ازداد دولة وتمكينا .

زاد تواضعاً ولينا . وكلما بلغ من الملك غاية . رفع للمكرم رايه . (ابن ابراهيم) أعزّ الله نصره وأنفذ نهيه وأمره الذى أنسى ذكر الاجواد . ورزانة الاطواد وشجاعة الآساد . (كامل)

للشمس فيه وللرياح وللسحا ب وللبحار وللاسود شمائل

الذى هو في جبهة هذا الدهر غرّه . وفى قلادته دره . لاتدانيها فى الدنيا درّه . الذى صدق أخبار الماضين . وحقق مانسخ من مآثر الاولين وقد قال ابن الرومىّ (طويل)

أظن بأن الدهر مازال هكذا وأن حديث الجود ليس له أصل

وهب أنه كان الكرام كما حكوا أما كان فيهم واحد وله نسل

فلو شاهده لصدق ما سمع من أخبار أهل الكرم . ولما اختلجت بين جنبيه عوارض التهم . الحاكم الذي اذا سلط ذهنه الشريف وفكره اللطيف . على القضايا الديوانية . والامور السلطانية . ذلت له الصعاب . ولانت له الصمّ الصلاب . وظهرت له الخفايا . وتعذر أن يقال في الزوايا خبايا . أما قوة العدل عنده فسليمه . قواعدها لديه قويمه . فلا تجزعنك هيبته المرهوبة فان وراءها رأفة بالضعيف ورقة على الفقير . وجبرا للكسير . (كامل)

وله من الصفح الجميل عوائد أسر الطليق بها وفك العانى

ولقد حضرت يوماً مجلسه الرفيع وكان يوم غيث وقد تقدم بصيانة الباب فلما كثر الغيث قال للحجاب من حضر الباب وله حاجة فعرفونا بها ثم قال ان أحداً لا يحضر فى مثل هذا الوقت الا لضرورة ولا يجوز أن يرد خائباً فبالله هل يأتى فى هذا الكتاب الذى يريد أن يكون مشتملا على

محاسن الآثار الا ما هو من جنس هذه الحكاية * وأما قوة السياسة عنده فعظيمه . لم تعترضها هضيمه . فلا تغرنك رقته وابتسامه فان وراء ذلك صرامة يخضع لها الاسود . وشهامة يحذرها السيد والمسود (طويل)

هو البحر غص فيه اذا كان ساكنا   واياك فاحذره اذا كان مزبداً

وأما قوة الذكاء والتيقظ فهو فيها كما قال المتنبي (منسرح)

تعرف في عينه حقيقته   كانه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته   عليه منها أخاف يشتعل

وأما قوة العقل الغريز والتمييز الصحيح فانى لأظن ان عقلاء الملوك الماضين لو عاشوا وشاهدوه لتعلموا منه كيف يساس الجمهور . وكيف تدبر الامور . وأما قوة الكرم الذى يجاوز الحد وخرج . فحدث عن البحر ولا حرج . فلو عاش الكرام الذين ضربت بهم الامثال . وعدمت لهم النظراء والامثال . لتعلموا منه غوامض الكرم . ولتلقفوا منه محاسن الشيم . ولو أنصفت لتركت وصف هذه القوة من قواه عجزاً عن الاحاطة بكنه وصفها. وقصوراً عن القيام بواجب رصفها . ولكنى أقول حسب الجهد والطاقة ان احتقاره للدنيا احتقار الاولياء واستصغاره لها استصغار الزهاد فلو جاد بالدنيا وثنى بضعفها لظن من استصغاره انه ضنا يعطي عطاء من يبقى الذكر ويحييه. وينفد المال ويفنيه . فيه (طويل)

أعاذل ان الجود ليس بمهلكى   ولا يخلد النفس الشحيحة لومها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه   مغيبة في الترب بال رميمها

بهمة نالت السماء . وجاوزت الجوزاء . ومن هناك حصل له الانس بعلم النجوم فانه اخذ علمها بالارتقاء اليها والاقتراب . لا بالحساب والاصطرلاب.

بلغ السماء علواً فشافهته بأسرارها كواكبها . وقرع الافلاك سموا فحدثته بأخبارها مشارقها ومغاربها . (طويل)

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى اجل من الدهر

لا تستقر فى خزائنه نفائس امواله وليس لها بيت يحفظها سوى بيوت سؤاله (بسيط)

انا اذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلت الى طرق العلياء تستبق

لا يألف الدرهم المنقوش صرتنا لكن يمر عليها ثم ينطلق

لا يفعل السكر فى كرمه . الا كما يفعل الصحو في أمطار ديمه .

{طويل}

يعيد عطايا سكره عند صحوه ليعلم أن الجود منه على علم

ويسلم في الاحسان من قول قائل تكرم لما خامرته ابنة الكرم

ومن أسرار كرمه أنه منزه عن التبذير . وان كان أكثر من الكثير . لانه موضوع فى أجل مواضعه . وواقع في أفضل مواقعه . فمتى تعرض آمل . او عن سائل . بادر الى ارفاده . مبادرة السيل الى وهاده . {كامل}

عشق المكارم فاستهام بذكرها والمكرمات قليلة العشاق

وأقام سوقا للثناء ولم تكن سوق الثناء تعد في الاسواق

فاذكر صنائعه فلسن صنائعا لكنهن قلائد الاعناق

والثم أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الارزاق

وكأنى بك أيها الناظر فى هذا الكتاب قد استعظمت ما سمعت فان عرض لك الشك فانظر أعيان هذا العصر تجدهم يناقشون على الذره . وتجده لا يلتفت الى الدره . وتجدهم يحرصون على اقتناء الذخائر . وتجده

لايحرص الا على الذكر السائر . والصيت الطائر . وتجدهم قد شغفتهم محبة الاولاد . وتجده قد شغفته محبة السؤال والقصاد . وتجدهم يهربون من المغارم . وتجده يعدها من أفضل المغانم . ثم ارجع البصر تجد المدائح عندهم كاسدة وتجدها عنده نافقة وتأمل تبصر المكارم لديهم جامدة وتبصرها لديه دافقة وانظر بابه تجده عامرا بوفود الثناء غاصا بالادباء والشعراء والفضلاء والفصحاء {خفيف}

يسقط الطير حيث تلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

وتالله ما الدنيا الا دنياه ولا العيش الا عيشه الذى أعطاه الله

{كامل}

ما العيش أن يمسى الفتى متشبعاً ضخم الجزاره
كلفا بشرب الراح مشـــغوفا بنزلان الستاره
العيش ان يشجى الفتى أعداءه ويعز جاره
حتى يخاف ويرتجى ويرى له نشب وشاره
ويروح اما للكتا بة سعيه أو للاماره

رجعنا الى حكاية الحال . واتمام المقال . فلفقت المقادير أن جرى ذكرى بين يديه وعرض شئ من أمرى عليه فلمح بذكاء قلبه وصحة حدسه من تلك الانباء حقيقة حالى قبل اللقاء وتقدم بالحضور فى خدمته فلما حضرت راعنى ما شاهدت من كمال هيئته . وراقنى ماعاينت من جمال صورته . وشريف سيرته . فكان أول ما أنشدته قول المتنبئ {طويل}

وما زلت حتى قادنى الشوق نحوه يسايرنى فى كل ركب له ذكر
وأستعظم الاخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

ثم تابع من الطافه ما غرس به ودا وجنى منه ثناء وحمداً فرأيت أن أخدم حضرته بتأليف هذا الكتاب ليكون تذكرة له وتذكرة لى عنده يذكرنى به اذا غبت عن عالى جنابه . وانفصلت عن فسيح رحابه . وهذا كتاب تكلمت فيه على أحوال الدول وأمور الملك وذكرت فيه ما استظرفته من أحوال الملوك الفضلاء . واستقريته من سير الخلفاء والوزراء * وبنيته على فصلين فالفصل الاول تكلمت فيه على الامور السلطانية والسياسات الملكية وخواص الملك التي يتميز بها عن السوقة والتى تجب أن تكون موجودة أو معدومة فيه وما تجب له على رعيته وما يجب لهم عليه ورصعت الكلام فيه بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية والحكايات المستظرفة والاشعار المستحسنة والفصل الثانى تكلمت فيه على دولة دولة من مشاهير الدول التى كانت طاعتها عامة . ومحاسنها تامة . ابتدأت فيه بدولة الاربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على الترتيب الذى وقع ثم بالدولة التى تسلمت الملك منها وهي الدولة الاموية ثم بالدولة التى تسلمت الملك منها وهى الدولة العباسية ثم بالدول التي وقعت فى أثناء الدول الكبار كدولة بنى بويه وكدولة بني سلجوق وكدولة الفاطميين بمصر على وجه الايجاز فانها دول وقعت فى أثناء دولة بنى العباس ولكنها لم تكن طاعتها عامة فأتكلم على دولة دولة بمجموع ما حصل فى ذهني من الهيئة الاجتماعية التي أفادتنيها مطالعة السير والتواريخ فأذكر كيف كان ابتداؤها وانتهاؤها وظرفا ممتعا من محاسن ملوكها وأخبار سلاطينها فان شذ شئ من أحوالها عن ذهنى واحتجت الى اثباته من حكاية ظريفة أو بيت شعر نادر أو آية أو حديث نبوى أخذته من مظانه ثم اذا ذكرت دولة فدولة تكلمت على كليات أمورها ثم ذكرت

واحداً واحداً من ملوكها وما جرى فى أيامه من الوقائع المشهوره . والحوادث المأثوره . فاذا انقضت أيام ذلك الملك ذكرت وزراءه واحداً واحداً وظرائف ما جرى لهم فاذا انقضت أيام الملك ووزرائه ابتدأت بالملك الذى بعده وبما جرى فى أيامه وبسير وزرائه كذلك الى آخر الدولة العباسية .

* والتزمت فيه أمرين . أحدهما أن لا أميل فيه الا مع الحق ولا أنطق فيه الا بالعدل وأن أعزل سلطان الهوى وأخرج من حكم المنشاء والمرباء وأفرض نفسى غريباً منهم وأجنبياً بينهم . وثانيهما أن أعبر عن المعانى بعبارات واضحة تقرب من الافهام لينتفع بها كل أحد عادلا عن العبارات المستصعبة التي يقصد فيها اظهار الفصاحة واثبات البلاغة فطالما رأيت مصنفى الكتب قد اعترضتهم محبة اظهار الفصاحة والبلاغة تخفيت أغراضهم واعتاصت معانيهم فقلت الفائدة بمصنفاتهم .

* من ذلك كتاب القانون في الطب لابى عليّ الحسين بن سينا البخارىّ فانه حشاه بالعبارات الغامضة والتراكيب المستغلقة فبطل غرضه من الانتفاع بكتابه ولذلك ترى عامة الاطباء قد عدلوا عن كتابه الى الملكىّ السهل العبارة . المفهم الاشارة . وهذا كتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور . ويدبر الامور . وان أنصفه الناس أخذوا أولادهم بحفظه وتدبر معانيه بعد أن يتدبروه هم فما الصغير بأحوج اليه من الكبير ولا الملك العام الطاعة بأحوج اليه من ملك مدينة ولا ذوو الملك بأحوج اليه من ذوى الأدب فان من ينصب نفسه لمفاوضة الملوك ومجالستهم ومذاكرتهم يحتاج الى أكثر مما في هذا الكتاب فعلى أقل الاقسام لا يسعه تركه * وهذا الكتاب إن نظر بعين الانصاف رئى أنفع من الحماسة التى لهج الناس بها وأخذوا أولادهم بحفظها فان الحماسة لا يستفاد منها أكثر من الترغيب في الشجاعة والضيافة وشيء

يسير من الاخلاق فى الباب المسمى بباب الأدب والتأنس بالمذاهب الشعرية وهذا الكتاب يستفاد منه هذه الخصال المذكورة ويستفاد منه قواعد السياسة . وأدوات الرئاسة . فهذا فيه ما في الحماسة وليس فى الحماسة ما فيه وانه ليفيد العقل قوة والذهن حدة والبصيرة نوراً وهو للخاطر الذكى بمنزلة المسن الجيد للفولاذ * وهو أيضاً أنفع من المقامات التى الناس فيها معتقدون وفى تحفظها راغبون إذ المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر نعم وفيها حكم وحيل وتجارب الا ان ذلك مما يصغر الهمة اذ هو مبنى على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف فان نفعت من جانب ضرت من جانب وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية * فعدل ناس الى نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب عليه السلام فانه الكتاب الذى يتعلم منه الحكم والمواعظ والخطب والتوحيد والشجاعة والزهد وعلو الهمة وأدنى فوائده الفصاحة والبلاغة * وعدل الناس الى اليمينى للعتبى وهو كتاب صنفه مؤلفه ليمين الدولة محمود بن سبكتكين يشتمل على سير جماعة من الملوك بالبلاد الشرقية عبر فيه بعبارات حظها من الفصاحة وافر . وصاحبها ان لم يكن ساحراً فهو كاتب ماهر . والعجم مشغوفون به مجدون فى طلبه وهو لعمرى كتاب يشتمل على ظرائف حكم وبدائع سير مع ما فيه من فنون البلاغة وأنواع الفصاحة ولعل قائلا أن يقول لقد بالغ في وصف كتابه . وحشا ما شاء فى جرابه . والمرء مفتون بابنه وشعره فان اعتراه ريب فليتأمل الكتب المصنفة فى هذا الفن فلعله لا يرى فيها كتاباً أجمع للمعنى الذي قصد به من هذا الكتاب * وهو اعز الله نصره . وسر

بدوام السعادة سره . قد اغناه الله بالذهن القاهر . والفضل الباهر . عن هـذا الكتاب وعن أمثاله ولكن مهامه الشريفة ربما أضجرته وأنسته فاذا روح فكره الشريف بالنظر فيه دفع به الملال . وتذكر به ما أنسته الاشغال . ومن ألطاف الله تعالى اسئل ان لا يخلى هـذا الكتاب من فائدتين احداهما تخصنى وهى ان يقع عنـده بموقع الاستصواب فأبرأ من عهدة الخجل والأخرى تخصه وهى أن لا يعدمه الانتفاع به فى القول والعمل انه ولى كل نعمة ومسدي كل عارفة

الفصل الاول

(في الامور السلطانية . والسياسات الملكية)

أما الكلام على أصل الملك وحقيقتـه وانقسامه الى رئاسات دينيـة ودنيوية من خلافة وسلطنة وإمارة وولاية وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ومذاهب أصحاب الأراء في الامامة فليس هذا الكتاب موضوعاً للبحث عنه وانما هوموضوع للسياسات والآداب التى ينتفع بها في الحوادث الواقعـة والوقائع الحادثة وفي سياسة الرعيـة وتحصين المملكة وفي اصلاح الاخلاق والسيرة * فأول ما يقال ان الملك الفاضل هو الذى اجتمعت فيـه خصال وعدمت فيه خصال * فأما الخصال التى يستحب أن توجد فيـه فمنها العقل وهو أصلها وأفضلها وبه تساس الدول بل الملل وفي هـذا الوصف كفاية * ومنها العدل وهو الذي تستغزر به الاموال . وتعمر به الاعمال . وتستصلح به الرجال

ولما فتح السلطان هولاكو بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة أمر

أن يستفتى العلماء أيما أفضل السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب وكان رضى الدين عليّ بن طاوس حاضراً هذا المجلس وكان مقدماً محترماً فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر فوضع الناس خطوطهم بعده * ومنها العلم وهو ثمرة العقل وبه يستبصر الملك فيما يأتيه ويذره ويأمن الزلل في قضاياه وأحكامه وبه يتزين الملك في عيون العامة والخاصة ويصير به معدوداً في خواص الملوك

قال بعض الحكماء الملك اذا كان خلواً من العلم كان كالفيل الهائج لا يمر بشيء الا خبطه ليس له زاجر من عقل ولا رادع من علم * واعلم انه ليس المراد بالعلم في الملوك هو تصور المسائل المشكلة والتبحر في غوامض العلوم والاغراق في طلبها * قال معاوية ما أقبح بالملك أن يبالغ في تحصيل علم من العلوم * وانما المراد من العلم فى الملك هو أن لا يكون له أنس بها الا بحيث يمكنه أن يفاوض اربابها فيها مفاوضة يندفع بها الحال الحاضر ولا ضرورة في ذلك الى التدقيق * كان مؤيد الدين محمد بن العلقميّ وزير المستعصم وهو آخر وزراء الدولة العباسية يفاوض كل من يدخل عليه من العلماء مفاوضة عاقل لبيب محصل ولم يكن له بالعلوم ملكة ولا كان مرتاضا بها رياضة طائلة * كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لكثرة مجالسة الافاضل وخوضه في الاشعار والحكايات يستنبط المعانى الحسنة وينتبه على النكت اللطيفة مع انه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ * وكان عز الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوريّ رضى الله عنه لمجالسة أهل الفضل ولكثرة معاشرتهم له صار يتنبه على معان حسنة ويحل الألغاز المشكلة أسرع منهم ولم يكن له حظ

من علم وما كان يظهر للناس الا انه رجل فاضل وخفي ذلك حتى على الصاحب علاء الدين فان ابن الكبوش الشاعر البصري عمل بيتين في الصاحب ونسبهما الى عبد العزيز وهما

﴿ وافر ﴾

عطا ملك عطاؤك ملك مصر   وبعض عبيد دولتك العزيز
تجازي كل ذي ذنب بعفو   ومثلك من يجازي أو يجيز

فأنشدهما عبد العزيز بحضرة الصاحب وادعاهما وخفي الامر على الصاحب وما أدري من أيهما أعجب أمن الصاحب كيف خفي عنه حال عبد العزيز مع انه السنين الطويلة يعاشره في سفر وحضر وجد وهزل أومن عبد العزيز كيف رضي لنفسه مثل هذه الرذيلة وأقدم على مثل هذا مع الصاحب وما خاف من تنبه الصاحب واسترذاله لفعله * وتختلف علوم الملوك باختلاف آرائهم فأما ملوك الفرس فكانت علومهم حكما ووصايا وآدابا وتواريخ وهندسة وما أشبه ذلك وأما علوم ملوك الاسلام فكانت علوم اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ حتى ان اللحن كان عندهم من أفحش عيوب الملك وكانت منزلة الانسان تعلو عندهم بالحكاية الواحدة وبالبيت الواحد من الشعر بل باللفظة الواحدة من اللغة وأما في الدولة المغولية فرفضت تلك العلوم كلها ونفقت فيها علوم أخر وهي علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج والطب لحفظ الابدان والامزجة والنجوم لاختيار الاوقات وما عدا ذلك من العلوم والآداب فكاسد عندهم وما رأيته نافقا الا بالموصل في أيام ملكها المشار اليه مد الله ظله ونشر فضله * ومنها الخوف من الله تعالى وهذه الخصلة هي أصل كل خير ومفتاح كل بركة فان الملك متى خاف الله

أمنه عباد الله * روي أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام استدعى بصوته بعض عبيده فلم يجبه فدعاه مراراً فلم يجبه فدخل عليه رجل وقال يا أمير المؤمنين انه بالباب واقف وهو يسمع صوتك ولا يكلمك فلما حضر العبد عنده قال أما سمعت صوتى قال بلى قال فما منعك من اجابتى قال أمنت عقوبتك قال علىّ عليه السلام الحمد لله الذي خلقنى ممن يأمنه خلقه * وما أحسن قول أبى نواس لهرون الرشيد { كامل }

قد كنت خفتك ثم آمننى　　　من أن أخافك خوفك اللها

ولم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان آل علىّ ع وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم يدل على عدم خوفه من الله تعالى ولكن أبا نواس جرى فى قوله على عادة الشعراء * ومنها العفو عن الذنوب وحسن الصفح عن الهفوات وهذه أكبر خصال الخير وبها تستمال القلوب وتصلح النيات فمما جاء فى التنزيل من الحث على ذلك قوله تعالى شأنه . (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) *وكان المأمون حليما حسن الصفح معروفاً بذلك هجاه دعبل الشاعر بأشعار كثيرة من جملتها { كامل }

انى من القوم الذين سيوفهم　　　قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله　　　واستنقذوك من الحضيض الاوهد

فلما بلغه هذا القول لم يزد على أن قال قاتله الله ما أشد بهتانه متى كنت خاملا وفي حجر الخلافة نشأت وبدرها أرضعت ولما بلغه أن دعبلا قد هجاه قال من أقدم على هجاء وزيرى أبي عبّاد كيف لايقدم على هجائى * وهذا الكلام ظاهره غير مستقيم وهو يحتاج الى تأويل فانه عكس المعهود فقد كان ينبغي أن يقول الوزير من أقدم على هجاء الخليفة كيف لايقدم هجائى ومعنى

قول المأمون أن من اقدم على هجاء أبي عباد مع حدّته وهوجه وتسرعه وكان أبو عباد كذلك كيف لايقدم عليّ في حلمي وصفحي * ولولا خوف الاطالة لذكرت جماعة من حلماء الملوك في هذا الموضع ولكن ليس هذا الفصل موضوعاً للسمر وسيرد من ذلك مايمتع إن شاء الله في الفصل الثاني * ومنهم من يري أن الحقد خصلة محمودة في الملك * قال بزرجمهر يجب أن يكون الملك أحقد من جمل * وأنا أناظره في هذا القول فأقول كيف يقال كذلك والملك متى كان حقوداً فسدت نيته لرعيته فمقتهم وقلل الالتفات اليهم الشفقة عليهم ومتى أحسوا بذلك تغيرت نياتهم له وفسدت بواطنهم وهل يتمكن الملك مما يريده من مهمات مملكته وبلوغ أغراضه كما في نفسه إلا بصفاء قلوب رعيته * وأى حكمة في ذلك وهل فيه سوى تنغيص عيش الملك وتبغيض رعيته اليه وإيحاشهم منه قال شاعر العرب

{ طويل }

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

خصوصاً والناس مركبون على الخطا مجبولون على تشمير الطباع فما أكثر ماتصدر منهم موجبات الحقد فلا يزال الملك طول دهره يعانى من الغيظ والحقد عليهم ماينغص عليه لذته ويشغله عن كثير من مهام مملكته وما أكثر مارأينا الرعية أو الجند قد وثبوا على ملوكهم فسلبوهم رداء المملكة بل رداء الحياة فابتدئ من عمر بن الخطاب وقد وثب عليه أبو لؤلؤة عبدالمغيرة ابن شعبة فقتله * ثم ثن بعثمان بن عفان رضى الله عنه وانظر كيف اجتمع عليه رعيته من كل جانب فحاصروه في داره أياما ثم دخلوا عليه فقتلوه والمصحف في حجره حتى قطرت قطرات من دمه على المصحف * ثم ثلث بعليّ بن

أبي طالب عليه السلام وقد ضربه عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله بسيفه على أم رأسه بالكوفة فقتله وكان ابن ملجم من الخوارج * هذا في الصدر الاول والناس ناس والدين دين ثم تنقل دولة فدولة وأياما فأياما الى أواسط دولة بني العباس فانظر منذ عهد المتوكل الى عهد المقتفي ماجرى على واحد واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب بسبب تغير نيات جنده ورعيته فهذا سمل وذاك قتل والآخر عزل ثم أسرح طرفك في الدولتين البويهية والسلجوقية تر من هذا الباب عجباً ثم أرجع البصر الى اونكخان ملك الترك كيف لما تنكرت نيته على جنكزخان وحقد عليه أشياء عرضها عليه عنده حساده وأراد الوقيعة به وأعلمه بذلك الصبيان فرحل من ليلته ثم حشد وجمع ووثب على أونكخان فقتله وملك ممالكه فتعلم أن الحقد من أضر الاشياء للملك وأن أوفق الاشياء له الصفح والعفو والغفران والتناسي وما أحسن قول القائل { منسرح }

اقبل من الناس ماتيسر ودع من الناس ماتعسر
فانما الناس من زجاج إن لم ترفق به تكسر

وقد مدح بعض الشعراء الحقد ولم يسمع بمن مدح الحقد غير هذا فقال { طويل }

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة فثم تري شكراً على سالف القرض
اذا الارض أدت ريع ماأنت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارض

وهذا قول لايعرج عليه وإن عرج عليه أحد فليعرج عليه غير الملك فان الملك أحوج الخلق الى استصلاح النيات واستصفاء القلوب * ومن

الخصال التي يستحب أن تكون في الملك الكرم وهو الأصل في استمالة القلوب وتحصيل النصائح من العالم واستخدام الأشراف قال الشاعر

﴿ متقارب ﴾

اذا ملك لم يكن ذا هبه   فدعه فدولته ذاهبه

ومما جاء في الحديث النبويّ صلوات الله على صاحبه (تجاوزوا عن ذنب السخي فان الله آخذ بيده كلما عثر . وفاتح عليه كلما افتقر) وقال عليّ عليه السلام الجود حارس الاعراض * واعلم انه لم يتضمن سيرة من حكايات الجود مثل مانقل عن قان العادل وهو أوكتاي بن جنكزخان فانه غبر في وجوه جميع كرام الملوك

(رجز)

مناقب تفتق مارقعتم   من جود كعب وسماح حاتم

ومن الاتفاقات الحسنة وجوده في عصر المستنصر بالله وكان المستنصر أكرم من الريح ولكن أين يقع جوده من جود قان ومن أين للمستنصر مال يفي بعطايا قان * ومنها الهيبة وبها يحفظ نظام المملكة ويحرس من اطماع الرعية وقدكان الملوك يبالغون في اقامة الهيبة والناموس حتى بارتباط الأسود والفيلة والنمور وبضرب البوقات الكبار كبوق النفير والدبادب والقصع ورفع السناجق وخفق الالوية على رؤسهم كل ذلك لاثبات الهيبة في صدور الرعية ولاقامة ناموس المملكة * كان عضد الدولة اذا جلس على سريره أحضرت الأسود والفيلة والنمور في السلاسل وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعاً لهم

ومنها السياسة وهي رأس مال الملك وعليها التعويل في حقن الدماء وحفظ الاموال وتحصين الفروج ومنع الشرور وقمع الدعار والمفسدين والمنع

من التظالم المؤدى الى الفتنة والاضطراب

ومنها الوفاء بالعهد قال تعالى سلطانه (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا) وهو الأصل في تسكين القلوب وطمأنينة النفوس ووثوق الرعية بالملك اذا طلب الامان منه خائف أو أراد المعاهدة منه معاهد * ومنها الاطلاع على غوامض أحوال المملكة ودقائق أمور الرعية ومجازات المحسن على إحسانه والمسيء على اساءته * كان أردشير الملك يقول لمن شاء من أشراف رعيته وأوضاعهم كان البارحة من حالك كيت وكيت حتى صار يقال ان أردشير يأتيه ملك من السماء يخبره بالامور وما ذاك الا لتيقظه وتصفحه * فهذه عشر خصال من خصال الخير من كن فيه استحق الرئاسة الكبرى ولو نظر أصحاب الآراء والمذاهب حق النظر وتركوا الهوى لكانت هذه الشرائط هى المعتبرة في استحقاق الامامة وما عداها فغير طائل * وقال بزرجمهر ينبغى أن يكون الملك كالارض فى كتمان سره وصبره وكالنار على أهل الفساد وكالماء فى لينه لمن لاينه وينبغى ان يكون أسمع من فرس وأبصر من عقاب وأهدى من قطاة وأشد حذراً من غراب وأعظم إقداماً من الأسد وأقوى وأسرع وثوباً من الفهد وينبغى للملك أن لا يستبد برأيه وأن يشاور فى المهمات خواص الناس وعقلاءهم ومن يتفرس فيه الذكاء والعقل وجودة الرأى وصحة التمييز ومعرفة الامور ولا ينبغى أن يمنعه عزة الملك من إيناس المستشار به وبسطه واستمالة قلبه حتى يمحضه النصيحة فانّ أحداً لا ينصح بالقسر ولا يعطى نصيحته الا بالرغبة وما أحسن قول الشاعر فى هذا المعنى

(طويل)

أهان وأقصى ثم يستنصحوننى　　ومن ذا الذي يعطى نصيحته قسراً

قال الله تعالى (وشاورهم فى الامر) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه دائماً * لما كانت وقعة بدر خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة فى جماعة من المسلمين فلما وصلوا بدراً نزلوا على غير ماء فقام اليه رجل من أصحابه وقال يا رسول الله نزولك هاهنا شيء أمرك الله به أو هو من عند نفسك قال بل هو من عند نفسى قال يا رسول الله ان الصواب ان ترحل وننزل على الماء فيكون الماء عندنا فلا نخاف العطش واذا جاء المشركون لا يجدون ماء فيكون ذلك معيناً لنا عليهم فقال رسول الله صدقت ثم أمر بالرحيل ونزل على الماء * واختلف المتكلمون فى كون الله تعالى أمر رسوله بالاستشارة مع انه أيده ووفقه وفى ذلك أربعة وجوه . أحدها انه عليه السلام أمر بمشاورة الصحابة استمالة لقلوبهم وتطييباً لنفوسهم . الثانى انه أمر بمشاورتهم فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه . الثالث انه أمر بمشاورتهم لما فيها من النفع والمصلحة . الرابع انه انما أمر بمشاورتهم ليقتدى به الناس وهذا عندى أحسن الوجوه وأصلحها * قالوا الخطأ مع المشورة أصلح من الصواب مع الانفراد والاستبداد * وقال صاحب كليلة ودمنة لا بد للملك من مستشار مأمون يفضى اليه بسره ويعاونه على رأيه فان المستشير وان كان أفضل من المستشار وأكمل عقلا وأصح رأياً فقد يزداد برأى المشير رأياً كما تزداد النار بالدهن ضوءاً ونوراً . قال الشاعر

(طويل)

اذا أعوز الرأى المشورة فاستشر   برأى نصيح أو مشورة حازم

واعلم أن للملك أموراً تخصه يتميز بها عن السوقة فمنها أنه اذا أحب شيئاً أحبه الناس واذا أبغض شيئاً أبغضه الناس واذا لهج بشيء لهج به الناس إما

طبعاً أو تطبعاً ليتقربوا بذلك الى قلبه ولذلك قيل الناس على دين ملوكهم .
فانظر كيف كان زيّ الناس فى زمن الخلفاء فلما ملكت هذه الدولة أسبغ الله احسانها وأعلى شأنها غير الناس زيهم فى جميع الاشياء ودخلوا في زى ملوكهم بالنطق واللباس والآلات والرسوم والآداب من غير أن يكلفوهم ذلك أو يأمروهم به أو ينهوهم عنه ولكنهم علموا أن زيهم الاول مستهجن فى نظرهم مناف لاختيارهم فتقربوا اليهم بزيهم وما زال الملوك فى كل زمان يختارون زياً وفناً فيميل الناس اليه ويلهجون به * وهذا من خواص الدولة وأسرار الملك

ومن خواص الملك أن صحبته تورث التيه والكبر وتقوّى القلب وتكبر النفس وليست صحبة غير الملك تفعل ذلك * ومن خواصه انه اذا أعرض عن انسان وجد ذلك الانسان فى نفسه ضعفا وان لم ينله بمكروه واذا أقبل على انسان وجد ذلك الانسان فى نفسه قوة وان لم يصبه منه خير بل مجرد الاعراض والاقبال يفعل ذلك وليس أحد من الناس بهذه المنزلة غير السلطان

وأما الخصال التي يستحب أن تكون معدومة فيه فقد ذكرها ابن المقفع في كلام له قال ليس للملك أن يغضب لان القدرة من وراء حاجته وليس له أن يكذب لانه لا يقدر أحد على الزامه بغير ما يريد * وليس له أن يبخل لانه أقل الناس عذراً فى خوف الفقر * وليس له أن يكون حقوداً لان قدره قد عظم عن المجازاة لأحد على اساءة صدرت منه * وليس له أن يحلف اذا حدّث لان الذى يحمل الانسان على اليمين في حديثه خلال اما مهانة يجدها فى نفسه واحتياج الى أن يصدقه الناس واما عيّ وحصر وعجز عن الكلام فيريد أن يجعل اليمين تتمة لكلامه أو حشواً فيه واما أن يكون قد عرف أنه مشهور عند الناس بالكذب فهو يجعل نفسه بمنزلة من لا يصدق

ولا يقبل قوله الا باليمين وحينئذ كلما ازداد أيمانًا ازداد الناس له تكذيبًا والملك بمعزل عن هذه الدنايا كلها وقدره أكبر من ذلك . ومن الخصال التي يستحب أن تكون معدومة فى الملك الحدّة فانها ربما أصدرت عنه فعلا يندم عليه حين لا ينفع الندم وأكثر ما ترى الحداد من الرجال سريعى الرجوع ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (خير أمتي حدادها)

ومن الخصال التى يستحب عدمها فى الملك الضجر والسأم والملل فذلك من أضر الامور وأفسدها لحاله

واعلم ان للملك على رعيته حقوقًا وأن لهم عليه حقوقًا فأما الحقوق التى تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة وهي الاصل الذى ينتظم به صلاح أمور الجمهور ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوىّ والقسمة بالحق ومما جاء فى التنزيل من الحث على ذلك وهى الآية المشهورة فى هذا المعنى قوله تعالى . (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) ومن أمثالهم لا امرة لمن لا يطاع . ولم ينقل فى تاريخ ولا تضمنت سيرة من السير أن دولة من الدول رزقت من طاعة جندها ورعاياها مارزقته هذه الدولة القاهرة المغولية فان طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم ترزقها دولة من الدول

فأما الدولة الكسروية فانها على عظمها وفخامتها لم تبلغ ذلك وقد كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة نائبًا لكسرى على العرب وبين الحيرة والمداين التى كانت سرير ملك الاكاسرة فراسخ معدودة والنعمان فى كل أيام قد عصا على كسري واذا حضر مجلسه تبسط وتجرأ على مجاوبته وكان متي أراد خلع طاعته دخل البرية فأمن شره * وأما الدول الاسلامية فلا نسبة لها الى هذه

الدولة حتى تذكر معها فأما خلافة الاربعة الاول وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فانها كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية فى جميع الاشياء كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفى رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشى فى الاسواق كبعض الرعية واذا كلم أدنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه وكانوا يعدون هذا من الدين الذى بعث به النبى صلوات الله عليه وسلامه . قيل إن عمر بن الخطاب جاءته برود من اليمن ففرّقها على المسلمين فحصل نصيب كل رجل من المسلمين برد واحد ثم حصل نصيب عمر كنصيب واحد من المسلمين قيل ففصله عمر ثم لبسه وصعد المنبر فأمر الناس بالجهاد فقام اليه رجل من المسلمين وقال لا سمعاً ولا طاعة قال لم ذلك قال لانك استأثرت علينا قال عمر بأى شىء استأثرت قال ان الابراد اليمنية لما فرقتها حصل لكل واحد من المسلمين برد منها وكذلك حصل لك والبرد الواحد لا يكفيك ثوباً ونراك قد فصلته قميصاً تاما وأنت رجل طويل فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قميص فالتفت عمر الى ابنه عبد الله وقال يا عبد الله أجبه عن كلامه فقام عبد الله بن عمر وقال ان أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته من بردى ما تممه به فقال الرجل أما الآن فالسمع والطاعة * وهذه السير ليست من طرز ملوك الدنيا وهى بالنبوّات والامور الاخروية أشبه * وأما خلافة بنى أمية فكانت قد عظمت وتفخم أمرها وعرضت مملكتها ولكن طاعتهم لم تكن كطاعة هؤلاء كان بنو أمية فى الشأم وكان بنو هاشم بالمدينة لا يلتفتون اليهم واذا دخل الرجل الهاشمىّ على الخليفة من بني أمية أسمعه غليظ الكلام وقال له

كل قول صعب * وأما الدولة العباسية فلم تبلغ طاعة الناس لها ما بلغت هذه الدولة مع أن مدتها طالت حتى تجاوزت خمس مائة سنة ومملكتها عرضت حتى إن بعضهم جبي معظم الدنيا وستقع الاشارة الى ذلك عند الكلام على دولة بني العباس وحاصل الدنيا في أيام الرشيد في حسبة جامعة تشتمل عليها كتب التواريخ يدل على ذلك * فأما أوائلهم فجبوا شطرا صالحاً من الدنيا وقويت شوكتهم كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون والمعتصم والمعتضد والمتوكل ومع ذلك فلم تكن دولتهم تخلو من ضعف ووهن من عدة جهات منها امتناع الروم عليهم وقيام الحرب بينهم وبين ملوكها النصارى فى كل سنة على ساق ومع ذلك فكانت جبايتها تستصعب عليهم وملوكها لا يزالون على الامتناع منهم وقد كان من أمر المعتصم وعمورية ما بلغك ولعل طرفا منه يبلغك في هذا الكتاب عند الكلام فى الدولة العباسية * ومن أسباب الوهن الواقع في دولتهم خروج الخوارج في كل وقت * فاما المنصور فلم يشرب ريقاً حلواً من ذلك خرج عليه النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علىّ بن أبي طالب عليهم السلام بالحجاز فجرت بينه وبينه حروب أفضت الى ارسال عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس الى الحجاز لمحاربة النفس الزكية فقتله بموضع قريب من المدينة يقال له أحجار الزيت وذلك في سنة كذا ولذلك سمى النفس الزكية قتيل أحجار الزيت وخرج عليه أخو النفس الزكية وهو ابراهيم بن عبد الله بالبصرة فقلق المنصور لذلك غاية القلق وقام وقعد حتى توجه اليه عيسى بن موسى فقتله بقرية قريبة من الكوفة يقال لها باخمرى فهو يعرف بقتيل باخمرى رضى الله عنه ومن هاهنا حقد المنصور على العلويين وفعل بهم تلك الافاعيل ولعل طرفاً منها يبلغك

فى هذا الكتاب اذا انتهيت من الكلام على الدولة العباسية وكذلك جرى أمر الخوارج مع خليفة خليفة حتي كان الرعية لا ينامون في بيوتهم آمنين ولا يزالون يتوقعون الفتنة والحرب كما كان حال أهل قزوين فى مجاورة قلاع الملاحدة * حدثني الملك امام الدين يحيي بن الافتخاري رضى الله عنه قال أذكر ونحن بقزوين اذا جاء الليل جعلنا جميع ما لنا من أثاث وقماش ورحل في سراديب لنا فى دورنا غامضة خفية ولا نترك على وجه الارض شيئاً خوفا من كبسات الملاحدة فاذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا فاذا جاء الليل فعلنا كذلك ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين وكثر حملهم للسلاح وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضى قزوين وتوجهه الى قآن واحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان وليس هذا الموضع موضع استيفاء الكلام في هذا فانه اعترض وليس بمقصود * وكما جري للموفق بن المتوكل في مرابطة الزنج أربع عشرة سنة ما زال يصابرهم من البصرة وواسط طول هذه المدة حتى افناهم وكان لطول المدة قد ابتنى الزنج هناك مداين ثم خربت وآثارها الآن باقية

وأما أواخرهم أعنى أواخر خلفاء بني العباس فضعفوا غاية الضعف حتى عصت تكريت عليهم وفى ذلك يقول شاعرهم (كامل)

في العسكر المنصور نحن عصابة ... من دولة أخسس بنا من معشر
خذ عقلنا من عقدنا فبما ترى ... من خسة ورقاعة وتهور
تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا ... نمضى لنأخذ ترمذاً من سنجر

وكانوا أعنى المتأخرين من خلفاء بني العباس قد اقتصروا في آخر الأمر على مملكة العراق فحسب حتى إن إربل لم تكن فى حكمهم وما زالت خارجة

عن حكمهم الى أن مات مظفر الدين بن زين الدين علىّ كوجك صاحب إربل وذلك في أيام المستنصر فعين على شرف الدين إقبال الشرابىّ وكان مقدم الجيوش ليتوجه الى إربل ليفتحها وجهزه بالعساكر فتوجه الشرابى اليها وأقام عليها أياماً محاصراً ثم فتحها فضربت البشائر ببغداد يوم وصول الطائر بفتحها فانظر الى دولة تضرب البشائر على أبواب صاحبها ويزين البلد لاجل فتح قلعة إربل التي هى اليوم فى هذه الدولة من أحقر الاعمال وأصغرها وأهونها بلى قدكان ملوك الاطراف مثل ملوك الشأم ومصر وصاحب الموصل يحملون اليهم فى كل سنة شيأ على سبيل الهدية والمصانعة ويطلبون منهم تقليداً بولاية بلادهم بحيث يتسلطون بذلك على رعيتهم ويوجبون عليهم طاعتهم بذلك السبب ولعل الخلفاء قدكانوا يعوضون ملوك الاطراف عن هداياهم بما يناسبها أو يفضل عنها كل ذلك لحفظ الناموس الظاهر وليكون لهم فى البلاد والاطراف السكة والخطبة حتى صار يضرب مثلا لمن له ظاهر الامر وليس له من باطنه شئ أن يقال قنع فلان من الامر الفلانى بالسكة والخطبة يعنى قنع منه بالاسم دون الحقيقة فهذه جمل من أحوال الدولة العباسية * وأما الدولتان البويهية والسلجوقية فلم تعرض مملكتها مع قوة شوكة ملوكهما كعضد الدولة فى بني بويه وطغرلبك فى بنى سلجوق ولم تتم طاعتها ولم يشمل ملكهما * وأما الدولة الخوارزمشاهية مع أن جريدة السلطان جلال الدين اشتملت على أربع مائة الف مقاتل فلم يعرض ملكها أيضاً ولا تجاوزت النواحى القريبة منها بلى جلال الدين غزا أطراف الهند * ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعية التعظيم والتفخيم لشأنه فى الباطن والظاهر وتعويد النفس على ذلك ورياضتها به بحيث تصير ملكة

مستقرة وتربية الاولاد على ذلك وتأديبهم به ليتربى هذا المعنى معهم

وهاهنا موضع حكاية وهي أن سلطان هذا العصر ثبت الله قواعد دولته . وبسط فى الخافقين ظل معدلته . لما ورد الى بغداذ فى سنة ثمان وتسعين وستمائة دخل المستنصرية لمشاهدتها والتفرج فيها وكان قبل وروده اليها قد زينت وجلس المدرسون على سددهم والفقهاء بين أيديهم وفى أيديهم أجزاء القرآن وهم يقرؤن منها فاتفق أن الركاب السلطاني بدأ بالاجتياز على طائفة الشافعية ومدرسها الشيخ جمال الدين عبد الله بن العاقولي وهو رئيس الشافعية ببغداد فلما نظروا اليه قاموا قياماً فقال للمدرس المذكور كيف جاز أن تقوموا الى وتتركوا كلام الله فأجاب المدرس بجواب لم يقع بموقع الاستصواب فى الحضرة السلطانية أعلى الله فى الدنيا كلمتها . وفي الآخرة درجتها . ثم بعد ذلك حكى لى المدرس المذكور صورة السؤال والجواب فأما السؤال فهو ما حكيته وأما جوابه فلم أضبطه وقلت له قد كان يمكن أن يقال فى جواب هذا السؤال ان تركنا للمصحف اذا كان فى أيدينا واشتغالنا بغيره لم يحرم علينا فى شريعتنا ولا جعل علينا فى ذلك حرج ثم إن هذا المصحف الذى قد تركناه وقمنا بين يدى السلطان قد أمرنا فيه بتعظيم سلاطيننا ٭ ومن الحقوق الواجبة للملك على رعيته النصيحة فما جاء فى الحديث صلوات الله وسلامه على من نسب اليه قوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة) قيل لمن يارسول الله قال (لله ولرسوله ولجماعة المسلمين) ٭ومنها ترك اغتياب الملك فى ظهر الغيب قال صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا الولاة فانهم ان أحسنوا كانوا لهم الاجر وعليكم الشكر وان أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر) وانما هم نقمة ينتقم الله بها ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية

والغضب واستقبلوها بالاستكانة والتضرع * وأما الحقوق الواجبة للرعية على الملك فمنها حماية البيضة وسد الثغور وتحصين الاطراف وأمن السوابل وقمع الدعار فهذه حقوق تلزم السلطان تجرى مجرى الفروض الواجبة وبهذه الأمور تجب طاعته على رعيته * ونحو من هذا احتج الخوارج على أمير المؤمنين علىّ عليه السلام عقيب انقضاء حرب صفين قالوا له انت فرطت فى حفظ هذا الثغر يعنى ثغر الشأم بتحكيمك الحكمين فانت مخطيء مفرط فليس لك علينا طاعة فان اعترفت بهذا الخطاء واستغفرت رجعنا الى طاعتك وقاتلنا معك العدو فعرفهم عليه السلام أنه غلب رأيه فى قضية التحكيم وان التحكيم لم يكن من رأيه فأصروا على قولهم ولم يقبلوا ونابذوه وقاتلوه حتى كانت الوقعة المشهورة بالنهروان * ومن الحقوق الواجبة للرعية على الملك الرفق بهم والصبر على صادرات هفواتهم * قال صلوات الله عليه وسلامه (ما كان الرفق فى شيء الا زانه . ولا كان الخرق فى شيء الا شانه) . وقد روى عنه صلوات الله عليه وسلامه (من الرفق أشياء لا تليق الا بمنصب النبوة) * كان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشأم كثير الرفق موصوفاً به دخل مرة الى الحمام عقيب مرضة طويلة أضعفته وانتهكت قوته فأدخل الحمام وهو في غاية من الضعف فطلب من مملوك كان واقفاً على رأسه ماء حاراً فأحضر له في طاسة ماء شديد الحرارة فلما قرب منه اضطربت يد المملوك فوقعت الطاسة عليه فأحرق الماء جسده فلم يؤاخذه ولا بكلام ثم طلب منه بعد ذلك بساعة ماء بارداً فأحضر له في تلك الطاسة ماء شديد البرد فحين قرب منه اتفق له ما اتفق في المرة الاولى من اضطراب يده ووقوع الطاسة عليه بذلك الماء الشديد البرد فغشى عليه وكاد يموت فلما أفاق قال للمملوك إن

كنت تريد قتلى فعرفنى ولم يزد على هذه الكلمة رضى الله عنه * قيل تقدم رجل أبخر الى بعض الرؤساء يشاوره فقال له تنح عنى فقد آذيتنى قال الرجل لا كرامة ولا عزازة ما رأسناك وقمنا بين يديك الا حتى تحتمل منا ما هو أشد من هذا وتصبر منا على ما هو اعظم منه * ومما يجب للرعية على الملك ردع قويهم عن ضعيفهم وانصاف ذليلهم من عزيزهم واقامة الحدود فيهم واقرار حقوقهم مقارها واغاثة ملهوفهم وإجابة مستصرخهم والتسوية في حكمه بين الأبعد منهم والأقرب والأذل والأعز * قال عمر بن الخطاب لرجل انى لا أحبك قال فتنقصنى من حق شيئاً قال عمر لا قال الرجل فما يفرح بالحب بعد هذا الا النساء

ويجب للملك ان يعرف نعمة الله عليه بأن اصطفاه لهذه المرتبة العلية دون سائر الخلق وبأن جعله يفزع منه كل أحد ولم يجعله يفزع من أحد فلا يزال لها ذاكراً شاكراً فاما الذكر فلامتثال قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) وأما الشكر فلطلب المزيد لقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم)

ويجب أن يكون بينه وبين ربه معاملة سرية لا يعلم بها الا الله فتلك المعاملة تقى مصارع السوء وهذه العبارة مقبولة عند جميع أصحاب الملل وعند الحكماء ايضاً هى مقبولة ويمكن تأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقادهم

ويجب أن يكون له دعوات يناجى بها ربه وهى دعوات تليق بالملوك لا تصلح للعوام ولا بأس أن أثبت في هذا الموضع فصلا من الدعاء الملكىّ وهذا مما اقترحته أنا ولم اعلم ان احداً تنبه عليه * فصل من الدعاء مختصر * اللهم انى أبرأ اليك من حولى وقوتى وألجأ الى حولك وقوتك احمدك على ان اوجدتنى من العدم . وفضلتنى على كثير من الامم . وجعلت في يدى

زمام خلقك . واستخلفتني على ارضك * اللهم خذ بيدي في المضايق . واكشف لى وجوه الحقائق . ووفقني لما تحب . واعصمني من الزلل ولا تسلب عني ستر إحسانك وقني مصارع السوء واكفني كيد الحساد . وشماتة الاضداد . والطف بي في سائر متصرفاتي . واكفني من جميع جهاتي . يا أرحم الراحمين * ويحسن بالملك الفاضل إكرام فضلاء رعيته واختصاصهم بالبر قال بعض الحكماء لا يجوز ان يكون الفاضل من الرجال الا مع الملوك مكرماً او مع النساك متبتلا كالفيل لا يحسن ان يرى الا في موضعين اما فى البرية وحشياً واما للملوك مركباً كما قال الشاعر (وافر)

كمثل الفيل اما عند ملك ... وإما فى مراتعه منيعا

ومما يكره للملك مخالطة الانذال . والسوقة والجهال . فان سماع ألفاظهم الساقطة ومعانيهم المرذولة وعباراتهم الدنية مما يحط الهمة ويضع المنزلة ويصدئ القلب ويزرى بالملك ومخالطة الاشراف ومعاشرة أفاضل الرجال مما يعلى الهمة ويذكى القلب ويفتق الذهن ويبسط اللسان * وتلك قاعدة مطردة للملوك ما زالوا يدخلون اليهم عوام الرعية ويعاشرونهم ويستخدمونهم ولم يخل احد من الخلفاء من مثل هذا وكان لسان حالهم يقول نحن نخلي الكبار كباراً فاذا اختصصنا عامياً نوهنا بذكره وقدمناه حتى يصير من الخواص كما اننا اذا أعرضنا عن احد من الخواص أرذلناه حتى يصير من اراذل العوام وكذلك هو فان هذه خاصية من خواص الملك وقد سبق ذكرها وكل هذا مأخوذ من الخواص الالهية فان العناية الالهية اذا صدرت ذرة منها الى النفوس صار ذلك الانسان نبياً أو إماماً او ملكا واذا صدرت فى حق الزمان صار ذلك اليوم يوم العيد الكبير وليلة القدر وايام الحج وايام

المواسم والزيارات لسائر الامم واذا صدرت تلك الذرة فى حق المكان صار بيت مكة والبيت المقدس والمشاهد والجوامع والزيارات والمتعبدات ومواضع التقربات

وهاهنا موضع حكاية كان ببغداذ حمال يقال له عبد الغنى بن الدرنوس فتوصل فى ايام المستنصر حتى صار براجا فى بعض أبراج دار الخليفة فما زال يحسن التوصل الى ولد المستنصر وهو المستعصم آخر الخلفاء وكان فى زمن ابيه محبوساً فما زال هذا البراج يتعهده بالخدمة طول مدة الايام المستنصرية الى أن توفى المستنصر وجلس على سرير الخلافة ولده أبو أحمد عبد الله المستعصم فعرف لهذا البراج حق الخدمة ورتبه متقدم البراجين وفى آخر الامر استحجبه فى باطن داره واختصه وقدمه حتى بلغ الى انه صار اذا دخل الى الوزير ينهض له ويخلى المجلس من جميع الناس اذا كان ابن الدرنوس حاضراً وسبب اخلاء المجلس الوزيرى عند حضور ابن الدرنوس لأجل انه يمكن ان يكون قد جاء فى مشافهة من عند الخليفة ولقب نجم الدين الخاص وصار من أخص الناس بالخليفة وبلغ من منزلته انه كان يتعصب لصاحب الديوان عند الخليفة وكان صاحب الديوان يعرض مطالعاته ومهامه على يد نجم الدين الخاص وكان يمده فى كل سنة بمال طائل حتى يحفظ غيبه ويربيه فى الحضرة الخليفية

وجرى بيني وبين جمال الدين عليّ بن محمد الدستجردانىّ رحمه الله كلام في معنى هذا ابن الدرنوس فصوبت أنا رأى المستعصم فى الاحسان اليه وقلت انه خدمه وأثبت عليه حقاً وقد كافأه فلا عيب في هذا وقال جمال الدين رحمه الله ما معناه ان تسليطه لمثل ذلك الأحمق على أعراض الناس

وأموالهم وادخاله فى المملكة حتى كاد ان يولى الوزراء ويعزلهم قبيح من المستنصر دليل على جهله والا فان كان مراده الاحسان اليه مكافأة له على سابق خدمته قد كان يجب ان يكون ذلك بمال يعطاه او برفع منزلة لا يختل بسببها أمر فى المملكة ولا يتطرق بها قدح في عقل الخليفة وكان نظر جمال الدين فى هذا المعنى ادق من نظرى والحق فى جانبه رحمه الله وكانت هذه المفاوضة بيني وبينه فى كتاب كتبته اليه اقتضى الحال فيه ذكر هذه القضية وكتب هو الجواب عنه وأعاد كتابي الى لانى التمست منه اعادة كتابي والكتابان هما فى هذا التاريخ عندى بخطى وخطه رحمه الله * ومما يليق بالملك الفاضل ويكمل فضله ان يكون عالى الهمة رحيب الصدر محبا للرئاسة معداً لها أسبابها طامح البصر اليها معملا فكره في توسيع مملكته وعلو درجته غير مخلد الى النتعم ولا جانح الى الترف ولا منهمك فى اللذات * قال بعض حكماء الفرس همم الناس صغار . وهمم الملوك كبار . وألباب الملوك مشغولة بكل شيء عظيم وألباب السوقة مشغولة بأيسر الاشياء وليعلم الملك ان الرئاسة عروس مهورها الانفس * نظر معاوية الى عسكر امير المؤمنين علىّ عليه السلام فى صفين فالتفت الي عمرو بن العاص وقال من يطلب عظيما يخاطر بعظيم وان نظرت فيما احاول فاذا الموت فى طلب العز احسن عاقبة من الحيوة مع الذل قال بعض الشعراء (طويل)

هي النفس ان ماتت فقد مات قبلها ... كرام وان تسلم فللحدثان
اذا النفس لم تشره الى طلب العلى ... فتلك من الاموات فى الحيوان

ومن الغاية فى هذا المعنى قول امرئ القيس (طويل)

ولو ان ما اسعى لادنى معيشة ... كفانى ولم اطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالى

ومما يكمل فضيلة الملك ان تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة فيكون يختار الرجال اختياراً فاضلا * كان الناصر آية الدنيا فى اختيار الرجال فكان من توصلاته الى معرفة الرجل ان اشكل عليه حاله ان يشيع بين الناس انه يريد ان يوليه المنصب الفلانى ثم يتمادى فى ابرام ذلك أياما فيمتلئ البلد بالاراجيف لذلك الرجل فيفترق فيه الناس فقوم يصوبون ذلك الرأى ويصفون فضائل الرجل وقوم يغلطون الخليفة ويذكرون عيوب الرجل وللخليفة عيون وأصحاب أخبار لا يؤبه لهم يخالطون أصناف الناس فيكتب أصحاب الأخبار اليه بما الناس فيه من الغليان فى ذلك فيعرف بصحة نظره وتمييزه أى القولين أرجح وأصوب فان رجح في نظره تفضيل الرجل ولاه وخلع عليه وإن ترجح عنده قول الطاعنين عليه وتبين له نقصه تركه وأعرض عنه * وفى الجملة فحسن الاختيار أصل عظيم قال الشاعر (بسيط)

من كان راعيه ذئباً في حلوبته فهو الذى نفسه فى أمره ظلما
يرجو كفايته والغدر عادته ومن يرد خائناً يستشعر الندما

ومما يكره للملوك المبالغة فى الميل الى النساء والانهماك فى محبتهن وقطع الزمان بالخلوة معهن فأما مشاورتهن فى الأمور فجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد ومنبهة على ضعف الرأى اللهم إلا أن تكون مشاورتهن يراد بها مخالفتهن كما قال عليه السلام (شاوروهن وخالفوهن) وفى هذا الحديث سؤال وجواب إن قال قائل اذا كان المراد مخالفتهن فى آرائهن فأى فائدة في الامر بمشاورتهن وقد كان يكفى فى هذا أن يقال خالفوهن فيما يشرن به فالجواب من وجهين أحدهما أن الامر الاول للاباحة والامر الثاني للوجوب

يعنى اذا شاورتموهن تخالفوهن والآخر أن الصواب لايزال فى خلاف أرائهن فاذا أشكل عليكم الصواب فشاوروهن فاذا ملن الى شئ فاعلموا أن الصواب فى خلافه وفى هذا تظهر فائدة الأمر بمشاورتهن يعنى بها يستدل على الصواب * وحدث ان عضد الدولة فناخسرو بن بويه شعفته امرأة من جواريه حباً وغلبت عليه فاشتغل بها عن تدبير المملكة حتى ظهر الخلل فى مملكته فخلا به وزيره وقال له أيها الملك إن هذه الجارية قد شغلتك عن مصالح دولتك حتى لقد تطرق النقص عليها من عدة جهات وماسبب ذلك إلا اشتغالك عن اصلاح دولتك بهذه الأمة والصواب أن تتركها وتلتفت الى اصلاح ماقد فسد من مملكتك قال فبعد أيام جلس عضد الدولة على مشترف له على دجلة ثم استدعى الجارية فحضرت فشاغلها ساعة حتى غفلت عن نفسها ثم دفعها الى دجلة فغرقت وتفرغ خاطره من حبها واشتغل باصلاح أمور دولته فاستعظم الناس هذا الفعل من عضد الدولة ونسبوه فيه الى قوة النفس حين قويت نفسه على قتل محبوبه * وأنا أستدل بهذا الفعل على ضعف نفس عضد الدولة لاعلى قوتها فانه لو لم يحس من نفسه بالانفعال العظيم لحبها لما توصل الى عدمها ولو تركها حية ثم أعرض عنها لكان ذلك هو الدليل على قوة نفسه * ولكل صنف من الرعية صنف من السياسة فالافاضل يساسون بمكارم الاخلاق والارشاد اللطيف والاوساط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة والعوام يساسون بالرهبة والزامهم الجدد المستقيم وقسرهم على الحق الصريح * واعلم أن الملك لرعيته كالطبيب للمريض إن كان مزاجه لطيفاً لطف له التدبير ودس له الأدوية المكروهة فى الاشياء الطيبة وتحيل عليه بكل ممكن حتى يبلغ غرضه من برئه وان كان مزاجه غليظاً عالجه

غير العلاج وصريحه وشديده ولذلك لا ينبغي للملك أن يتهدد من يكفي في تأديبه الاعراض والتقطيب وكذلك لا ينبغي أن يحبس من يكفي في تأديبه التهديد كما أنه لا ينبغي أن يضرب من يكفي في تأديبه الحبس ولا أن يقتل بالسيف من يكفي في تأديبه ضرب العصا * وتمييز هذه الحالات بعضها من بعض أعني معرفة المزاج الذي يكفي فيه التهديد ولا يحتاج الى الحبس أو يكفي فيه الحبس ولا يحتاج الى الضرب يحتاج الى لطف حدس وصحة تمييز وصفاء خاطر ويقظة تامة وفطانة كاملة فما أشد ما تشتبه الاخلاق وتلتبس الامزجة والطباع * ويجب على الملك أن ينظر في أمر القتل وازهاق النفس فيعلم أنه الحادث الذي لا حياة للحيوان بعده في الدنيا وانه لو اجتهد أهل الارض كلهم على اعادته الى الحياة لم يقدروا على ذلك وبحسب هذا الحال يجب أن يكون تثبته في ازهاق النفس وهدم الصورة وتأنيه وترويه حتى تقوم الادلة على وجوب القتل فاذا وجب استعمله على الوضع المعهود من غير تأنق فيه وتنوع غريب وتمثيل بالمقتول * ورد عن سيد البشر صلوات الله عليه وسلامه (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) * ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالسيف قبض ابن ملجم وحبس حتى ينظر مايكون من أمر علي عليه السلام فجمع عليّ ولده وخاصته وقال يابني عبد المطلب لاتجتمعوا من كل صوب تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين لا تمثلوا بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن المثلة ولو بالكلب العقور وانظروا اذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربوا الرجل ضربة بضربة

ومن فوائد التأني والتثبت في القتل الأمن من الندم حين لا يجدي الندم * كان أفاضل الملوك والخلفاء يستعملون هذه الخصلة كثيراً فلا

يسرعون الى قتل رجل معروف مشهور خوفاً أن يحتاجو اليه بعد ذلك فيتعذر عليهم بل كانوا يحبسونه في غوامض دورهم ويقيمون له كل مايحتاج اليه من أطعمة شهية وفواكه وثلج وأشربة وفرش وثير ويحملون اليه كتبا يلهو بها ويقطعون خبره عن الناس حتى يثبت في نفوس أهله وأصحابه أنه قد هلك ثم يستصفي أمواله وأموال أصحابه ويستخرج ذخائره وودائعه ويصير في عداد الموتى فلا يزال كذلك حتى تدعوهم الحاجة اليه فيخرجونه مكرما وقد تأدب وتهذب { منسرح }

من لم يؤدبه والداه   أدبه الليل والنهار

وهاهنا مزلة ربما وقع فيها أفاضل الملوك وهى ان بعض الملوك ربما كان معجباً بنفسه محباً لان ينتشر عنه حديث صرامة وشهامة وسياسة قاهرة فيستهين بالقتل ويسهل أمره ويبادر اليه وغرضه اثبات الهيبة واقامة السياسة من غير التفات الى ما فى طىّ ذلك من ازهاق النفس التى حرمت الا بالحق وهذا من أخطر الأمور على الملك والصواب أن لا يزال في نفسه كارهاً للقتل صادفا عنه مهما أمكن حتى تدعو اليه ضرورة ليس فيها حيلة فحينئذ يقدم عليه بنفس قوية وجنان ثابت فان قتل واحد أصلح من تركه حتى يحتاج الى قتل خمسة وقتل خمسة خير من تركهم حتى يدب فسادهم حتى تبلغ الحاجة الى قتل مائة ومن أجل ذلك قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقيل * القتل أنفى للقتل * وقال الشاعر (طويل)

بسفك الدما يا جارتى تحقن الدما   وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وقال المتنبي (كامل)

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

أوصى بعض الحكماء بعض الملوك قال أيها الملك انما هو سيفك ودرهمك فازرع بهذا من شكرك واحصد بهذا من كفرك * جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله اني زنيت فخذ الحد مني فأعرض عنه رسول الله والتفت الى يمينه فدار الرجل حتى حاذاه وأعاد القول فأعرض عليه السلام عنه مرة أخرى فعاود القول والتمس أخذ الحد منه فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إزهاق نفسه فقال له كمن يعلمه لا تكون قد قبلت أو عانقت أو ألممت ولم تفعل قال لا يا رسول الله ولكن زنيت فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل الرجل وأصحابه كمن يعلمهم أيضاً الاعتذار عنه وقال كأنه متغير في عقله قالوا لا يا رسول الله ما نعرفه الا عاقلا فحينئذ لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حيلة فأمر باستيفاء الحد منه * والمطامير الغامضة التخليد فيها يقوم مقام القتل مع الأمن من الندم المخشي فيه * وأما أصناف العقوبات فيجب على الملك الكامل أن ينعم النظر فيها ايضاً فكم من عقوبة قد أتت على مهجة المعاقب من غير ان يراد إزهاق نفسه * وأصعب ما فيها للتعذيب بالنار وهي عقوبة غير مباركة لان العقوبة بالنار مختصة بالله عزّ وجل فلا يجوز للعبد ان يشاركه فيها * والنظر في اصناف العقوبات موكل الى نظر الملك الفاضل ويحسب ما يقتضيه الحال الحاضر ولكن الاصل الكلي فيه ان يكون الملك في نفسه كارهاً لذلك غير متحل به لا يبادر اليه ولا يقدم عليه الا اذا دعت اليه ضرورة ماسة لا يقضي فيها حق نفسه ولا يشفي بها غيظ صدره وهذا مقام صعب لا يرتقي اليه أحد الا من أخذ التوفيق بيده * قيل ان علياً عليه السلام صرع في بعض حروبه رجلا ثم قعد على صدره ليحتز رأسه فبصق ذلك الرجل في وجهه فقام عليّ

عليه السلام وتركه فلما سئل عن سبب قيامه وتركه قتل الرجل بعد التمكن منه قال انه لما بصق في وجهي اغتظت منه نخفت ان قتلته ان يكون للغضب والغيظ نصيب في قتله وما كنت أحب أن اقتله الا خالصاً لوجه الله تعالى * قال أبرويز الملوك يشتمون بالافعال لا بالاقوال ويسفهون بالايدي لا بالألسن وقد نظم هذا المعنى شاعر العرب فقال (طويل)

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالافعال لا بالتكلم

ومما يكره للملك الانهماك في اللذات وسماع الاغاني وقطع الزمان بذلك قال الشاعر أبو الفتح البستي (بسيط)

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وما دخل الخذلان على ملك من طريق اللهو واللعب كما دخل على جلال الدين بن خوارزمشاه فانه لما هرب من المغول تبعوه فكان اذا رحل عن بلدة نزلوها بعده واذا أصبح في مكان أمسوا هم فى المكان يريدون قصده وهو مع ذلك مواصل لشرب الخمر عاكف على الدف والزمر لا ينام الا سكران ولا يصبح الا مخمورا نشوان وعسكره فى كل يوم يقل وامره فى كل يوم يزيد اضطراباً ورأيه فى كل لحظة يقيل وحدّه يفل وهو لا يشعر بذلك ولا يلتفت اليه حتى قال شاعره يخاطبه (دوبيت)

شاها زمى كران جه برجواهد خاست
وز مستى هر زمان جه برخواهد خاست
شه مست وجهان خراب ودشمن پس وپيش
پيداست كه أزين ميان جه برخواهدخاست

وممن دخل النقص عليه من الملوك بسبب اللهو واللعب محمد بن زبيدة الأمين كان كثير اللهو واللعب منهمكا فى اللذات قيل انه لعب يوماً هو ووزيره الفضل بن الربيع بالنرد فتراهنا فى خاتميهما فغلب الأمين فأخذ الخاتم وأرسل في الحال وأحضر صائغاً وكان على خاتمه مكتوب الفضل بن الربيع فقال للصائغ اكتب تحته ينكح فنقش الصائغ ذلك فى الحال ثم أعاد الخاتم الى الفضل بن الربيع وهو لا يعلم ما نقش عليه ثم مضت على ذلك مدة فبعد أيام دخل الفضل بن الربيع عليه فقال له ما على خاتمك مكتوب قال اسمى واسم ابى فتناوله الأمين ثم قال له ما هذا المكتوب تحت اسمك فلما قرأه الفضل بن الربيع فهم القضية وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم هذا والله هو الخذلان المبين انا وزيرك ولى اليوم كذا وكذا يوما أختم الكتب بهذا الى الاطراف وهو على هذه الصفة هذا والله آخر الدولة ودمارها والله لا أفلحت ولا أفلحنا معك فكانت الفتنة بعد ذلك بيسير * وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغانى لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماءه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات لا يراعون له صلاحا وفى بعض الأمثال الخائن لا يسمع صياحا وكتبت له الرقاع من العوام وفيها أنواع التحذير وألقيت وفيها الاشعار فى أبواب دار الخلافة فمن ذلك (مجتث)

قل للخليفة مهلا ... أتاك ما لا تحب
ها قد دهتك فنون ... من المصائب غرب
فانهض بعزم والا ... غشاك ويل وحرب
كسر وهتك وأسر ... ضرب ونهب وسلب

وفى ذلك يقول بعض شعراء الدولة المستعصمية من قصيدة أولها

(بسيط)

يا سائلى ولمحض الحق يرتاد أصخ فعندى نشدان وانشاد
واضيعة الناس والدين الحنيف وما تلقاه من حادثات الدهر ببغداد
هتك وقتل وأحداث يشيف بها رأس الوليد وتعذيب وأصفاد

كل ذلك وهو عاكف على سماع الأغانى واستماع المثالث المثانى وملكه قد أصبح وهى المبانى * ومما اشتهر عنه أنه كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب وفى تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو اليه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار فقال بدر الدين انظروا الى المطلوبين وابكوا على الاسلام وأهله * وبلغنى أن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمىّ كان فى أواخر الدولة المستعصمية ينشد دائما

(خفيف)

كيف يرجى الصلاح من أمر قوم ضيعوا الحزم فيه أى ضياع
فمطاع وليس فيه سداد وسديد المقال غير مطاع

قالوا ولا ينبغى للرجل الكامل إلا أن يكون في الغاية القصوى من طلب الرئاسة أو في الغاية القصوي من تركها (وافر)

اذا مالم تكن ملكا مطاعا فكن عبداً لخالقه مطيعا
وان لم تملك الدنيا جميعا كما تهواه فاتركها جميعا

وها هنا موضع حكاية تشتمل على أدوات الرئاسة * قيل ورد أبو طالب الجراحىّ الكاتب ولم يكن فى عصره أكتب ولا أفضل منه الى الرىّ قاصداً حضرة ابن العميد فلم يجد عنده قبولا ولا رأى عنده ما يحب ففارقه وقصد

أذربيجان وسار الى ملكها وكان فاضلا لبيباً فلما اختبره وعرف فضله سأله المقام عنده وأفضل عليه فأقام لديه على أفضل حال فكتب الى ابن العميد يوبخه على جهل حقه وتضييعه لمثله فمن جملة الكتاب حدثنى بأى شئ تحتج اذا قيل لك لم سميت الرئيس واذا قيل لك ما الرئاسة أتدرى ما الرئاسة الرئاسة أن يكون باب الرئيس مصونا فى وقت الصون ومفتوحا فى وقت الفتح وأن يكون مجلسه عامراً بأفاضل الناس وخيره واصلا الى كل احد وإحسانه فائضا ووجهه مبسوطا وخادمه مؤدبا وحاجبه كريما طلقا وبوابه لطيفا ودرهمه مبذولا وطعامه مأكولا وجاهه معرضا وتذكرته مسودة بالصلات والجوائز والصدقات وأنت فبابك لا يزال مقفلا ومجلسك خاليا وخيرك مقنوطا منه وإحسانك غير مرجو وخادمك مذموم وحاجبك هرار وبوابك شرس الاخلاق ودرهمك فى العيوق وتذكرتك محشوة بالقبض على فلان واستئصال فلان ونفى فلان فبالله عليك هل عندك غير هذا ولولا أنا أكون قد دست بساطك وأكلت من طعامك لأشعت هذه الرقعة ولكنى أرعى لك حق ما ذكرت فلا يعلم بها الا الله وأنت ووالله ثم والله ثم والله ما لها عندى نسخة ولا رآها مخلوق غيرى ولا علم بها فأبطلها أنت اذا وقفت عليها وأعدمها (والسلام على من اتبع الهدى) ويجب ان يكون الملك مجازيا على الاحسان بمثله وعلى الاساءة بمثلها لتكون رعيته دائما راجين لبره خائفين من سطوته وما احسن قول النابغة للنعمان بن المنذر فى هذا الباب وهو

(بسيط)

ومن اطاعك فانفعه بطاعته	كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقالت الفرس فساد المملكة واستجراء الرعية وخراب البلاد بابطال الوعد والوعيد ولا يليق بالملك الفاضل أن يكون افتخاره بزخارف الملك مما حوته يده واشتملت عليه خزانته من نفائس الذخائر وطرائف المقتنيات فان تلك ترهات لاحقائق لها ولا معرج لفاضل عليها * وكذلك لاينبغي له أن يكون فخره بالآباء والأجداد وانما ينبغي أن يكون فخره بالفضائل التي حصلها . والأخلاق التي كملها . والآداب التي استفادها . والأدوات التي استجادها

افتخر بعض الأغنياء عند بعض الحكماء بالآباء والأجدادوبزخارف المال المستفاد فقال له ذلك الحكيم ان كان في هذه الاشياء فخر فينبغي أن يكون الفخر لها لالك وان كان آباؤك كما ذكرت أشرافا فالفخر لهم لا لك * قال العسجدى كان بعض الحكماء اذا وصف عنده انسان يقول هو عصامي أم عظامي فان قيل له هو عصامي نبل في عينه وان قيل هو عظامي لم يكترث به وقوله عصامي إشارة الى قول القائل (رجز)

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

يعني أنه بعقله وبنفسه صار رئيساً وقوله عظامي يعني أنه يفتخر بالآباء والأجداد والعظام النخرة * قال العسجدي لبعض أصحاب ابن العميد ذى الكفايتين كيف رأيت الوزير فقال رأيته يابس العود . ذميم العهود . سيء الظن بالمعبود . فقال العسجدى أما رأيت تلك الأبهة والصيت والموكب والتجمل الظاهر والدار الجليلة والفرش السني والحاشية الجميلة فقال ذلك الرجل الدولة غير السودد والسلطنة غير الكرم والحظ غير المجد أين الزوار

والمنتجعون وأين الآملون والشاكرون وأين الواصفون الصادقون وأين المنصرفون الراضون وأين الهبات وأين التفضلات وأين الخلع والتشريفات وأين الهدايا وأين الضيافات هيهات هيهات لاتجئ الرئاسة بالترهات ولا يحصل الشرف بالخزعبلات اما سمعت قول الشاعر (متقارب)

أباجعفر ليس فضل الفتى اذا راح في فرط إعجابه
ولا فى فراهة برذونه ولا في ملاحة أثوابه
ولكنه في الفعال الجميـ ـل والكرم الأشرف النابه

ولمؤلف هذا الكتاب أصلح الله شأنه . وصانه عما شانه . في هذا المعنى (خفيف)

ليس فضل الفتى على الناس في ثو ب ودار وبغلة ولجام
انما الفضل فى تفقد جار ونسيب وصاحب وغلام

قالوا السياسات خمسة أنواع سياسة المنزل والقرية والمدينة والجيش والملك فمن حسنت سياسته فى منزله حسنت سياسته فى قريته ومن حسنت سياسته فى قريته حسنت سياسته فى مدينته ومن حسنت سياسته فى مدينته حسنت سياسته للجيش ومن حسنت سياسته للجيش حسنت سياسته للملك * وأنا لا أرى هذا لازماً فكم من عاميّ حسن السياسة لمنزله ليس له قوة سياسة الأمور الكبار وكم من ملك حسن السياسة لمملكته ليس يحسن سياسة منزله * والمملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم واختلفوا فى السيف والقلم ايهما افضل وأولى بالتقديم فقوم يرون ان يكون القلم غالباً للسيف واحتجوا على مذهبهم بأن السيف يحفظ القلم فهو يجرى معه مجرى الحارس والخادم وقوم يرون ان يكون السيف هو الغالب واحتجوا بأن القلم

يخدم السيف لانه يحصل لأصحاب السيوف ارزاقهم فهو كالخادم له * وقوم قالوا هما سواء ولا غني لأحدهما عن الآخر * قالوا المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة وتساس بالرئاسة * وقالوا الشجاعة لصاحب الدولة * ومن وصايا الحكماء اجعل قتال عدوك آخر حيلتك وانتهز الفرصة وقت امكانها وكل الأمور الى اكفائها ومن ركب ظهر العجلة لم يأمن الكبوة ومن عادى من لا طاقة له به فالرأى له مداراته وملاطفته والتضرع اليه حتى يخلص من شره ببعض وجوه الخلاص * قالوا وينبغى للملك ملاطفة اعدائه واخوان اعدائه فبدوام الاحسان اليهم تزول عداوتهم وان أصروا على عداوته بعد احسانه كانوا قد بغوا عليه ومن بغي عليه لينصرنه الله * وعظ بعض الحكماء بعض افاضل الملوك فقال

الدنيا دول فما كان فيها لك أتاك على ضعفك وما كان فيها عليك لم تدفعه بقوتك والشر مخوف ولا يخافه الا العاقل والخير مرجو يطلبه كل أحد وطالما تأتى الخير من ناحية الشر وتأتي الشر من جهة الخير وهذا مأخوذ من قوله عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) * وها هنا موضع حكاية * تقدم نور الدين صاحب الشأم الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالتوجه الى مصر لأمر ندبه اليه فقال أسد الدين شيركوه يامولانا ما أتمكن من هذا دون أن يجيء صحبتى يوسف بن أخى يعنى صلاح الدين قال فتقدم نور الدين الى صلاح الدين بالتوجه صحبة عمه أسد الدين شيركوه فاستعفاه صلاح الدين من التوجه وقال ليس لى استعداد فتقدم نور الدين بازاحة علله وجزم عليه في التوجه قال صلاح الدين فخرجت مع عمى كارهاً

وأنا كمن يقاد الى المذبح فلما وصلنا مصر وأقمنا بها مـدة كان منى ما كان من تملك مصر ثم ملكها صلاح الدين وعرضت مملكته وتملك الشأم بعدها وسيأتيك نبأ هذا مفصلا مشروحا عندالكلام على الدولة الصلاحيه إن شاء الله تعالى ووفق * قالوا العـدو عدوان عدو ظلمك وعدو ظلمته فأما العـدو الذي ظلمته فلا تثق اليه واحترز منه مهما أمكنك وأما العدو الذى ظلمك فلا تخفـه كل الخوف فانه ربمـا استحيي من ظلمك وندم فرجع لك الى ماتحب منه وان أصر على ظلمك انتصف لك منه من اليه يلجأ المظلومون

وربمـا نفع العـدو وضر الصـديق * قال الاسكندر انتفعت بأعدائي أكثر ممـا انتفعت بأصدقائى لان أعدائى كانوا يعيرونى ويكشفون لى عيوبى وينبهونى بذلك على الخطأ فأستدركه وكان أصدقائى يزينون لى الخطأ ويشجعونى عليه * وقال الشاعر (طويل)

وما ساءنى الا الذين عرفتهم جزى الله خيرا كل من لست أعرف

وقيل للاسكندر بم نلت هـذه المملكة العظيمة على حداثة السن قال باستمالة الاعداء وتصييرهم بالبر والاحسان أصدقاء وتعاهد الاصدقاء بأعظم الاحسان وأبلغ الاكرام * قال بعض الحكماء لايرد بأس العدو القاهر مثل التذلل والخضوع كما أن النبات الرطب يسلم من الريح العاصفة بلينه لانه يميل معها كيف مالت * وما لهج الملوك بشيء أشـد من لهجهم بالصيد والقنص وهو الشيء الذى طالما اتفقت فيه النكت العجيبة . والطرف الغريبة . وكان المعتصم ألهج الناس به بنى فى أرض دجيل حائطاً طوله فراسخ كثيرة وكان اذا ضرب حلقة يضايقونها ولا يزالون يحدون الصـيد حتى يدخلونه وراء ذلك الحائط فيصير بين الحائط وبين دجلة فلا يكون للصيد مجال فاذا انحصر

فى ذلك الموضع دخل هو وولده وأقاربه وخواص حاشيته وتأنقوا فى القتل وتفرجوا فقتلوا ماقتلوا وأطلقوا الباقي * وقيل إن المعتصم دوغ عدة من حمر الوحش وأطلقهم لانه بلغه أن أعمارها طويلة * وها هنا موضع حكاية طريفة عجيبة * حدثنى صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر الارموى قال حدثنى مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير قال خرجنا مرة في خدمة الخليفة المستعصم الى الصيد وضربنا حلقة قريباً من الجلهمة وهى قرية بين بغداد والحلة ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارس منا يصيد الحيوان بيده فخرج في جملة حمر الوحش حمار كبير الجثة عليه وسم فقرأناه واذا هو وسم المعتصم قال فلما رآه المستعصم وسمه بوسمه وأطلقه وكان بين المعتصم وبين المستعصم حدود خمس مائة سنة * ومن ظريف ماسمعت من أمر الصيد ماحدثنى به رجل من أهل الأدب ببغداذ قال حدثني محمد بن صالح البازيارى قال تصيدنا بين يدي السلطان أباقا يوما فطار ونحن بين يديه ثلاثة كراكي على سمت مستقيم فأطلقنا شاهيناً فعلا وانحط على الأعلى من الكراكى فلطمه فوقع على الثانى فكسره ثم وقعا كلاهما على الثالث فكسراه ووقعت الثلاثة بين يدي السلطان قال فتعجب من ذلك غاية التعجب وخلع علينا جميعنا * وقال الصاحب علاء الدين فى جهان كشاى ان حلقة جنكزخان كان أمدها مسير ثلاثة شهور

وما أري هذا الا مستبعداً وما لهج الملوك بالصيد هذا اللهج الشديد ولا كلفوا به هذا الكلف العظيم وأطلقوا للبازيارية الاموال الجليلة وأقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم وقطعوا معظم زمانهم فيه باطلا ولا عبثا فان القنص يشتمل على فوائد كثيرة جليلة النفع منها وهو الغرض

الأشرف منه تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم على الفروسية وادمانهم للرمى بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس واعتياد القتل والسفك وتقليل المبالاة باراقة الدماء وغصب النفوس * ومنها اختبار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض * ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج * ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم لانه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد في حرارة الانسان * قال بعض الحكماء وخير اللحم ما أقلقه الجارح اقلاقا * ومنها الطرف العجيبة التى تتفق فيه وقد تقدم ذكر شئ منها * وكان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لايزال لاهيا به وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربع مائة الف دينار جناية وجعلها فى خزن بيت المال فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله الى يزيد وكانت دمشق فى تلك الايام فيها سرير الملك فلما وصل الرجل الى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه فى الصيد فكره أن يدخل دمشق وليس يزيد حاضراً فيها فضرب مخيمه ظاهر المدينة وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد فبينا هو فى بعض الايام جالس فى خيمته لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه الخيمة وفى قوائمها الاساور الذهب وعليها جل يساوي مبلغاً كثيراً وقد بلغ منها العطش والتعب وقد كادت تموت تعباً وعطشا فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه فقام اليها وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل وعليه زىّ الملوك وقد علته غبرة فقام اليه وسلم عليه فقال له أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع فقال

نعم يامولانا ها هى فى الخيمة قد شربت ماء واستراحت وقد كانت لما جاءت الى ها هنا جاءت على غاية من العطش والتعب فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر الى الكابة وقد استراحت فجذب بحبلها ليخرج فشكا الرجل اليه حاله وعرفه ما أخذ منه عبيد الله بن زياد فطلب دواة وكتب له برد ماله وخلعة سنية وأخذ الكابة وخرج فرد الرجل من ساعته الى الكوفة ولم يدخل دمشق * وكان السلطان مسعود يبالغ أيضاً فى ذلك ويلبس الكلاب الجلال الأطلس الموشاة ويسورها بالاساور وكان يقلل فى بعض الوقت الالتفات الى أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب النصرانى وكان فاضلا ظريفاً فقال (كامل)

من كان يلبس كلبه وشياً ويقنع لى بجلدى
فالكلب خير عنده منى وخير منه عندي

وحدثنى الامير فخر الدين بغدى بن قشتمر قال ضرب جدى الملك قشتمر حلقة للصيد فوقع فيها انسان قصير جداً كصغير يكون عمره خمس سنين وقد طالت أظفاره وشعر بدنه طولا مفرطاً قال فأمسكوه وأحضروه بين يدى الناصر فاستنطقوه فلم ينطق فاحضروا له الطعام فلم يأكل والماء فلم يشرب فاجتهدوا معه بكل ممكن على أن يتكلم وهو صامت لا ينطق ببنت شفة فقال له بعض الحاضرين فأى شىء تريد فلم يتكلم فقال له تريد نطلقك فحرك رأسه يعنى نعم قال فتقدم الناصر باطلاقه فلما أطلق عدا أشد من عدو الغزال ثم دخل البرية * سئل بزرجمهر عن أردشير فقال أحيى الليل للحكمة وفرغ النهار للسياسة * وقيل له لأى حال عم كسرى بمعروفه جميع رعيته قال خوفاً ان يفوته المستحق * قيل له فكيف يمكن ان يعم بمعروفه جميع

رعيتـه قال نعم كان ينوى لهم الخير فاذا نوى لهم الخير فقـد عمهم بمعروفه * روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن قالوا لأن الناس يخافون من عواجل العقوبة أشد مما يخافون من آجلها

ومما لا يليق بالملك الكامل الافاضة فى مجلسه فى وصف الطعام والنساء لئلا يشارك بذلك العامة لأن العامة قد قنعوا من عيشهم باليسير واقتصروا عليه وتركوا الأمور الكبار فاذا ارادوا أن يفيضوا فى حديث لم يكن لهم الا وصـف أنواع الاطعمة ووصف أصـناف النساء * قال الأحنف بن قيس جنبوا مجالسنا ذكر الطعام والنساء فانى أبغض أن يكون الرجل وصافاً لبطنه مداحاً لفرجه مائلا بصـغوه الى النساء * قال أبرويز لابنـه لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تضيق عليهم فيضجروا منك وأعطهم عطاء قصداً وامنعهم منعاً جميلا ووسع عليهم فى الرجاء ولا توسع عليهم فى العطاء * ولما سمع المنصور هذا الكلام صادف منه موضعاً قابلا للشحّ الغالب عليه فقال هذا هو الرأي وهـذا معنى قول القائل أجع كلبك يتبعك فقام اليـه بعض القواد وقال يا أمير المؤمنين أخاف أن يلوح له غيرك برغيف فيدعك ويتبعه* قالوا سياسة الرئاسة أشد من الرئاسة كما أن سياسة الخدمة أشد من الخـدمة وكما ان التوقى بعد شرب الدواء أشد من الدواء وكذلك رب الصنيعة أشد من الصنيعة وعلى الرئيس أن يصبر على مضض الرئاسة * قال بعض حكماء الترك ينبـغى أن يكون فى قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان جرءة الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وغارة الذئب وحراسة الكركى وسخاء الديك وشفقة الدجاجة على الفراريج وحذر الغراب

وسمن تعرو وهى دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد * قالوا والفاضل من طلاب الرئاسة هو الذى يكون مطبوعاً على المعرفة مخلوقاً فيه صحة التمييز مكتسباً للعلم بما جرى فى الدنيا من تصاريف الدهور وتنقل الدول عارفاً بمداراة الاعداء كتوما لسره اذكان قطب السياسة عليه يدور وأن يستمد لعقله من عقول العقلاء فان العقل الفرد لا يقوم بنفسه * وينبغي أن يكون ذا روية عند اشتباه الآراء وعزيمة عند اختلاف الاهواء حتى يكشف * واما الحزم فهو الاصل الذى يبنى عليه فى تحصين المملكة وقدكان يجب تقديمه وذكره فى أول الكتاب عند أخواته من الخصال المحمودة ولكن العقل يشتمل عليه ويستلزمه فأكتفى بذكره عنه ولا بأس بذكر نبذة في هذا الموضع منه * قالوا أحزم الملوك من ملك جده هزله وقهر رأيه هواه وعبر عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن حظه ولا غضبه عن كيده * وكان يقال الحازم من الملوك من يبعث العيون على نفسه ويتفقدها حتى لا يكون الناس بعيبه أعلم منه بعيب نفسه * وقالوا أحزم الملوك من حمل رعيته على التخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه بالرفق والتوصل الحسن والتأنى اللطيف * وخطر لى فى هذا المعنى سر لطيف وهو ان الرعية اذا تدرجوا الى التخلق بأخلاق الملك والتأدب بآدابه صاروا مستحسنين لصادرات أحواله وأفعاله لانهم هم يفعلونها ويعتمدونها فلا يصير أحد منهم يذم سيرته ولا يزري عليه ومتى كانت طباعهم منافية لطباعه واخلاقهم مضادة لاخلاقه اغروا بالازراء عليه والذم لأفعاله وهذا سر لطيف منطو فى قولهم * وقالوا أحزم الملوك من تقدم باحكام الأمر قبل نزول حاجته وتدارك المهم الخطر قبل وقوعه * قيل للاسكندر ما علامة دوام الملك قال الاقتداء بالحزم والجد

فى كل الأمور

قيل فما علامة زواله قال الهزل فيه * وقال أنوشروان الحزم حفظ ما وليت وترك ما كفيت * وقال آخر أحزم الملوك من ملك أمره ودبر خصاله وقمع شهوته وقهر نوازعه * قالوا ينبغي ان يكون اول امر الملك الحزم فاذا وقع الامر فينبغى ان يكون حينئذ الجد والاجتهاد * قيل لبعض فضلاء الملوك نراك اذا وفد عليك وافد اطلت مجالسته وربما لا يكون اهلا لذلك قال ان حقيقة حال الرجل لا تبين في مجلس او مجلسين فأنا أطاول عشرته وأختبره فى عدة مجالس فان كان فاضلا اصطفيته وان كان ناقصاً تركته * وقال آخر لا ينبغى لأحد ان يدع الحزم لظفر ناله عاجز ولا يرغب فى تضييعه لنكبة دخلت على حازم * قالوا من لم يقدمه الحزم أخره العجز * وقيل لعبد الملك بن مروان ما الحزم قال اختداع الناس بالمال واستمالتهم به فانهم اتباعه أين كان كانوا وكيف مال مالوا * وقال بعض الملوك لبعض الحكماء متى تكون الثقة بالعدو حزما قال اذا شاورته في امر هو لك وله * وقال مسلمة بن عبد الملك ما فرحت بظفر ابتدأته بعجز ولا ندمت على مكروه ابتدأته بحزم

ومما يجب على الملك الفاضل إمعان النظر في امر الأسرار وصونها وتحصينها وحراستها من الافشاء والذياع وهذا باب يحتاج فيه الى التأنى التام فكم من مملكة خربت وكم من نفس تلفت بسبب ظهور سر واحد وحفظ السر وكتمانه من افضل ما اعتنى به الانسان * فمما جاء في ذلك في الحديث (من كتم سره . ملك امره) * وقال عليّ عليه السلام الرأي تحصين السر أسرّ بعض الناس الى رجل حديثاً وأمره بكتمانه فلما انقضى الحديث

قال له فهمت قال بل نسيت . وقال عمرو بن العاص اذا أفشيت سري الى صديق فاذاعه كان اللوم لي لا له قيل له وكيف ذلك قال لانى انا كنت اولى بصيانته منه . ومن اناشيد هذا الباب (طويل)

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

قالوا لا ينبغي أن يكون سر الملك إلا عند واحد فانه اذا كان عند واحد كان أحرى أن لا يظهر إما رغبة وإما رهبة لانه إن ظهر تحقق الملك أن ظهوره قد كان من جهة ذلك الرجل ومتى كان السر عند جماعة ثم ظهر أحال كل واحد منهم على الآخر فان عاقبهم الملك جميعاً كان قد ظلمهم إلا واحداً وان ترك معاقبتهم طمعوا وتطرقوا على افشاء أسراره قال الشاعر

(متقارب)

وسرك ما كان عند امرىء وسر الثلاثة غير الخفى

فان احتاج الملك الى إظها سره لجماعة فأصلح ما له أن يفضى به الى كل واحد منهم على سبيل الانفراد ويوصيه بالكتمان ويوهمه أنه ما أفضى الى غيره به فذلك أجدر لأن ينكتم السر * شاور بعض ملوك الفرس وزراءه في أمر فقال واحد منهم لا ينبغي للملك أن يستشير بأحدنا إلا خالياً به فانه أكتم للسر وأحزم فى الرأى وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض

وما اعتنت دولة بتحصين الأسرار والمبالغة في حفظها كالدولة العباسية فان لها من هذا الباب عجائب وكم من نعمة أزالوها عن أربابها ونفس أزهقوها بسبب كلمة منقولة أو حكاية مقولة * جرى في أيام الناصر قضية ظريفة لا بأس بذكرها ها هنا

كان للناصر ولدان هما ولدا ولده وكان قد أقطعهما بلاد خوزستان

وتوجها اليها وأقاما بها ففي بعض الليالى أفكر الناصر في أمرهما واشتاقهما وخاف عليهما من حادث يحدث بتلك الناحية فأرسل في الحال الى وزيره القمىّ وقال له أرسل في هذه الساعة اليهما من يأمرهما بالوصول الى بغداذ ولا تشعر بهذا مخلوقاً فأحضر الوزير نجاباً في ذلك الحال وكان جماعة من النجابين يبيتون في كل ليلة بباب الديوان يبيت أحدهم وتحت رأسه راحلته وزاده ونفقته وقد ودّع أهله فان عرض فى الليل مهم توجه فيه فلما حضر النجاب بين يدى الوزير شافهه بالمراسلة وقال له تخرج فى هذه الساعة واياك أن يعلم هذا أحد فيكون عوضه نفسك ثم تقدم الوزير يحمل مفتاح باب من أبواب السور له فلما مضى ليخرج اجتاز ببعض الدروب وامرأتان فى منظرتين متقابلتين تتحدثان فقالت إحداهما للأخرى ترى هذا النجاب الى أين يمشى فى هذا الوقت فقالت لها الأخرى يمشى الى دستر لاحضار أولاد الخليفة فانه قد خاف عليهما وقد اشتاقهما لانّ مدتهما هناك قد طالت فلما سمع النجاب ذلك رجع من ساعته الى الديوان واستأذن على الوزير فلما علم الوزير برجوعه انزعج لذلك وأحضره وسأله عن سبب عوده فقال له يامولانا جرى الساعة فى الدرب الفلانىّ كيت وكيت وخفت أن أتوجه وينتشر هذا الحديث فما تشكون فى أنى أنا الذى أظهرته فيكون ذلك سبب هلاكى فقال له الوزير قد عرفنا ذلك اخرج وتوجه فى أمان الله فان الشياطين تنقل عظائم الاخبار * ومما يجرى هذا المجرى ما حدثنى به بعض أهل بغداذ قال حدثنى صديق لى قال كنا نمشى فى دولاب بستان البقل وقد أمعنا فى الدخول الى أقصاه فسمعنا صوت قائل يقول مات أباقا قال فنظرنا فلم نبصر أحداً ثم اننا أرّخنا اليوم فلما فشا الخبر كان كما قال * قيل إن صاحب الموصل وأظنه بدر

الدين قال لمجد الدين بن الأثير الجزرى أريد أن تعين لى في هذه الساعة على رجل دين أمين يكون موضعاً للسر حتى احمله مشافهة سرية الى الخليفة ويتوجه في هذه الساعة فأفكر ابن الاثير ساعة ثم قال يا مولانا ما أعرف أحداً بهذه الصفة إلا أخي قال فقم وعرفه ذلك وأرسله الى داره وحكى لأخيه ما جرى عند السلطان وقال له يا أخي والله ما شهدت لك إلا بما اعرفه منك فتوجه الى خدمة السلطان وامتثل ما يشير به فحضر ابن الاثير عند السلطان وشافهه بالمراسلة وقال له تتوجه فى هذه الساعة فحضر ابن الاثير الى داره ليودّع أخاه فوجده قائماً فى الدهليز ينتظره فقال له شافهك السلطان بالحديث قال نعم قال فما هو قال يا أخي الساعة شهدت لى عنده بالدين والأمانة وحفظ السر فيجوز ان أكذبك فى الحال قال لى شيئاً ما أقوله إلا لمن أمرنى بأن أقوله له قال فبكى مجد الدين أخوه ودعا له ❊ ومن الأشعار المقولة في ذلك قول الحماسى

(طويل)

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرئ شعب من القلب فارغ ... وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظلون شتى في البلاد وسرهم ... الى صخرة أعيي الرجال انصداعها

ومن جيد ما قيل في ذلك

(بسيط)

لا تسئلى القوم ما مالى وكثرته ... وسائلى القوم ما مجدى وما خلقى
هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

ومن جيده قول الصابئ

(طويل)

فقل لصديق كن على السر آمناً ... اذا لم يكن بيني وبينك ثالث

وقول الآخر (وافر)

وانك كلما استودعت سراً أنم من النسيم على الرياض

ولمؤلف هذا الكتاب في ذلك من جملة أبيات (طويل)

وما احتقر الاصحاب للسر حفرة كصدري ولو جار الشراب على عقلي

وله في ذلك أيضاً (وافر)

وان يكن الزجاج نم طبعا فسيدنا أنم من الزجاج

ومن الامور التي يجب تدقيق الفكر فيها والتثبت التام والتأني في تأملها حديث السعايات والنمائم فكم من نمام أو ساع قد شفى غيظه بايقاع مسكين بين يدى ملك قاهر في تهمة هو برىء منها ثم اشتبه الامر على الحاكم فأهلك الرجل البريء بغير ذنب ثم لما علم بصورة الحال ندم حين لا ينفع الندم فعم الضرر بذلك الثلاثة الساعي والمسعىّ اليه لانهما أهلكا دينهما بما فعلاه والمسعيّ به لتعجله العقوبة فعم الضرر الثلاثة * ومما جاء في ذلك في التنزيل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)

ومما جاء في الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفعن الينا عورة أخيه المسلم) رفع إنسان الى يحيي بن خالد بن برمك قصة يقول فيها إنه قد مات رجل تاجر غريب وقد خلف جارية حسناء وولداً رضيعاً ومالا كثيراً والوزير أحق بهذا فكتب يحيي بن خالد على رأس القصة أما الرجل فرحمه الله وأما الجارية فصانها الله وأما الطفل فرعاه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعى الينا بذلك فلعنه الله * قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان دمشق ولم يكن في بني أمية أبّ منه وكان حدث السن طمع فيه أهل دمشق

وقالوا صبي لا علم له بالأمور وسيسمع كل ما تقول له فقام اليه رجل وقال أصلح الله الأمير نصيحة فقال ليت شعرى ما هذه النصيحة التي قد ابتدأتني بها من غير يد سبقت منى اليك هات نصيحتك قال لى جار وهو عاص خالع للطاعة وذكر له عيوباً فقال له عبد العزيز انك أيها الرجل ما اتقيت الله تعالى ولا أكرمت اميرك ولا حفظت جوارك إن شئت نظرنا فيما تقول فان كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا وإن كنت كاذبا عاقبناك وإن استقلتنا اقلناك فقال بل أقلنى أيها الأمير قال اذهب حيث شئت لاصحبك الله اني أراك شر رجل

كان الوزير علىّ بن محمد بن الفرات وزير المقتدر يبغض السعاة فكان اذا رفع أحد اليه قصة فيها سعاية بأحد يخرج حاجبه الى الباب والناس على طبقاتهم وقوف فيقول أين صاحب هذه السعاية قد قال لك الوزير كذا وكذا فيفتضح ذلك الرجل فى ذلك الجمع فترك الناس السعايات فى أيامه * قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من عرف فاحشة فأفشاها كان هو الذى اتاها * كتب قباذ الملك لابنه كسرى عهداً فمن جملته يا بنىّ لا تدخل فى مشورتك بخيلا فانه يقصر بك عن غاية الفضل ولا جبانا فانه يضيق عليك الأمور عند انتهاز الفرصة * يا بنيّ ليكن أبغض رعيتك اليك أكثرهم تكشيفاً لمعايب الناس فان فى الناس عيوباً أنت أحق من سترها وكره ما تكشف من غائبها فانما اليك الحكم على ما ظهر والله يحكم فيما غاب فاكره للرعية ما تكره لنفسك واستر العورة يستر الله عليك ما تحب ستره ولا تعجل الى تصديق ساع فان الساعى غاش وإن قال قول النصيح وأعط الناس من عفوك مثل ما تحب أن يعطيك من فوقك * ومن مليح ما قيل فى ذلك قول مهيار يخاطب بعض الوزراء

(كامل)

يا سيف نصرى والمهند تابعى　　وربيع دهرى والزمان مصاف
ومعيد أيامي علىّ بدائنا　　سمناً وهن على الأنام عجاف
أخلاقك الغر السجايا مالها　　حملت قذى الواشين وهي سلاف
والافك فى مرآة رأيك ماله　　يخفي وأنت الجوهر الشفاف

ومن مليح ذلك قول القائل　　(بسيط)

سعي اليك بى الواشى فلم ترنى　　أهلا لتكذيب ما ألقى من الخبر
ولو سعى بك عندى في ألذ كرى　　طيف الخيال لبعت النوم بالسهر

اختلفوا فى الملك القاهر العسوف والملك المقتصد الضعيف ففضلوا القاهر العسوف واحتجوا بأن القوى العسوف يكف الاطماع عن رعيته ويحميهم من غيره بقوته وله أنفة تعصمهم من شر غيره فتكون رعيته بمثابة من كفى شر جميع الناس وابتلى بشر واحد * وأما المقتصد الضعيف فيهمل رعيته فيتسلط عليهم كل أحد ويدوسهم كل حافر فيكونون بمثابة من كفى شر واحد وابتلى بشر جميع الناس وبين الحالين بون بعيد

وقال بعض الحكماء سلطان يخافه الرعية خير من سلطان يخافها * قال أنوشروان عندى لمن عرض دمه سفكه ولمن جاوز حده تقويمه ولمن تعدى طوره قمعه * قال بعض الحكماء أمران جليلان لايصلح أحدهما الا بالتفرد والاستبداد ولا يصلح الآخر إلا بالاشتراك فأما الذى لايصلح الا بالانفراد فالملك متى وقع فيه الاشتراك فسد وأما الذى لا يصلح الا بالاشتراك فالرأى متى وقع فيه الاشتراك وثق فيه بالصواب * ولا يجوز للملك أن يصغر في نفسه أمر عدوه وان كان صغيراً فى نفس الأمر ولا يجوز لجلساء الملك أن

يصغروا أمر عدوه عنده فانهم ان صغروه حتى ظفر به العدو كان وهناً له اذ قد غلبه عدو صغير وان ظفر هو بالعدو لم يكن قد صنع طائلا * لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقعة بدر ومعه الاسرى والغنائم وقد قتل الله رؤس المشركين تلقاه الناس من ظاهر المدينة عن أميال فجعلوا يهنؤنه بالفتح وجعل الناس يسئل بعضهم بعضاً عمن هلك وسلم فقال بعض الصحابة والله ماقتلنا الا عجائز صلعا فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم باللوم ولم يزل كالمعرض عنه ثم قال له أولئك يا ابن أخى الملا

ومن مليح مارأيت فى هذا المعنى قول حكيم الهند لبعض ملوكهم لاتحقرن أمر الاعداء وان صغروا فان الزيبر اذا جمع جعل منه حبل يشد به الفيل المغتلم * وإغباب الرأى من الامور المهمة وأجود الرأي ما وقع فيه التأني والتثبت وبذلك يؤمن زلل الرأى * قال الاحنف بن قيس لاصحاب علىّ عليه السلام أغبوا الرأى فان إغبابه يكشف لكم عن محضه

واستشير بعض العقلاء فى أمر فسكت فقيل له لم لا تتكلم فقال ماأحب الخبز الا بائتا * ولما عزم الخوارج على مبايعة عبد الله بن وهب الراسبي أرادوه للرأى فقال ماأنا والرأى الفطير والكلام المقتضب فلما فرغوا من البيعة قال اتركوا الرأي يغب أى يأتى عليه يوم وليلة وكان يستعيذ بالله من الرأى الفطير * قالوا مرّ الحارث بن زيد بالاحنف بن قيس فقال له لولا أنك عجلان لشاورتك وهذا دليل على كراهيتهم للرأي الفطير * وكانوا لايشاورون الجائع حتى يشبع ولا الاسير حتى يطلق ولا الطالب حتى يبلغ حاجته ولا العطشان حتى يروى ولا الضال حتى يهتدى ولا الحاقن حتى يخفف ماعنده وقال بعض الشعراء يصف عاقلا

(طويل)

عليم بأعقاب الامور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وما أعرف أحسن من قول ابن الرومى فى تفضيل الرأى المختمر الرأى الفطير (بسيط)

نار الروية نار جد منضجة وللبديهة نار ذات تلويح

وقد يفضلها قوم لعاجلها لكنه عاجل يمضى مع الريح

ومما يوجبه العقل الصحيح أن الانسان لايدخل فى أمر يعسر الخروج منه قال الشاعر (خفيف)

ما من الحزم أن تقارب أمراً تطلب البعد منه بعد قليل

فاذا ماهممت بالشئ فانظر كيف منه الخروج بعد الدخول

قالوا وأفضل من ذلك ان الانسان لايدخل نفسه فى أمر يحتاج فى الخروج منه الى فكر * قال معاوية لعمرو بن العاص رضى الله عنهما ما بلغ من دهائك قال مادخلت فى أمر الا وأحسنت الخروج منه فقال معاوية لكني أنا مادخلت فى أمر أحتاج فى الخروج منه الى فكر * ومن الامور المهمة للملك حسن نظره فى ارسال الرسل فبالرسول يستدل على حال المرسل * قال بعض الحكماء اذا غاب عنكم حال الرجل ولم تعلموا مقدار عقله فانظروا الى كتابه ورسوله فهما شاهدان لايكذبان * ويجب أن يكون في الرسول خصال منها العقل ليميز به الامر المستقيم من المعوج والامانة والعفاف لئلا يخون مرسله فكم من رسول برقت له بارقة طمع من جهة من أرسل اليه فحفظ جانبه وترك جانب مرسله * أرسل معاوية رضي الله عنه الى ملك الروم رسولا من أقاربه كان يعتمد عليه لتقرير أمر الهدنة واشترط معاوية شروطاً غليظة فلما حضر

الرسول عنـد ملك الروم اجتهد به على تخفيف ثلاث الشروط فلم يقبل فخلا به وقال له بلغني أنك فقير وأنك اذا أردت الركوب الى معاوية تستعير الدواب قال كذلك هو قال فما أراك تعمل لنفسك شيئاً وهذا المال الذى عندنا كثير فخذ منه مايغنيك الى الابد ودع معاوية وأحضر له عشرين الف دينار فأخذها وخفف له الشروط وأمضى أمر الهـدنه ثم رجع الى معاوية فلما نظر معاوية في الكتاب علم بالحال فقال له ما أراك عملت الا له وعزم على مؤاخـذته فقال له ياأمير المؤمنين أقلني قال قد أقلتك وأعرض عنه * وفيما فعل كمال الدين محمد بن الشهرزورى حين أرسله أتابك زنكي صاحب الموصل الى بغداد لتقرير أمر الراشد منبهة على وجوب تدقيق النظر فى اختيار الرسل وذاك أنه لما خلع الراشد الخليفة ببغداذ فارقها وحضر الى الموصل مستسعداً بأتابك زنكى وخلا به ووعـده ومناه أنه ان عاد الى الخلافة أن يفعل معـه ويصنع فتهوس أتابك زنكى بذاك وضمن له صلاح الحال مع السلطان مسعود ثم ان أتابك زنكي عزم على مراسلة الديوان ببغداذ فى هذا المعنى فاختار للرسالة كمال الدين بن الشهرزورى قاضى الموصـل فأرسـله ووصاه بالاحتجاج والمبالغة في تقرير أمر الراشد ونقض ما أبرموه من خلافة المقتفى فتوجه كمال الدين الى بغداذ

قال ابن الأثير صاحب التاريخ حكى لى والدى قال حكى لى كمال الدين المذكور قال لما حضرت بالديوان قيـل لى تبايع أمير المؤمنين فقلت أمير المؤمنين عندنا بالموصل وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة قال وطال الحديث في ذلك وعـدت الى منزلى فلما جاء الليـل جاءتنى عجوز سرًّا واجتمعت بى وأبلغتنى رسالة من المقتفى مضمونها المعاتبـة لى على ماقلت واستنزالى عنـه

فقلت غداً أخدم خدمة يظهر أثرها فلما كان الغد حضرت بالديوان وقيل لى فى معنى البيعة فقلت أنا رجل فقيه قاض ولا يجوز لى أن أبايع الا بعد أن يثبت عندي خلع المتقدم فأحضروا الشهود فشهدوا عندي بفسق الراشد فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه الدعوى من نصيب لان أمير المؤمنين المقتفى حصلت له خلافة الله في أرضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده فنحن بأي شيء نرجع فرفع الامر الى المقتفى فأمر أن يعطى أتابك زنكى صريفين ودرب هرون وحربى ملكا فبايعت المقتفى وعدت وقد حصل لى مال صالح وتحف وهدايا * وما أدري والله من أيّ حاليه أعجب من فعله هذا وخيانته لمرسله وتسويد وجهه مع من استجار به فانه لم يكن الفائدة من إرسال كمال الدين الا تقوية أمر المقتفي وتأكيد خلع الراشد أو من حكايته عن نفسه مثل هذه الفعلة

وكذلك ما جرى لعميد الملك الكندريّ وزير السلطان طغرلبك أرسله السلطان طغرلبك ليخطب له امرأة فمضى الكندريّ وخطبها لنفسه وتزوجها وعصى على طغرلبك فلما ظفر به طغرلبك لم يقتله ولكن خصاه واستبقاه فى خدمته احتياجاً الى كفاءته وفي ذلك يقول الباخرزى الشاعر وكان صاحب الكندريّ (كامل)

قالوا محا السلطان عنه بعزبه ... سمة الفحول وكان قرماً صائلا
قلت اسكتوا فالآن زاد فحولة ... لما غدا من أنثيه عاطلا
والفحل يأنف أن يسمى بعضه ... أنثى لذلك جدها مستأصلا

ومن الاشعار المقولة في ذلك قول القائل (متقارب)

اذا كنت فى حاجة مرسلا ... فأرسل حكيماً ولا توصه

وأجود من هذا المعنى وأكمل قول الآخر (وافر)

اذا أرسلت فى أمر رسولا فأفهمه وأرسله أديباً
فان ضيعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوبا

ومما يزين الملك اصطناع العوارف الى أشراف رعيته فبذلك تميل أعناقهم اليه ويدخلون بذلك فى زمرة خدمه وحاشيته وما زال أفاضل الملوك يلحظون هذا المعنى فيفضلون دائما على أشراف رعيتهم أنواع الافضال ليسترقوهم بذلك * كان معاوية رضى الله عنه أشد الملوك لهجا بهذا المعنى كان يعطى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وعبدالله بن العباس رضي الله عنهما في سنة جملا طائلة من المال وكفاك من ذلك أن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه فارق أخاه علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقصد معاوية مستميحاً وما ذاك لشح عند أمير المؤمنين عليه السلام فانه كان صلوات الله عليه وسلامه يبارى الريح جوداً وكرما وكان جميع ما يدخل له من املاكه يخرجه في الصدقات والمبرات ولكن عقيلا كان يريد من مال المسلمين أكثر من حقه وما كان دين أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى ذلك * وكان معاوية رضى الله عنه يعطى لأجل مصلحة الدنيا ولا يفكر فيما كان يفكر فيه أمير المؤمنين عليه السلام * وانظر الى كمال الدين حيدرة بن عبيد الله الحسينىّ الموصلىّ وكان شيخ أهله ومقدمهم سناً وزهداً وفضلا وورعا كيف استماله صاحب الموصل بدر الدين بما أسداه اليه من الانعام حتى مدحه وانخرط في زمرة شعرائه فمن شعره فيه (طويل)

هنيئاً بمجد ساعدتك سعوده وتم له يوم التفاخر عيده
وبشرى باقبال أهل بشيره كما وفدت عند الهناء وفوده
وأنى لبدر الدين ذى الفخر والعلى نديد وكلا ان يصاب نديده

ومع انه صار من شعرائه وانخرط في زمرة مداحه كان بدر الدين بعد موت كمال الدين حيدرة اذا اجتاز على تربته وهى تربة مفردة ظاهر الموصل جنوبية قبلية يترك العسكر ويدخل اليه يزوره ويدعو لنفسه عند ضريحه رحمهما الله تعالى

الفصل الثانى

(في الكلام على دولة دولة)

لقد تم الكلام على الأمور السلطانية والسياسات الملكية وعلم بذلك سيرة الملك الفاضل المستحق للرئاسة وخواص الملك التى يتميز بها عن الرعايا والحقوق الواجبة للملك على رعيته والحقوق الواجبة لهم عليه * واندرج فى أثناء ذلك الكلام على كليات أحوال الدول على سبيل الاجمال * وكل مامضى فى هذه الاوراق من اللطائف والمحاسن فقد وفر الله تعالى منه حظ المولي الملك الفاضل حاطه الله تعالى بأنواع ألطافه وبلغه أقصي الغايات من إسعاده واسعافه لان الله تعالى هداه بسابق عنايته الى محاسن الشيم وفضله بخافى لطفه على كثير من الامم

وهذا أوان الشروع فى الكلام على دولة دولة * أما الدولة الاولى وهى دولة الاربعة فان ابتداءها كان منذ قبض رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وبويع أبو بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه وذلك فى سنة اثنتى عشرة من الهجرة وانتهاؤها حين قتل أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب عليه السلام وذلك في سنة أربعين من الهجرة * واعلم انها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا وهى بالامور النبوية والاحوال الاخروية أشبه والحق فى هذا أن زيها قدكان زى الانبياء وهديها

هدى الاولياء وفتوحها فتوح الملوك الكبار فأما زيها فهو الخشونة فى العيش والتقلل فى المطم والملبس كان أحدهم يمشي فى الاسواق راجلا وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه وفى رجله تاسومة وفى يده درة فمن وجب عليه حد استوفاه منه * وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم ضرب أمير المؤمنين عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقى فقال فى بعض كلامه ولو شئت لاهتديت الى مصفى هذا العسل بلباب هذا البر * واعلم أنهم لم يتقللوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم وكسرا للنفس عن شهواتها ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها وإلا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الاسباب ولكن أكثر خرجهم كان فى وجوه البر والقرب كان لأمير المؤمنين علىّ عليه السلام ارتفاع طائل من أملاكه يخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرباس وبالقرص من خبز الشعير . وأما فتوحها وحروبها فان خيلها بلغت إفريقية وأقاصى خراسان وعبرت النهر فان عبيد الله بن العباس تولى إمارة سمرقند وبها مات وفيها قبره . فأول حروبها قتال أهل الردة . شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار . لما قبض رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ارتد ناس من الأعراب عن الاسلام وامتنعوا من أداء الزكاة وقالوا لو كان محمد نبيا لما مات فوعظهم ذوو اللب والعقل وقالوا لهم أخبرونا عن الانبياء عليهم السلام هل تقرون بنبوتهم قالوا نعم قالوا فهل ماتوا قالوا نعم قالوا فما الذي تنكرونه من نبوة محمد عليه السلام فلم ينجع القول فيهم فجهز أبو بكر رضى الله عنه الى كل طائفة منهم جيشا فتوجهت الجيوش اليهم وقاتلتهم

وكانت الغلبة للجيوش الاسلاميـة فأبادتهم قتلا وأسرا ورجع من تبقى منهم الى الاسلام وأدى الزكاة

ومن وقائعها فتنة مسيلمة الكذاب * شرح ذلك على وجه الاختصار ظهر فى أيام أبي بكر رضى الله عنه رجل يقال له مسيلمة ادعى أنه نبى وأن الوحى ينزل عليه من السماء واجتمع اليه ناس كثيرون من قبيلته وغيرهم ثم ظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت ايضا انها نبية وان الوحى ينزل عليها وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها ثم سارت لقتال مسيلمة وكانت جموعها اكثر من جموعه فلما علم مسيلمة بمسيرها اليه قال لاصحابه ما الرأى قالوا ان تسلم الامر اليها فلا طاقة لنا بها وبمن معها فقال مسيلمة دعونى انظر فى امرى فتفكر وكان داهية فأرسل اليها وقال ينبغى ان نجتمع انا وانت فى موضع ونتدارس ما نزل الينا من الوحى فمن كان على الحق تبعه الآخر فأجابته الى ذلك وامر مسيلمة ان تضرب قبة من ادم ويستكثر فيها من العود وقال ان المرأة اذا شمته ذكرت الباه ثم اجتمع بها في القبة وخدعها وواقعها فلما قام عنها قالت ان مثلى لايجرى امرها هكذا ولكن اذا خرجت اعترفت لك بالحق واخطبنى الى قومى فانهم يزوجونك ثم اقود بني تميم معك فلما خرجت قالت انه قرأ علىّ ما نزل عليه من الوحى فوجدته حقاً وقد سلمت الأمر اليه ثم خطبها فزوجوه وجعل مهرها إعفاءهم من صلاة العصر قالوا فبنو تميم بالرمل الى الآن لا يصلون العصر ويقولون هذا مهر كريمتنا فلما بلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه جهز اليهم جيشاً أميره خالد بن الوليد فاقتتلوا أشد قتال رآه المسلمون ثم كانت الغلبة للجيش الاسلامى فقتل مسيلمة * ومن فتوحها الكبار فتح الشأم

شرح كيفية ذلك * لما كانت سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهى السنة

التى توفى فيها أبو بكر ورجع أبو بكر رضى الله عنه من الحج شرع في تجهيز الجيوش الى الشأم فبعث عسكراً كثيفاً جعل على كل قطعة منه اميراً وسمى لكل امير بلداً إن فتحه واستولى عليه كان له ثم امدّهم بخالد بن الوليد رضى الله عنه فى عشرة الف فتكمل بالشام ستة واربعون الف مقاتل وجرت بينهم وقائع وحروب امتدت الى ان مات ابو بكر وبويع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فعزل عمر خالد بن الوليد رضى الله عنهما عن إمارة الجيش وكان قد أمر ثم أمر على الناس اباعبيدة بن الجراح رضى الله عنه فورد رسول عمر الى الجيش بالشأم بكتاب عمر الى ابى عبيدة بتوليته وعزل خالد واتفق وصول الرسول وهم مشغولون بالحرب فجعل الناس يسألون الرسول عن سبب قدومه فأخبرهم بالسلامة ووعدهم ان وراءه مدداً لهم وكتم عنهم موت ابى بكر ثم وصل الى ابى عبيدة بن الجراح فأخبره سراً بموت ابى بكر وناوله كتاب عمر بتوليته وعزل خالد فاستحيي ابو عبيدة من خالد وكره ان يعلمه بالعزل وهو قد بذل جهده في القتال فكتم ابو عبيدة الخبر عن خالد وصبر حتى تم الفتح وكتب الكتاب باسم خالد ثم اعلمه بموت ابى بكر وبعزله فسلم اليه الجيش * وكان فتح دمشق فى سنة اربع عشرة من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وفى الدولة المذكورة كان فتح العراق واخذ الملك من الاكاسرة *

شرح مبدإ الحال فى انتقال الملك من الاكاسرة الى العرب * ان الله تعالى بسابق علمه وبالغ حكمته وعزة قدرته اذا اراد امراً هيأ اسبابه وقد وصف نفسه عز وجل بقوله (قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء

قدير) * ولما اراد جل شأنه . وعز سلطانه . نقل الملك عن فارس الى العرب
اصدر من المنذرات بذلك ما ملأ به قلوبهم وقلوب اوليأهم رعباً * فأول
ذلك ارتجاس الايوان وسقوط الشرفات منه وذلك عند ميلاد الرسول عليه
افضل الصلوات وخمود نار فارس ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام وذلك
فى عهد أنوشروان العادل فلما رأى أنوشروان سقوط الشرفات وانشقاق
الايوان غمه ذلك ولبس تاجه وجلس على سريره وأحضر وزراءه وشاورهم
فى ذلك ففى تلك الحال وصل كتاب من فارس بخمود النار فازداد كسرى
غما الى غمه وفى تلك الحال قام الموبذان وقص الرؤيا التى رآها قال رأيت أصلح
الله الملك كأن إبلا صعافاً تقود خيلا عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى
بلادها فقال له كسرى فأى شيء يكون تأويل هذا قال أصلح الله الملك
حادث يحدث من جهة العرب وفشا الحديث بذلك بين العجم وتحدث به
الناس فسكن الرعب قلوبهم وثبتت هيبة العرب فى نفوسهم ثم تتابعت
أمثال هذه المنذرات الحواذل الى آخر الأمر فان رستم لما خرج لمحاربة
سعد بن أبي وقاص رأى فى منامه كأن ملكا قد نزل من السماء وجمع قسى
الفرس وختم عليها وصعد بها الى السماء ثم انضم الى ذلك ما كانوا يشاهدونه
من سداد منطق العرب وطمأنينة نفوسهم وشدة صبرهم على الشدائد ثم
ما جرى فى آخر الامر من اختلاف كلمتهم بعد موت شهريار وجلوس
يزدجرد على سرير المملكة وهو صبى حدث ضعيف الرأي ثم الطامة الكبرى
وهى انعكاس الريح عليهم في حرب القادسية حتى أعمتهم بالغبار . وعمتهم
بالدمار . وفيها قتل رستم وانفل جيشهم فانظر الى هذه الحواذل واعلم أن لله
أمراً هو بالغه * شرح الحال فى تجهيز الجيش الى العراق واستخلاص الملك

من فارس . كان ثغر فارس من أثقل الثغور على العرب وأعظمها فى نفوسهم وأكثرها هيبة وكانوا يكرهون غزوه ويجبنون عنه استعظاما لشأن الاكاسرة ولما هو مشهور من تدويخهم الامم حتى كان آخر أيام أبى بكر رضى الله عنه فقام رجل من الصحابة يقال له المثنى بن حارثة رضى الله عنه وندب الناس الى قتال فارس وهون عليهم الأمر وشجعهم على ذلك فانتدب معه جماعة وتذكر الناس ما كان رسول الله صلوات الله عليه يعدهم به من تملك كنوز الاكاسرة ولم يتم فى ذلك أمر فى خلافة أبى بكر حتى كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وكتب اليه المثنى بن حارثة يخبره باضطراب أمور الفرس وبجلوس يزدجرد بن شهريار على سرير الملك وبصغر سنه وكان قد جلس على السرير وعمره احدى وعشرون سنة فقوى حينئذ طمع العرب فى غزو الفرس فخرج عمر رضى الله عنه وعسكر ظاهر المدينة والناس لا يعلمون أين يريد وكانوا لا يتجاسرون على سؤاله عن شيء حتى ان بعضهم سأله مرة عن وقت الرحيل فزجره ولم يعلمه فكانوا اذا أعضل عليهم أمر وكان لابد لهم من استعلامه منه استعانوا عليه بعثمان بن عفان أو بعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما واذا اشتد الامر عليهم ثلثوا بالعباس رضى الله عنه فقال عثمان لعمر يا أمير المؤمنين ما بلغك وما الذى تريد فنادى عمر رضى الله عنه الصلوة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ووعظهم وندبهم الى غزو الفرس وهون عليهم الامر فأجابوا جميعاً بالطاعة ثم سألوه أن يسير معهم بنفسه فقال أفعل ذلك الا ان يجيء رأى هو خير من هذا ثم بعث الى أصحاب الرأى واعيان الصحابة وعقلائهم فأحضرهم واستشارهم فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث رجلا من كبار الصحابة ويكون هو من ورائه يمده بالأمداد فان كان فتح فهو المطلوب وان هلك الرجل أرسل

رجلا آخر فلما انعقد إجماعهم على هذا الرأى صعد عمر المنبر وكانوا اذا ارادوا يكلمون الناس كلاما عاما صعد أحدهم المنبر وخاطب الناس بما يريد فلما صعد عمر قال أيها الناس انى كنت عازما على الخروج معكم وان ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى عن هذا الرأى وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب ثم استشارهم فيمن يبعث وفى تلك الحال وصل اليه كتاب من سعد بن ابى وقاص وكان غائبا فى بعض الاعمال فأشاروا على عمر بسعد رضى الله عنهما وقالوا انه الأسد عاديا ووافق ذلك حسن راى من عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سعد بن ابى وقاص فاستحضره وولاه حرب العراق وسلم الجيش اليه فسار سعد بالناس وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه معهم فراسخ ثم وعظهم وحثهم على الجهاد وودعهم وانصرف الى المدينة وتوجه سعد فجعل يتنقل فى البرية التي بين الحجاز والكوفة ويستعلم الأخبار ورسل عمر تأتيه وكتبه يشير عليه فيها بالراى بعد الراى ويمده بالجنود بعد الجنود حتى استقر رايه على قصد القادسية وهى كانت باب مملكة الفرس فلما نزل سعد بالقادسية احتاج هو ومن معه الى الأقوات فبعث ناسا وامرهم بتحصيل شيء من الغنم والبقر وقد اجفل اهل السواد قدامهم فوجدوا رجلا فسألوه عن الغنم والبقر فقال لا علم لى بذلك واذا هو الراعى وقد ادخل الدواب فى اجمة هناك قالوا فصاح ثور منها كذب الراعى ها نحن فى هذه الأجمة فدخلوا اليها واستاقوا منها عدة واحضروها الى سعد فاستبشروا بذلك وعدوها نصرة من الله تعالى والثور ان لم يكن قد تلفظ بحروف يكذب بها الراعى فان صياحه فى تلك الساعة حتى يستدل بصياحه على الدواب عند شدة الحاجة اليها تكذيب صريح للراعي وهو من

الاتفاقات العظيمة الدالة على النصر والدولة والاستبشار به واجب * وحين ورد الخبر الي العجم بوصول سعد بالجيش ندبوا له رستم فى ثلاثين الف مقاتل وكان جيش العرب من سبعة الف الى ثمانية الف ثم اجتمع اليهم بعد ذلك ناس فالتقوا فكان العجم يضحكون من نبل العرب ويشبهونها بالمغازل

وها هنا موضع حكاية تناسب ذلك لابأس بايرادها * حدثني فلك الدين محمد بن أيدمر قال كنت فى عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربى من مدينة السلام فى واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة وتحته فرس عربى وعليه سلاح تام كانه وفرسه الجبل العظيم ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفى يده رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الامر ما كان * ثم ترددت الرسل بين رستم وسعد فكان البدوى يأتى الى باب رستم وهو جالس على سرير الذهب وقد طرحت له الوسائد المنسوجة بالذهب وفرش له الفرش المنسوج بالذهب وقد لبس العجم التيجان وأظهروا زينتهم وأقاموا الفيلة فى حواشى المجلس فيجئ البدوى وفى يده رمحه وهو متقلد سيفه متنكب قوسه فيربط فرسه قريباً من سرير رستم فيصيح العجم عليه ويهمون بمنعه فيمنعهم رستم ثم يستدنيه فيمشى اليه متكئاً على رمحه يطأ به ذلك الفرش وتلك الوسائد فيخرقها بزج رمحه وهم ينظرون فاذا وصل الى رستم راجعه الحديث فكان رستم لايزال يسمع منهم حكما وأجوبة تروعه وتهوله

فمن ذلك أن سعداً رضى الله عنه كان يبعث فى كل مرة رسولا فقال رستم لبعض من أرسل اليه لم لم يبعثوا الينا صاحبنا بالامس قال لان أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء وقال يوما لآخر ماهذا المغزل الذى فى يدك يعنى رمحه فقال إن الجمرة لايضرها قصرها وقال مرة أخرى لآخر ما بال سيفك أراه رثاً فقال إنه خلق المغمد حديد المضرب فراع رستم مارأى من أمثال هذا وقال لاصحابه انظروا فان هؤلاء لايخلو أمرهم من أن يكون صدقا او كذباً فان كانوا كاذبين فان قوماً يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ولا يختلفون فى شئ وقد تعاهدوا على كتمان سرهم هذا التعاهد بحيث لايظهر أحد منهم سرهم لقوم فى غاية الشدة والقوة وان كانوا صادقين فهؤلاء لايقف حذاءهم أحد فصاحوا حوله وقالوا الله الله أن تترك ما أنت عليه لشئ رأيته من هؤلاء الكلاب بل صمم على حربهم فقال رستم هو ما اقول لكم ولكنى معكم على ماتريدون ثم اقتتلوا أياما كان في آخرها انعكاس الريح عليهم حتى اعماهم الغبار فقتل رستم وانفل الجيش وغنمت اموالهم واجفل الفرس يطلبون مخاضات دجلة ليقعوا فى الجانب الشرقى وتبعهم سعد وعبر المخاضات وقتل منهم مقتلة عظيمة أخرى بجلولاء وغنم اموالهم وأسر بنتا لكسرى * ثم كتب سعد الى عمر رضى الله عنهما بالفتح وقد كان عمر فى تلك الايام شديد التطلع الى امر الجيش فكان فى كل يوم يخرج الى ظاهر المدينة راجلا يتنسم الاخبار لعل احداً يصل فيخبره بما كان منهم فوصل البشير من عند سعد بالفتح فرآه عمر فقال له من اين جئت قال من العراق قال فما فعل سعد والجيش قال فتح الله عليهم كل ذلك والرجل سائر على ناقته وعمر يمشى فى ركابه وهو لايعلم انه عمر فلما اجتمع الناس وسلموا على عمر بامرة المؤمنين عرفه البدوى فقال هلا أعلمتنى رحمك الله أنك امير

المؤمنين قال لا بأس عليك يا أخي ثم كتب عمر الى سعد قف مكانك ولا تتبعهم واقتنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ولا تجعل بيني وبينهم بحراً فاتخذ لهم سعد الكوفة واختط بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل ومصرها سعد ثم حكم في المداين وملك الكنوز والذخائر ذكر طرف مستملحة وقعت حينئذ * منها أن بعض العرب ظفر بجراب فيه كافور فأحضره الى أصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوا فيه كافورا فلم يروا له طعماً ولم يعلموا ماهو فرآه رجل فعرف مافيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين * ومنها أن بدوياً ظفر بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم فبعد ذلك عرف البدوى قيمته ولامه أصحابه وقالوا له هلا طلبت فيه أكثر من ذلك قال لو علمت ان وراء الالف عدداً أكثر من الالف لطلبته * ومنها أن بعضهم كان يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء يرى أن الفضة خير من الذهب * ذكر ما آلت اليه حال يزدجرد

ثم إن يزدجرد هرب الى خراسان وما زال أمره يضعف حتى قتل في سنة احدى وثلاثين من الهجرة بخراسان وهو آخر ملوك الاكاسرة * وفي الدولة المذكورة دوّنت الدواوين وفرض العطاء للمسلمين ولم يكونوا قبل ذلك يعرفون ما الديوان

شرح كيفية تدوين الدواوين * كان المسلمون هم الجند وكان قتالهم لأجل الدين لا لاجل الدنيا وكان لا يزال فيهم دائماً من يبذل شطراً صالحاً من ماله في وجوه البرّ والقرب وكانوا لا يريدون على اسلامهم ونصرهم

لنبيهم صلوات الله عليه وسلامه جزاء إلا من عند الله تعالى ولم يفرض النبي صلوات الله عليه وسلامه ولا أبو بكر رضى الله عنه لهم عطاء مقرراً ولكن كانوا اذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم واذا ورد الى المدينة مال من بعض البلاد أحضر الى مسجد الرسول صلوات الله عليه وسلامه وفرق فيهم حسب مايراه صلى الله عليه وسلم وجرى الامر على ذلك مدة خلافة أبي بكر رضى الله عنه * فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة وهى خلافة عمر رضى الله عنه رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الاكاسرة قدملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذمنه شئ وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل فتنبه عمر رضى الله عنه وقال صفه لى فوصفه المرزبان ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء فجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقرراً وفرض لزوجات الرسول صلوات الله عليه وسلامه ولسراريه وأقاربه حتى استنفد الحاصل ولم يدخر فى بيت المال شيئاً قالوا فقام اليه رجل وقال يا أمير المؤمنين لو تركت فى بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث ان حدث فزجره عمر وقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها وهى فتنة لمن بعدى انى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله فهى عدتنا التى بها بلغنا ما بلغنا ثم إن عمر رأى أن يجعل العطاء على حسب السبق الى الاسلام والى نصرة الرسول عليه الصلاة

والسلام في مواطن حروبه ثم استخدم الكتاب في الدواوين وأمرهم بترتيب الطبقات وضبط العطاء فقالوا بمن نبدأ يا أمير المؤمنين فأشار ناس من الصحابة عليه بأن يبدأ بنفسه وقالوا أنت أمير المؤمنين وتقديمك واجب فكره عمر ذلك وقال ابدأوا بالعباس عم رسول الله صلوات الله عليه وبنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله عز وجل فاعتمد ما أشار به وجرى الأمر على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان رضى الله عنهما ثم فى آخر خلافته خطر له تغيير هذا الرأى وأن يفرض لكل واحد من المسلمين أربعة الف*وقال ألف يجعلها نفقة لعياله اذا خرج الى الحرب وألف يتجهز بها والف يصحبها معه والف يرتفق بها فمات عمر رضى الله عنه قبل اتمام هذا الرأى . ومن وقائعها المشهورة وقعة الجمل . شرح مبدإ وقعة الجمل وكيفية الحال فى ذلك . لما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اجتمع الناس وقصدوا منزل أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وسألوه تولى أمرهم فأبى عليهم وقال لا حاجة لى فى أمركم فألحوا عليه الحاحا شديداً واجتمعوا اليه من كل صوب يسألونه ذلك حتى أجاب فبايعه الناس فسار فيهم بسيرة الحق لا يأخذه فى الله لومة لائم وكانت حركاته وسكناته عليه السلام جميعها لله وفى الله لا يقضى بها حق أحد وكان لا يأخذ ولا يعطى الا بالحق والعدل حتى إن أخاه عقيلا وهو ابن أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئاً لم يكن له بحق فمنعه عليه السلام وقال يا أخى ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك ولكن اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك منه ما تريد فلم يرض عقيل هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية رضى الله عنه بالشأم وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام أكثر من حقهما فانظر الى رجل حمله ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من ابويه

فلما سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه فخرج الزبير وطلحة رضى الله عنهما بعد ما بايعاه الى مكة وكانت عائشة زوجة الرسول صلوات الله عليه وسلامه بمكة قد خرجت اليها ليالى حوصر عثمان بن عفان رضى الله عنه فاتفقا معها على عدم الرضى بامارة علىّ وعلى الطلب بدم عثمان ونسبوا علياً عليه السلام الى انه الب الناس على عثمان وجرأهم على قتله وما زال على عليه السلام من اكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه وما زال عثمان يلجأ اليه في دفع الناس عنه فيقوم عليه السلام فى دفعهم عنه القيام المحمود وفى آخر الامر لما حوصر عثمان ارسل على عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضي الله عنه فقال إن الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان وكان عثمان يسأله ان يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه فى نصرته وأما طلحة رضى الله عنه فانه كان من أكبر المساعدين على عثمان وهذا تشهد به جميع التواريخ * وأما عائشة رضى الله عنها فانها كانت قد خرجت من المدينة الى مكة ليالى حوصر عثمان بن عفان ثم رجعت من مكة الى المدينة فلقيها فى الطريق بعض أخوالها فقالت له ما وراءك قال قتل عثمان قالت فما صنع الناس بعده قال بايعوا علياً قالت ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك * ثم رجعت الى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبنّ بدمه فقال لها الرجل لم والله إن أول من أمال حروفه لأنت والله لقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر وكان ذلك لقبا لعثمان فقالت انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الاخير خير من قولى الاول * ولما رجعت الى مكة اتفقت مع الزبير وطلحة على ما ذكرناه من الطلب بدم عثمان وسخط امارة علىّ واتفق معهم مروان بن الحكم وهو ابن عم

عثمان وقالوا للناس ان الغوغاء من أهل الامصار وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هـذا الرجل المسكين يعنى عثمان فقتلوه ظلما وعدوانا فسفكوا الدم الحرام فى البلد الحرام فى الشهر الحرام ثم استمالوا أناساً وعزموا على قصد البصرة واستمالة أهلها والتقوّى بها على قتال علىّ عليه السلام فلما انتهى ذلك الى أمير المؤمنين قام فخطب الناس وأعلمهم الحال وقال انها فتنة وسأمسك الامر ما استمسك بيدى ثم بلغه ما هم فيه من الجموع والتصميم على الحرب فنهد اليهم في جيش من المهاجرين والأنصار * وقد كانت عائشة رضى الله عنها فى توجهها الى البصرة اجتازت بماء يقال له الحوأب فنبحتها كلابه فقالت للدليل ما اسم هذا الموضع قال الحوأب فصرخت بأعلى صوتها وقالت ردونى (انا لله وانا اليه راجعون) سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول عند نسائه (أيتكنّ تنبحها كلاب الحوأب) ثم عزمت على الرجوع فقالوا لها ان الدليل كذب ولم يعرف الموضع وقالوا لها ان لم تسيرى من هـذا الموضع والا أدرككم على بن أبى طالب فيه فهلكتم فسارت وسار على عليه السلام فالتقى الجمعان بظاهر البصرة وجرت خطوب وحروب ففى بعضها التقى عليه السلام وطلحة والزبير فقال على عليه السلام لطلحة يا طلحة تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان ياطلحة أجئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت أما بايعتنى قال بايعتك والسيف على عنقى فقال على عليه السلام للزبير يا زبير ما أخرجك قال أنت ولا أراك أهلا لهذا الأمر ولا أولى به منا فقال على عليه السلام لقد كنا نعدك من بنى عبدالمطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا عبد الله بن الزبير وذكره على أشياء وقال له أتذكر لما قال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه لتقاتلنه وأنت ظالم له قال

اللهم نعم ولو ذكرت لما سرت مسيرى هذا ووالله لا أقاتلك أبداً فانصرف أمير المؤمنين عليه السلام الى أصحابه وقال أما الزبير فقد أعطى الله عهداً أن لا يقاتلكم ثم ان الزبير عزم على ترك الحرب نخدعه ابنه عبد الله وما برح به حتى كفر عن يمينه وقاتل ولما تراءى الجمعان كان عسكر عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم ثلاثين ألفاً وكان عسكر على عليه السلام عشرين ألفاً فقبل أن تنشب الحرب وعظهم أمير المؤمنين عليه السلام وندبهم الى الصلح وبذل لهم كل ما ليس عليه فيه غضاضة من جهة الدين فمالوا شيئاً الى الصلح وباتوا على ذلك ثم فى الغداة نشب القتال بين القبيلين وجرت مناوشات وحروب أفضت الى نصرة جيش أمير المؤمنين عليه السلام * فأما الزبير فانه لما رأى النصرة عليهم رد رأس فرسه ومر فتبعه رجل من عرب البصرة فتبعه عمير ابن جرموز فقتله بوادى السباع وأتى الى على عليه السلام بسيفه فقال للحاجب استأذن لقاتل الزبير فقال على عليه السلام بشر قاتل ابن صفية بالنار وصفية أم الزبير وهى عمة أمير المؤمنين عليه السلام ولما رأى سيفه قال سيف طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله صلوات الله عليه * واما طلحة فجاءه سهم عائر في رجله فأعطبه فدخل البصرة رديفاً لغلامه وقد امتلأ خفه دما وهو يقول اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى فمات بدار خربة من دور البصرة وقبره اليوم بالبصرة فى مشهد محترم عندهم اذا اعتصم به خائف أو طريد لا يجسر أحد كائنا من كان على اخراجه منه ولأهل البصرة فى طلحة اعتقاد عظيم الى يومنا

وقيل ان الذى قتل طلحة مروان بن الحكم * وأما عائشة رضى الله عنها فانها كانت على جمل فى هودج وقد ألبس هودجها الدروع والنسائج الحديد فلما

اشـتد القتال وانفلت جموعها عرقب الجمل فوقع ورفع ووضع هودجها حملا ووضع فى مكان بعيد عن الناس وكان أخوها محمد بن أبى بكر من أصحاب علىّ عليه السلام وابن زوجته أسماء بنت عميس رضى الله عنها فأمره علىّ عليه السلام أن يمضى الى أخته وينظر هل هى سليمة أم اصابها شىء من جراح فمضى اليها فرآها سليمة ثم ادخلها ليلا الى البصرة ثم ان أمير المؤمنين عليه السلام أذن للناس فى دفن القتلى وكانوا عشرة الف من القبيلين ثم امر عليـه السلام بجمع الأسلاب وأدخلها الى المسجد الجامع بالبصرة ونادى فى الناس من عرف شيئاً من قماشه فليأخذه * ثم ان أمير المؤمنين عليه السلام احسن الى عائشة غاية الاحسان وجهزها بكل ما ينبـغى لمثلها وأذن لها فى الرجوع الى المدينة وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الا من أحب المقام واختار لها أربعـين امرأة من نساء اهل البصرة المعروفات لاجل مؤانستها فى الطريق وسيرها صحبة أخيها محمد بن أبى بكر مكرمة محترمة فلما كان يوم رحيلها حضر علىّ عليه السلام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها يا بنىّ وانما قالت ذلك لان نساء النبى عليه السلام هن أمهات المؤمنـين كذلك قال الله تعالى ورسوله صـلوات الله عليـه لا يعتب بعض على بعض انه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه على معتبتى لمن الأخيار وقال علىّ عليه السلام صدقت والله ما كان بينى وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ثم سارت وشيعها عليه السلام أميالا وارسل بنيـه معها مسيرة يوم وتوجهت الى مكة واقامت بها الى أيام الحج ثم حجت وانصرفت الى المدينة * وكانت وقعة الجمل فى سنة ست وثلاثين من الهجرة * ومن وقائعها المشهورة وقعة صفين * شرح كيفيـة الحال فى ذلك * لما

انصرف أمير المؤمنين عليه السلام من وقعة الجمل أرسل الى معاوية رضى الله عنه يعرفه اجتماع الناس على بيعته ويعلمه ما كان من وقعة الجمل ويأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار وكان معاوية رضى الله عنه أميراً بالشأم من قبل عثمان رضى الله عنه وكان ابن عمه فلما ورد الى معاويه رضى الله عنه رسول أمير المؤمنين علىّ عليه السلام خاف معاوية رضى الله عنه من علىّ عليه السلام وعلم أنه متى استتبّ الامر له عزله ولم يستعمله وقد كان ابن عباس والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما أشارا على أمير المؤمنين عليه السلام أن يقر معاوية رضى الله عنه بالشأم مدة حتى يبايع الناس ويتمكن ثم يعزله بعد ذلك فلم يطعهما عليه السلام وقال إنى إن أقررته على إمارته ولو يوماً واحداً كنت عاصياً فى ذلك اليوم لله تعالى ولم تكن الخدع والحيل من مذهب علىّ عليه السلام ولم يكن عنده غير مرّ الحق فحين ورد الرسول الى معاوية رضى الله عنه طاوله ثم استشار بعمرو بن العاص رضى الله عنه وكان أحد الدهاة وكان معاوية رضى الله عنه قد تألفه واستماله ليتقوى برأيه ودهائه فأشار عمرو بن العاص على معاوية رضى الله عنهم أن يظهر قميص الدم الذى قتل فيه عثمان بن عفان وأصابع زوجته رضى الله عنهما ويعلق ذلك على المنبر ثم يجمع الناس ويبكى عليه ويلصق قتل عثمان بعلى رضى الله عنهم ويطالبه بدمه لتميل اليه أهل الشأم ويقاتلوا معه فأخرج معاوية رضى الله عنه القميص والأصابع وعلقه على المنبر وبكى واستبكى الناس وذكرهم بمصاب عثمان رضى الله عنه فانتدب أهل الشأم من كل جانب وبذلوا له الطلب بدم عثمان رضى الله عنه والقتال معه على كل من آوى قتلته * ثم كتب معاوية رضى الله عنه الى أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً يذكر فيه ذلك فحينئذ تجهز

عليّ عليه السلام للقتال وكاتب الناس ليجتمعوا معه وكذلك صنع معاوية رضى الله عنه ثم التقوا بصفين من أرض الشام فجرت بينهم مناوشات وحروب كان أولها أن معاوية وأصحابه رضى الله عنهم سبقوا الى شريعة الماء فملكوها ومنعوا أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من الماء ولم يكن هناك شريعة غيرها فلما أخبر عليّ عليه السلام بذلك أرسل الى معاوية رضى الله عنه رسولا يقول له إن من مذهبنا أن لا نبدأكم بقتال حتى نحتج عليكم وننظر فيما جئنا له وتنظرون وقد منع أصحابك الناس من الماء فابعث حتى يخلوا سبيل الماء وان شئتم أن نترك ما جئنا له وتكون مقاتلتنا على الماء فيكون الغالب هو الشارب فعلنا ذلك فقال معاوية رضى الله عنه لأصحابه ما تشيرون قال قوم من بنى أمية نرى أن تمنعهم الماء حتى يموتوا عطشاً أو يرجعوا لطلب الماء فتكون هزيمة فقال عمرو بن العاص رضى الله عنه أرى أن تخلى لهم سبيل الماء فان القوم لا يعطشون وأنت ريان فأخر معاوية رضى الله عنه الجواب وقال سأنظر فاقتتل الناس على الماء وأمدّ عليّ عليه السلام أصحابه وأمد معاوية رضي الله عنه أصحابه ونشبت الحرب والتحم القتال فملك أصحاب عليّ عليه السلام الشريعة فأرادوا منع أصحاب معاوية رضى الله عنه فأرسل اليهم عليّ عليه السلام وقال خذوا حاجتكم من الماء ولا تمنعوهم منه ودام على ذلك مدة حتى كاد عسكر عليّ عليه السلام أن يغلبوا وظهرت أمارات الفتح خاف عمرو بن العاص رضى الله عنه من الهلاك فأشار على معاوية رضى الله عنه برفع المصاحف على الرماح والدعاء الى ما فيها من أمر الله عز وجل فلما رفعت المصاحف فتر أكثر الناس عن الحرب وجاؤا الى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا يا عليّ أجب الى كتاب الله

عز وجل فوالله إن لم تفعل لنحملنك كارهاً الى معاوية رضى الله عنه أو لنفعلنّ بك كما فعلنا بابن عفان رضى الله عنه فقال لهم علىّ عليه السلام يا قوم إنها خدعة منهم وإنهم ليس فيهم من يعمل بهذه المصاحف أولستم على بينة من ربكم فامضوا لشأنكم وقاتلوا عدوكم فلم يفعلوا وغلبوه فأجاب الى ترك القتال ثم أرسل الى معاوية رضى الله عنه رسولا يقول له ما الذى تريد برفع هذه المصاحف قال نحكم منا رجلا ومنكم رجلا ونقسم على الرجلين أن ينصحا الامة ويعملا بما فى كتاب الله عز وجل وما لم يجداه فى كتاب الله حملاه على السنة والجماعة فأى شيء حكما به قبلناه فتراضى الناس جميعاً بذلك الا أمير المؤمنين عليه السلام فانه رضى كارهاً مغلوباً ونفر يسير من بطائنه كالاشتر وابن عباس رضى الله عنهم وغيرهما وانعقد الاجماع على تحكيم رجلين فأما أهل الشأم فاتفقوا على أن يكون الحكم من جهتهم عمرو بن العاص رضى الله عنه داهية العرب وأما أهل العراق فطلبوا أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه وكان شيخاً مغفلا فلم يستصلحه أمير المؤمنين عليه السلام للتحكيم وقال ان كان ولا بد من التحكيم فدعونى أرسل عبد الله بن عباس فقالوا لا والله هو أنت وأنت هو قال فالاشتر قالوا فهل سعر الارض غير الاشتر قال فقد أبيتم الا أبا موسى قالوا نعم قال فافعلوا ما شئتم فاتفق الناس على أبى موسى وعمرو بن العاص رضى الله عنهما وتواعدوا الى شهور وسكنت الحرب وانصرف الناس الى أمصارهم ورجع معاوية رضى الله عنه الى الشأم وأمير المؤمنين عليه السلام الى العراق ثم بعد شهور سار الحكمان ليجتمعا بدومة الجندل وكانت ميعاد الحكمين وسار ناس من الصحابة ليشهدوا ذلك المقام وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أرسل صحبة أصحابه

عبد الله بن العباس رضى الله عنه فلما اجتمع الحكمان قال عمرو بن العاص لأبى موسى الاشعرى يا أبا موسى ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أشهد قال ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه قال بلى قال عمرو فما منعك منه وبيته فى قريش كما قد علمت فان خفت أن يقول الناس ليست له سابقة فقل وجدته ولىّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج النبي صلوات الله عليه وكاتبه وقد صحبه وعرض عمرو لأبى موسى بولاية ووعده عن معاوية بأشياء فأبى أبو موسى وقال معاذ الله أن أولى معاوية وأن أقبل فى حكم الله رشوة فقال له عمرو فما تقول فى ابنى عبدالله وكان لعمرو بن العاص ابن اسمه عبدالله من خيار الصحابة رضى الله عنهم فأباه أبو موسى وقال لعمرو إنك غمسته معك فى هذه الفتنة ولكن هل لك فى احياء اسم عمر بن الخطاب وندبه الى عبد الله بن عمر فأباه عمرو فلما لم يتفقا قال له عمرو يا أبا موسى فأى شىء هو رأيك قال أبو موسى رأيي أن نخلع علياً ومعاوية رضى الله عنهم من هذا الأمر ونريح الناس من هذه الفتنة وندع أمر الناس شورى فيختار المسلمون لأمرهم من يجمعون عليه قال عمرو رضى الله عنه نعم ما رأيت وأنا معك على ذلك ولاح وجه الحيلة وكان قد عوّد أبا موسى الأشعرى أن يتقدمه فى الكلام يقول له أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكبر سناً فتعود أبو موسى أن يتكلم قبل عمرو فتقدم أبو موسى وقال إني وعمرا قد اتفقنا على أمر نرجوا فيه صلاح المسلمين فتقدم عمرو وقال صدق وبرّ تقدم ياأبا موسى وأعلم الناس بما اتفقنا عليه فقام بن عباس وقال لأبى موسى ويحك إنى لاظنه قد خدعك وقد أوهمك انه اتفق معك على ماتريد ثم قدمك لتعترف به

فاذا اعترفت انكره فانه رجل غادر فان كنتما قد اتفقتما على شئ فقدمه ليقوله قبلك فقال أبو موسى انا قد اتفقنا ثم قال انا قد اتفقنا على أن نخلع علياً ومعاوية وندع أمر المسلمين شورى يختارون من أجمعوا عليه وانى قد خلعت علياً ومعاوية من الخلافة كما يخلع الخاتم من الاصبع فتقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه وقال أيها الناس قد سمعتم ماقال وانه قد خلع صاحبه وانا أيضاً قد خلعته معه وأثبت صاحبي معاوية فانكر أبو موسى وقال انه غدر وكذب وما على هذا اتفقنا فلم يسمع منه وتفرق الناس ومضى عمرو بن العاص وأهل الشأم الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة ومضى بن عباس وأصحاب علىّ عليه السلام الى أمير المؤمنين وأخبروه بما جرى وأما أبو موسى فان أهل الشأم تطلبوه فهرب الى مكة * وعلى ذلك انفصل أمر صفين وكان ابتداؤه فى سنة ست وثلاثين وانقضاؤه فى سنة سبع وثلاثين * حديث الخوارج وما كان منهم وما آلت بهم الحال اليه * لما جرى أمر التحكيم على الوجه المشروح عاد الذين أشاروا بالتحكيم وألزموا أمير المؤمنين عليه السلام الرضى به ندموا عليه ونفروا وأتوا علياً عليه السلام وقالوا لاحكم الا لله قال علىّ عليه السلام لاحكم الا لله قالوا فما لك حكمت الرجال قال انى لم ارض بقضية التحكيم وأنتم الذين رضيتموها وانى أعلمتكم أنها مكيدة من أهل الشأم وأمرتكم بقتال عدوكم منهم فأبيتم الا التحكيم وغلبتمونى على رأيى فلما لم يبق بد من التحكيم استوثقت وشرطت على الحكمين أن يعملا بكتاب الله عز وجل وأن يحييا ما أحيي الكتاب ويميتا ما أمات فاختلفا وخالفا كتاب الله وعملا بالهوى فنحن على الرأى الاول فى قتالهم قال الخوارج أما نحن فلا ريب انا رضينا بالتحكيم فى أول الامر لكننا ندمنا عليه وعلمنا انا كنا مخطئين فأنت ان أقررت

على نفسك بالكفر واستغفرت الله من خطئتك وتضييعك وتحكيمك الرجال رجعنا معك الى قتال عدوك وعدونا والا فها نحن قد نابذناك فوعظهم بكل قول وبصرهم بكل وجه فلم يرجعوا واجتمعوا أمما من أهل البصرة والكوفة وغيرهم وقصدوا النهروان وكان رأيهم ان يأتوا بعض المدن الحصينة فيتحصنوا بها ويقاتلون فيها وصدرت منهم أمور متناقضة تدل على ان يخبطو خبط عشواء * منها أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها فى فيه فقالوا له أكلتها غصباً وأخذتها بلا ثمن فألقاها * ومنها ان خنزيراً لبعض أهل القرى مرّ بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره فقالوا هذا فساد فى الارض فمضى الرجل الى صاحب الخنزير وأرضاه * ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التى حرمت الا بالحق فقتلوا عبد الله بن خباب رضى الله عنه وكان خباب من كبار الصحابة وقتلوا عدة نساء وسبوا وفعلوا أفاعيل من هذا القبيل * فلما بلغ علياً عليه السلام أمرهم وقد كان خطب الناس فى الكوفة وندبهم الى قتال أهل الشأم واعادة الحرب جذعة قالوا ياأمير المؤمنين أين نمضى وندع هؤلاء الخوارج يخلفونا فى عيالنا وأموالنا سر بنا اليهم فاذا فرغنا من قتالهم رجعنا الى قتال أعدائنا من أهل الشأم فسار عليه السلام بالناس الى الخوارج فلقيهم على النهروان وأبادهم فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا * كرامة لامير المؤمنين علىّ صلوات الله عليه * لما التقى الخوارج بالنهروان أجفلوا قدامه الى ناحية الجسر فظن الناس أنهم قد عبروا الجسر فقالوا لعلىّ عليه السلام ياأمير المؤمنين انهم قد عبروا الجسر فالقهم قبل أن يبعدوا فقال أمير المؤمنين عليه السلام ماعبروا وان مصارعهم دون الجسر ووالله لايقتل منكم عشرة ولايبقى منهم عشرة فشك الناس فى قوله فلما اشرفوا على الجسر رأوهم لم يعبروا فكبر أصحاب أمير المؤمنين

عليه السلام وقالوا له هو كما قلت يا أمير المؤمنين قال نعم والله ما كذبت ولا كذبت فلما انفصلت الوقعة وسكنت الحرب اعتبر القتلى من أصحاب عليّ عليه السلام فكانوا سبعة وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا والله ماندرى على أىّ شىء نقاتل علىّ بن أبي طالب سنأخذ ناحية حتى ننظر الى ماذا يؤل الامر وأما الباقون فثبتوا وقاتلوا فهلكوا جميعهم ثم ان أمير المؤمنين عليه السلام لما انقضى أمر الخوارج رجع الى الكوفة وندب الناس الى قتال أهل الشأم فتثاقلوا فأعاد القول عليهم ووعظهم وحثهم على الجهاد فقالوا يا أمير المؤمنين كلت سيوفنا وفنيت نبالنا وملالنا من الحرب فامهلنا نصلح أمورنا ونتوجه وكان قد عسكر ظاهر الكوفة فامهلهم وأمرهم أن يوطنوا نفوسهم على الحرب ونهاهم عن غشيان أهاليهم حتى يرجعوا من الشأم فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم فبطل رأيه عليه السلام وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين * وفاة الاربعة * وفاة أبي بكر رضى الله عنه * أول من مات منهم أبو بكر مات بالمدينة حتف أنفه فى سنة ثلاث عشرة وكان مرضه انتقاض لسعة الحية التى لسعته ليلة الغار ودفن عند النبىّ صلوات الله عليه وسلامه فى بيت عائشة إبنته رضى الله عنها زوج الرسول وكان الرسول صلوات الله عليه لما قبض قبض فى بيتها فدفن أبو بكر عنده وعهد الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستخلفه على الأمة بعده * مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه * لما وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج اغتاظ من ذلك أبو لؤلؤة رضى الله عنه غلام المغيرة بن شعبة لانه كان قد وضع الخراج على مولاه وكان عمر بن الخطاب لقى أبا لؤلؤة رضى الله عنهم فقال له اصنع لى رحى فقال أبو لؤلؤة لأصنعن

لك رحى تدور مع الدهر فقال عمر يهددنى العبد فطعنه وهو فى الصلاة فبقى ثلاثة أيام ومات ودفن فى تربة النبى عليه السلام وذلك فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة وأما أبو لؤلؤة فاجتمع الناس عليه فقتل منهم جماعة ثم أخذ وقتل * ذكر الشورى وصفة الحال فى ذلك * لما طعن عمر اجتمع اليه الناس وسألوه عمن يتولى الأمر بعده فجعل الأمر شورى والشورى فى اللغة هى المشاورة ومعنى هذا أن عمر لما أحس بالموت نظر فيمن يعهد اليه ويوليه أمر الأمة فلم يصح رأيه فى رجل واحد فجعلها فى ستة من أكابر الصحابة وهم أصحاب الشورى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم وقال كل من هؤلاء صالح للأمر بعدى وأمرهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام ثم يجمعوا على واحد من هؤلاء الستة وكان طلحة رضى الله عنه غائباً فقال عمر إن قدم طلحة قبل الايام الثلاثة وإلا فامضوا أمركم وأقام عليهم رجلا من الأنصار وقال ان الله أعزّ بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الأنصار واستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا وقال إن اجتمع خمسة ورضوا واحداً منهم وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤسهما وان رضى ثلاثة منهم رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر يعنى ابنه فبأى الفريقين حكم فليختاروا رجلا منهم وكان قد أمر بحضور ابنه فى ذلك المقام مشيراً ولم يجعل له من الأمر شيئاً فان لم تختاروا بحكم عبد الله ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس فلم يجر مما قال شىء بل لما مات بويع عثمان بن عفان وكان من الامر ما كان * مقتل عثمان بن عفان وسببه * ان ناساً من

المسلمين نقموا عليه تجاوزه لطريقة صاحبيه أبي بكر وعمر رضى الله عنهم من التقلل والكف عن أموال المسلمين وكان هو قد فرق جملة منها على أقاربه ووسع على عياله وأهله فمن جملة ما فعل انه أعطى عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألف درهم وأعطى مروان بن الحكم خمسة عشر ألفاً ولم يكن المسلمون اعتادوا مثل هذا التبذير وعهدهم قريب بضبط أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فنفروا من ذلك وجرت بينهم وبينه معاتبات ومقاولات فاعتذر اليهم بأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهم منعا أنفسهما وأهلهما احتساباً لله وتركا حق نفوسهما وأنا صاحب عيال مددت يدى فوسعت علىّ وعلى أهلى بشيء من هذا المال فان سخطتم هذا فأمرى لأمركم تبع فقالوا أأحسنت وأأنصفت قد أعطيت عبد الله بن خالد خمسين ألفاً ومروان خمسة عشر ألفاً قال فانى أستعيد ذلك منهما واستعاد ما أعطاهما وكان اذا عاتبوه على صادرات أموره التى يحمله عليها ويحسنها له مروان بن الحكم يعتذر مرة ويلتزم لهم ما يشيرون به عليه ويحتج مرة وفشا الأمر فاجتمع ناس من أهل الامصار على حربه فجاء أهل مصر وناس من كل صقع وعزموا على قتله فخرج ليلا وجاء الى أمير المؤمنين عليه السلام وقال له يا ابن عم لى عليك حق وقد قصدتك ولك عند هؤلاء القوم منزلة وهم يقبلون قولك وقد ترى جرأتهم علىّ فاخرج اليهم وردهم عنى فركب علىّ عليه السلام ورد الناس عنه وضمن لهم عنه حسن السيرة فرجعوا ثم أعضل الخطب وزين له مروان بن الحكم أموراً نقمها الناس فاجتمعوا عليه من كل صوب وأحاطوا به وحصروه فى داره فأرسل الى علىّ عليه السلام يستنصره فأرسل له ابنه الحسن عليه السلام فقاتل عنه قتالا شديداً حتى كان يستكفه وهو يقاتل عنه ويبذل نفسه دونه وتكاثر الناس

عليه فدخلوا عليه الدار وخبطوه بالسيوف وهو صائم والمصحف فى حجره وهو يقرأ فيه فوقع المصحف بين يديه وسال الدم عليه فقامت زوجته نائلة لتلتقى عنه الضرب بيدها فأصاب السيف أصابعها فأبانها وهى الأصابع التى كان يعلقها معاوية رضى الله عنه على منبر الشأم مع قميص عثمان ليرقق الناس بذلك فولت المرأة دهشة فغمز ضاربها أوراكها وقال انها لكبيرة العجز ثم قتل عثمان رضى الله عنه واحتزوا رأسه فوقع نساؤه عليه وصحن وبكين فقال بعضهم دعوه فتركوه ثم داس رجل من أهل الكوفة يقال له عمير بن ضابئ البرجمىّ أضلاعه فكسرها ثم نهبت داره حتى أخذ ما على النساء ثم حمل فى تابوت بعد أيام ليدفن فقعد جماعة على الطريق يريدون رجمه فأرسل أمير المؤمنين علىّ عليه السلام اليهم فردهم عن ذلك ودفن قريباً من البقيع ثم بعد ذلك اشترى معاوية رضى الله عنه ما حول قبره ومزجه بمقابر المسلمين وأباح للناس الدفن حوله وكان ذلك فى سنة خمس وثلاثين من الهجرة وسمى يوم قتله يوم الدار لانهم هجموا عليه فى داره وقتلوه بها

﴿ مقتل أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ﴾

نقل من عدة جهات أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول دائما ما يمنع أشقاكم أن يخضب هذه من هذا يعنى لحيته بدم رأسه وكان اذا رأى عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ينشد (وافر)

أريد حباءه فيريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

وكان يقال له اذا جرى على لفظه مثل هذا يا أمير المؤمنين فلم لا تقتله فيقول كيف أقتل قاتلى وهذا يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بذلك فى جملة ما أعلمه به ومما يؤكد هذا ما روى عن أنس بن مالك

رضى الله عنه قال مرض علىّ عليه السلام فدخلت عليه أعوده وعنده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فجلسنا عنده ساعة فأتى رسول الله صلوات الله عليه فنظر فى وجهه فقال له أبو بكر رضى الله عنه يا نبىّ الله إنا نراه لمائت فقال لن يموت هذا الآن ولن يموت حتى يملأ غيظاً ولن يموت إلا مقتولا وكان علىّ عليه السلام دائما يحسن الى ابن ملجم لعنه الله قالوا فلما دخل شهر رمضان من سنة أربعين كان علىّ عليه السلام يفطر ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند ابن أخيه عبد الله بن جعفر الطيار عليهم السلام فاذا أكل لا يزيد على ثلاث لقم ويقول انما هى ليلة أو ليلتان ويأتى أمر الله وأنا خميص فلم يمض إلا ليال قلائل حتى قتل عليه السلام

وقيل انه قتل فى شهر ربيع الآخر والاول أصح وهو المعول عليه

﴿ وأما كيفية قتله عليه السلام ﴾

فانه خرج من داره بالكوفة أول الفجر فجعل ينادى الصلاة يرحمكم الله فضربه ابن ملجم لعنه الله بالسيف على أم رأسه وقال الحكم لله لا لك يا علىّ وصاح الناس وهرب ابن ملجم فقال أمير المؤمنين لا يفوتكم الرجل فشدّ الناس عليه فأخذوه واستناب علىّ عليه السلام فى صلاة الصبح بعض أصحابه وأدخل داره فقال أحضروا الرجل عندى فلما حضر عنده قال له ياعدو الله ألم أحسن اليك قال بلى قال فما حملك على هذا قال شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه فقال أمير المؤمنين لا أراك إلا مقتولا به ولا أراك الا من شرّ خلق الله ثم قال عليه السلام النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى يا بنى عبد المطلب لا تجمعوا من كل صوب تقولون قتل امير المؤمنين ألا لا يقتلنّ بى

إلا قاتلى ثم التفت الى ابنه الحسن عليه السلام وقال انظر يا حسن اذا انا متّ من ضربتى هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل فانى سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور ۞ ثم وصى بنيه بتقوى الله تعالى وباقامة الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء وغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه فى الدين والتثبت للامر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش ثم كتب وصيته ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض صلوات الله عليه وسلامه ۞ فلما قبض بعث الحسن عليه السلام الى ابن ملجم فأحضره فقال للحسن هل لك فى أمر انى والله قد اعطيت الله عهداً أن لا اعاهد عهداً إلا وفيت به وانى عاهدت الله عند الحطيم ان اقتل علياً ومعاوية او اموت دونهما فخل بينى وبين معاوية حتى امضى واقتله ولك عهد الله علىّ انى ان لم اقتله او قتله وسلمت ان اجئ اليك حتى اضع يدى فى يدك فقال الحسن لا والله حتى تذوق النار ثم قدمه فقتله وأخذه الناس فأدرجوه فى بوارىّ وأحرقوه بالنار

وأما مدفن أمير المؤمنين عليه السلام فانه دفن ليلا بالغرىّ ثم عفى قبره الى أن ظهر حيث مشهده الآن صلوات الله عليه وسلامه

وأما السبب الذى حمل ابن ملجم لعنه الله على فعله فهو أن ابن ملجم كان أحد الخوارج فاجتمع برجلين من الخوارج وتذاكروا من قتل أمير المؤمنين عليه السلام منهم بالنهروان وقالوا ما فى الحياة بعد أصحابنا نفع وتواعدوا على أن يقتل كل واحد منهم واحداً من ثلاثة علىّ ابن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علياً وقال

الآخر أنا أكفيكم معاوية وقال الآخر أنا أكفيكم عمرا فأما ابن ملجم لعنه الله فانه رأى امرأة جميلة من بنات الخوارج فهويها فخطبها فقالت له أريد كذا وكذا وأريد ان تقتل علىّ بن ابى طالب فقال لها ماجئت الا لقتله والتزم لها انه يقتله ثم قتله وقتل بعده * وأما الآخر فانه مضى الى معاوية فقعد له حتى خرج فضربه بالسيف على طرف اليته فلم يصنع طائلا وتطبب لها معاوية فبرئ وقتل الرجل وقيل لم يقتله * واما الآخر فمضى الى مصر لقتل عمرو بن العاص فقعد له فاتفق ان عمرا انحرف مزاجه فى تلك الليلة فلم يخرج فى صبيحتها الى الصلاة واستناب بعض أصحابه فلما طلع اعتقده الرجل عمرا فضربه فقتله فقبضوه واحضروه الى عمرو فلما رأى الناس يسلمون عليه بالامارة قال من هذا قالوا الامير عمرو بن العاص قال فمن قتلت قالوا نائبه وكان اسمه خارجة فقال الرجل لعمرو بن العاص اما والله يا فاسق ما اردت غيرك فقال عمرو اردتني واراد الله خارجة ثم قدمه عمرو فقتله * ولما بلغ عائشة رضى الله عنها قتل علىّ عليه السلام قالت (طويل)

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالاياب المسافر

الدولة الاموية

(وهى التى تسلمت الملك من الدولة الاولى)

لما قتل أمير المؤمنين صلوات الله عليه بايع الناس الحسن بن علىّ عليهما السلام فمكث شهوراً حتى اجتمع هو ومعاوية فتصالحا للمصلحة الحاضرة التى كان الحسن عليه السلام أعلم بها وسلم الخلافة اليه وتوجه نحو المدينة وبويع معاوية رضى الله عنه بالخلافة العامة ودعى بأمير المؤمنين وذلك فى

سنة أربعين من الهجرة * ذكر شيء من سيرة معاوية ووصف طرف من حاله

*هو معاوية بن ابى سفيان صخر بن حرب بن أميـة بن عبد شمس بن عبد مناف كان أبوه ابو سفيان أحد أشياخ مكة أسلم فى السنة التى فتح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيها مكة وأسلم معاوية وكتب الوحى فى جمـلة من كتبه بين يدى الرسول صـلى الله عليه وآله وسلم وكانت أمه هند بنت عتبة شريفة فى قريش أسلمت عام الفتح وكانت فى وقعـة أحد لما صرع حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وآله من طعنة الحربة التى طعنها جاءت هند فمثلت بحمزة وأخذت قطعة من كبده فمضغتها حنقاً عليه لأنه كان قد قتل رجالا من أقاربها فلذلك يقـال لمعاوية بن آكلة الاكباد

ولما فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة حضرت اليه متنكرة فى جملة نساء من نساء مكة أتين ليبايعنه فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط صلوات الله عليـه وآله شروط الاسلام عليها وهو لا يعلم أنها هند فأجابته بأجوبة قوية على خوفها منه فمما قال لها وقالت قال لهـا صلوات الله عليه وآله وسلم تبايعننى على أن لا تقتلن أولادكن وكانوا فى الجاهليـة يقتلون الاولاد فقالت هند أما نحن فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر فقال وعلى أن لا تعصيننى فى معروف قالت ماجلسـنا هذا المجلس وفى عزمنا أن نعصيك قال وعلى أن لا تسرقن قالت والله ماسرقت عمرى شيأ اللهم الا أنى كنت آخذ من مال أبى سفيان شيأ فى بعض الوقت وكان ابو سفيان زوجها حاضراً فحينئذ علم رسول الله صلى الله عليه وآله أنها هنـد فقال هند قالت نعم يا رسول الله فلم يقـل شيئاً لأن الاسلام جبّ ما قبله ثم قال وعلى أن لا تزنين قالت وهل تزنى الحرة قالوا فالتفت رسول الله صلى الله عليـه وآله الى العباس رضى الله عنـه وتبسم

*وأما معاوية رضى الله عنه فكان عاقلا فى دنياه لبيباً عالماً حليما ملكا قوياً جيد السياسة حسن التدبير لامور الدنيا عاقلا حكيما فصيحاً بليغاً يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه وكان كريماً باذلا للمال محباً للرئاسة مشغوفاً بها كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبى طالب رضى الله عنهم يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية والصلات الجمة قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه وهو رجل من الانصار يا قيس والله كنت أودّ أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين علىّ عليه السلام وأنت حىّ فقال قيس والله انى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين فلم يقل له شيئاً وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به

وبعث الى رجل من الأنصار بخمس مائة دينار فاستقلها الأنصارى وقال لابنه خذها وامض الى معاوية فاضرب بها وجهه وردها عليه وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك فجاء ابنه الى معاوية ومعه الدراهم فقال يا أمير المؤمنين ان أبى فيه حدة وسرعة وقد امرنى بكيت وكيت واقسم علىّ وما اقدر على مخالفته فوضع معاوية يده على وجهه وقال افعل ما امرك ابوك وارفق بعمك فاستحيى الصبى ورمى بالدراهم فضاعفها معاوية وحملها الى الأنصارى وبلغ الخبر يزيد ابنه فدخل على معاوية غضبان وقال لقد افرطت فى الحلم حتى خفت ان يعد ذلك منك

ضعفاً وجبناً فقال معاوية اى بنى انه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة فامض لشأنك ودعنى ورأيى وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالم وخضع له من ابناء المهاجرين والانصار كل من يعتقد انه أولى منه بالخلافة وكان معاوية رضى الله عنه من أدهى الدهاة * روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لجلسائه تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية * ومن دهائه ما اعتمده من استمالة عمرو بن العاص وكان عمرو بن العاص احد الدهاة وكان اول ما نشبت الفتنة بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية معتزلا للفريقين فرأى معاوية ان يستميله ويتقوى برأيه ودهائه ومكره فاستماله ووصل حبله بحبله وولاه مصر ودخل معه فى تلك المداخل وفعل فى صفين تلك الافاعيل ولم يكن بينهما مع ذلك مودة قلبية وكانا يتباغضان سراً وربما ظهر ذلك على صفحات وجوههما وفلتات السنتهما طلب أمير المؤمنين عليه السلام فى صفين من معاوية ان يخرج الى مبارزته فقال له عمرو بن العاص رضى الله عنه قد انصفك ولا يحسن بك النكول عن مبارزته فقال له معاوية غششتنى وأحببت قتلى ألست تعلم ان ابن ابى طالب لا يبرز له احد الا قتله وقال معاوية يوما لجلسائه ما اعجب الأشياء فقال يزيد اعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شئ من تحته ولا هو منوط بشىء من فوقه وقال آخر أعجب الأشياء حظ يناله جاهل وحرمان يناله عاقل وقال آخر أعجب الاشياء ما لم ير مثله وقال عمرو بن العاص أعجب الاشياء ان المبطل يغلب المحق يعرّض بعلىّ عليه السلام ومعاويه فقال معاوية بل اعجب الاشياء ان يعطى الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف يعرّض بعمرو ومصر فنفث كل منهما بما فى صدره من الآخر

واعلم ان معاوية كان مربي دول وسائس امم وراعي ممالك ابتكر في الدولة اشياء لم يسبقه احد اليها * منها انه اول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين ايديهم ووضع المقصورة التي يصلي الملك أو الخليفة بها في الجامع منفرداً من الناس وذلك لخوفه مما جرى لأمير المؤمنين عليه السلام فصار يصلي منفرداً في مقصورة فاذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف * وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة

﴿ كلام في معنى البريد ﴾

البريد أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة * وأما معناه اللغوي فالبريد هو اثنا عشر ميلا وأظن أن الغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد هي هذا القدر وقال الصاحب علاء الدين عطا ملك في جهان كشاي ومن جملة الاشياء وضعهم البريد بكل مكان طلباً لحفظ الاموال وسرعة وصول الاخبار ومتجددات الاحوال وما أرى للبريد فائدة سوى سرعة وصول الاخبار فأما حفظ الاموال فأي تعلق له بذلك

ومما اخترع معاوية رضي الله عنه من أمور الملك ديوان الخاتم وهذا ديوان معتبر من أكابر الدواوين لم تزل السنة جارية به الى أواسط دولة بني العباس فأسقط ومعناه أن يكون ديوان وبه نواب فاذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الامور أحضر التوقيع الى ذلك الديوان وأثبتت نسخته فيه وخزم بخيط وختم بشمع كما يفعل في هذا الزمان بكتب القضاة وختم بخاتم صاحب ذلك الديوان

وكان الذى حمل معاوية رضى الله عنه على اختراع هذا الديوان أنه أحال رجلا على زياد بن أبيه أمير العراق بمائة ألف درهم فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة فجعل المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه الى معاوية رضى الله عنه أنكر معاوية ذلك وقال ما أحلته إلا بمائة ألف ثم استعادها منه ووضع ديوان الخاتم فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها ولا يتمكن أحد من تغييرها

وكان معاوية رضى الله عنه مصروف الهمة الى تدبير أمر الدنيا يهون عليه كل شىء اذا انتظم أمر الملك فانظر الى وصف عبد الملك بن مروان له فانه لحظ فيه هذا المعنى * قالوا ان عبد الملك بن مروان مرّ بقبر معاوية رضى الله عنه فترحم عليه فقال له رجل قبر من هذا يا أمير المؤمنين قال قبر رجل كان والله فيما علمته ينطق عن علم . ويسكت عن حلم . كان اذا أعطى أغنى . واذا حارب أفنى . ووصفه أيضاً عبد الله بن العباس وكان من النقاد فقال ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرئاسة والملك * وقال له بعض بنى أمية والله لو قدرت أن تستكثر بالزنج لاستكثرت بهم لينتظم لك أمر الملك

وكان معاوية رضى الله عنه نهماً شحيحاً عند الطعام على كرمه وسماحته فاما نهمه فقالوا إنه كان يأكل فى كل يوم خمس أكلات آخرهن أغلظهن ثم يقول يا غلام ارفع فوالله ما شبعت ولكن مللت * وروى انه أصلح له عجل مشوىّ فأكل معه دستا من الخبز السميذ واربع فرانىّ وجدياً حاراً وآخر بارداً سوى الالوان ووضع بين يديه مائة رطل من الباقلى الرطب فأتى عليه * وأما شحه على الأكل فان ابن أبى بكرة دخل عليه ومعه ابنه فجعل ابنه يأكل اكلا مفرطاً ومعاوية يلحظه وفطن ابن ابى بكرة لحنق معاوية واراد

أن ينهى ابنه عن كثرة الاكل فلم يتفق له ذلك وخرجا من عند معاوية رضى الله عنه ففى الغد حضر الاب وليس معه ابنه فقال له معاوية ما فعل ابنك قال يا أمير المؤمنين انحرف مزاجه قال قد علمت أن تلك الاكلة ما كانت تتركه حتى تهيضه . وهاهنا موضع حكاية حسنة تدل على كرم ومروءة ونبل كان بعض الوزراء مشغوفاً بالاكل ويحب كلّ من يأكل معه وكل من كان أكثر أكلا كان أقرب الى قلبه فاتفق انه قصد بعض الاكابر من العلويين وكمل عليه وجوهاً من خراج وضمان وغير ذلك وطالبه بها فوكل عليه فى نفس داره أعنى دار الوزير ففى بعض الايام مد السماط بين يدى الوزير فقال العلوىّ للموكلين به إنى جائع فهل تأذنون أن أخرج الى السماط وأنتم معى فآكل وأعود الى هذا الموضع وكان العلوىّ قد فطن لطبع الوزير فى ذلك فاستحيوا منه وأذنوا له فى ذلك فخرج وجلس فى أخريات السماط وجعل يأكل بنهم فلحظه الوزير وهو مقبل على الاكل فاستدناه ورفعه الى صدر المجلس وقدم اليه من أطايب ذلك الطعام وكلما بالغ فى الاكل زادت بشاشة الوزير وطلاقته فلما رفع الطعام استدعى الوزير كانوناً فيه نار وأحضر الحساب الذي رفع على الرجل به وقال أيها السيد قد أراحك الله من هذا المال وأنت فى حل منه ووالله وحق جدك صلوات الله عليه ليس عندي بهذا الحساب ولا فى الديوان به غير هذه النسخة ثم ألقاها فى الكانون فاحترقت وأفرج عنه وأذن له فى الرّواح الى منزله * ومما عظم على الناس عامة وعلى بني أمية خاصة قضية الاستلحاق وهى ان معاوية رضى الله عنه استلحق زياد بن أبيه وجعله أخا له ليتكثر به ويتقوّى برأيه ودهائه

﴿ شرح كيفية الاستلحاق على وجه الاختصار ﴾

كانت سمية أمّ زياد بغياً من بغايا العرب ولها زوج اسمه عبيد فاتفق أن أبا سفيان وهو أبو معاوية نزل بخمار يقال له ابو مريم فطلب ابو سفيان منه بغياً فقال له ابو مريم هل لك فى سمية وكان ابو سفيان يعرفها فقال هاتها على طول ثديها وذفر بطنها (والذفر الصنان ونتن الريح) فأتاه بها فوقع ابو سفيان عليها فعلقت منه بزياد ثم وضعته على فراش زوجها عبيد فلما نشأ زياد تأدب وبرع وتقلب فى الاعمال فولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عملا فاحسن القيام به فحضر يوماً مجلس عمر وفيه اكابر الصحابة وأبو سفيان فى جملة القوم فخطب زياد خطبة بليغة لم يسمعوا بمثلها فقال عمرو بن العاص لله در هذا الغلام لو كان ابوه من قريش لساق العرب بعصاه فقال أبو سفيان والله إنى لاعرف أباه الذى وضعه فى رحم أمه وعنى نفسه فقال له أمير المؤمنين على عليه السلام يا أبا سفيان أسكت فانك لتعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان اليك سريعاً فلما ولى عليه السلام الخلافة استعمل زيادا على فارس فضبطها وحمى قلاعها وقام فيها مقاما مرضياً واشتهرت كفاءته واتصل الخبر بمعاوية رضى الله عنه فساءه أن يكون من أصحاب علىّ عليه السلام رجل مثل زياد وأراده لنفسه فكتب اليه كتابا يتهدده ويعرض له بولادة أبي سفيان ويقول له انت أخى فلم يلتفت زياد اليه وبلغ الخبر امير المؤمنين علياً عليه السلام فكتب الى زياد إنى وليتك ماوليتك وانا أراك له أهلا وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس لا توجب لك ميراثا ولا تحل له نسباً وإن معاوية رضى الله عنه يأتى الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام * فلما قتل علىّ عليه السلام جد معاوية فى استصفاء مودة زياد واستمالته وترغيبه الى الانخراط فى زمرته فنشأ بينهما حديث

ولادة ابى سفيان واتفقا على الاستلحاق وحضر شهود مجلس معاوية رضى الله عنه فشهدوا بان زيادا ولد ابى سفيان فمن جملة الشهود ابو مريم الخمار الذى أحضر سمية الى ابى سفيان وكان هذا ابو مريم قد أسلم وحسن اسلامه فقال له بم تشهد ياابا مريم فقال أشهد أن ابا سفيان حضر عندى وطلب منى بغيا فقلت له ليس عندى الا سمية فقال هاتها على قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها فخرجت من عنده وانها لتقطر منياً فقال له زياد مهلا يا أبا مريم فانما دعيت شاهدا ولم تدع شاتما فاستلحقه معاوية رضى الله عنه قالوا وكان هذا الاستلحاق أول ماردت به احكام الشريعة علانية فان رسول الله صلوات الله عليه قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر * واعتذر قوم لمعاوية بأن قالوا انما جاز استلحاق معاوية زيادا لان انكحة الجاهلية كانت أنواعاً فمن جملتها أن الجماعة اذا جامعوا بغيا ثم ولدت تلك البغي ألحقت الولد بمن شاءت منهم والقول فى ذلك قولها فلما جاء الاسلام حرم هذا النكاح الا انه اقر كل ولد على نسبه الى الاب الذى عرف به من أى نكاح كان من انكحتهم ولم يفرق الاسلام بين شئ من ذلك

قال آخرون صدقتم فى هذا لكن معاوية رضى الله عنه توهم أن ذلك على هذه الصورة ولم يفرق بين ما استلحق فى الجاهلية والاسلام فان زيادا لم يكن يعرف فى الجاهلية بابى سفيان ولم يكن منسوباً الا الى عبيد فكان يقال زياد بن عبيد وبين الصورتين بون * وقال الشاعر مشيرا الى هذه القضية

(وافر)

ألا أبلغ معاوية بن حرب   مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف   وترضى أن يقال أبوك زان

فأقسم ان رحمك من زياد　　كرحم الفيل من ولد الاتان

(الرحم القرابة) ثم صار زياد من رجال معاوية وأعضاده فولاه البصرة وخراسان وسجستان وأضاف اليه الهند والبحرين وعمان وأضاف اليه فى آخر الأمر الكوفة وكتب زياد على كتبه من زياد بن ابى سفيان وكانوا قبل ذلك يقولون له زياد بن عبيد تارة وتارة زياد بن سمية ومن يتحرى الصدق يقول زياد بن ابيه وكان زياد أحد الدهاة عظيم السياسة قوى الهيبة صحيح العقل سديداً شهماً فطناً بليغاً * وكانت وفاة معاوية رضى الله عنه فى سنة ستين من الهجرة * ولما أدركته الوفاة أوصى الى ابنه يزيد وصية تدل على عقله ولبه وخبرته بالامور ومعرفته بالرجال فلم يعمل يزيد بشئ منها وقد أثبتها هاهنا لحسنها وسدادها

قالوا لما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه دعى ابنه يزيد فقال له يابني إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب وأنظر أهل العراق فان سألوك ان تعزل كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أيسر من أن يشهر مائة سيف وانظر أهل الشأم وليكونوا بطانتك فان رابك من عدوك شئ فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشأم الى بلادهم فانهم إن أقاموا بها تغيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الامر إلا أربعة من قريش الحسين بن علىّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابى بكر رضى الله عنهما فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علىّ

فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقاً عظيما وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه وأماابن أبى بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيأ صنع مثله ليست له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً واحقن دماء قومك ما استطعت

وفى هذه الوصية دليل على ماسبق من وفور رغبته فى تدبير الملك وشدة كلفه بالرئاسة

ثم ملك بعده ابنه يزيد * كان موفر الرغبة فى اللهو والقنص والخمر والنساء والشعر وكان فصيحاً كريماً شاعراً مفلقاً قالوا بدئ الشعر بملك وختم بملك إشارة الى امرئ القيس واليه فمن شعره (بسيط)

جاءت بوجه كأن البدر برقعه ... نوراً على مائس كالغصن معتدل
إحدى يديها تعاطينى مشعشعة ... كخدها عصفرته صبغة الخجل
ثم استبدت وقالت وهى عالمة ... بما تقول وشمس الراح لم تقل
لا ترحلن فما أبقيت من جلدي ... ما أستطيع به توديع مرتحل
ولا من النوم ماألقى الخيال به ... ولا من الدمع ماابكى على الطلل

كانت ولايته على أصح القولين ثلاث سنين وستة أشهر ففى السنة الأولى قتل الحسين بن علىّ عليهما السلام وفى السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ثلاثة أيام وفى السنة الثالثة غزا الكعبة

فنبدأ بشرح قتل الحسين عليه السلام

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على وجه الاختصار ﴾

هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاماً لها واستفظاعاً فانها قضية لم يجر فى الاسلام أعظم فحشا منها ولعمرى إنّ قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبى أوالتمثيل ما تقشعر له الجلود واكتفيت أيضاً عن بسط القول فيها بشهرتها فانها شهر الطامات فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشىء منها ولا تقبل الله منه صرفاً ولا عدلا وجعله من (الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وجملة ما جرى فى ذلك أن يزيد لعنه الله لما بويع لم يكن له همّ إلا تحصيل بيعة الحسين رضى الله عنه والنفر الذى حذره أبوه منهم فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وهو يومئذ أمير المدينة يأمره بأخذ البيعة عليهم فاستدعاهم فحضر الحسين عليه السلام عنده فأخبره بموت معاوية رضى الله عنه ودعاه الى البيعة فقال له الحسين عليه السلام مثلى لا يبايع سراً ولكن اذا اجتمع الناس نظرنا ونظرت ثم خرج الحسين عليه السلام من عنده وجمع أصحابه وخرج من المدينة قاصداً مكة متأبياً من بيعة يزيد آنفاً من الانخراط فى زمرة رعيته فلما استقر بمكة اتصل بأهل الكوفة تأبيه من بيعة يزيد وكانوا يكرهون بني أمية خصوصاً يزيد لقبح سيرته ومجاهرته بالمعاصى واشتهاره بالقبائح فراسلوا الحسين عليه السلام وكتبوا اليه الكتب يدعونه الى قدوم الكوفة ويبذلون له النصرة على بنى أمية واجتمعوا وتحالفوا على ذلك وتابعوا الكتب اليه فى هذا المعنى فأرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه فلما وصل الى الكوفة فشا الخبر الى عبيد الله بن زياد لعنه الله وأحله دار الخزى وكان يزيد قد أمره على الكوفة حين بلغه مراسلة اهلها الحسين عليه السلام

وكان مسلم قد التجأ الى دار هانئ بن عروة رضى الله عنه وكان من أشراف اهل الكوفة فاستدعاه عبيد الله بن زياد وطلبه منه فأبى فضرب وجهه بالقضيب فهشمه ثم أحضر مسلم بن عقيل رضى الله عنهما فضربت عنقه فوق القصر فهوى رأسه وأتبع جثته رأسه * وأما هانئ فأخرج الى السوق فضربت عنقه * وفى ذلك يقول الفرزدق (طويل)

وان كنت لا تدرين ما الموت فانظرى الى هانئ فى السوق وابن عقيل
الى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يهوي من طمار قتيل

ثم إن الحسين عليه السلام خرج من مكة متوجهاً الى الكوفة وهو لا يعلم بحال مسلم فلما قرب من الكوفة علم بالحال ولقيه ناس فأخبروه الخبر وحذروه فلم يرجع وصمم على الوصول الى الكوفة لأمر هو أعلم به من الناس فأرسل ابن زياد اليه عسكراً اميره عمر بن سعد بن ابى وقاص فقاتل الحسين عليه السلام وأصحابه حين التقى الجمعان قتالا لم يشاهد احد مثله حتى فنى أصحابه وبقى هو عليه السلام وخاصته فقاتلوا أشد قتال رآه الناس ثم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية الحياة بعده والمقاتلة بين يديه عن بصيرة ما لم يشاهد مثله ووقع النهب والسبي فى عسكره وذراريه عليهم السلام * ثم حمل النساء ورأسه صلوات الله عليه الى يزيد بن معاوية بدمشق فجعل ينكت ثنايا الحسين عليه السلام بالقضيب ثم ردّ نساءه الى المدينة

وكان قتل الحسين عليه السلام فى يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين

(شرح كيفية وقعة الحرة)

ثم ثنى بقتال أهل مدينة سيدنا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وهى وقعة الحرة بالحاء المفتوحة غير معجمة ومبدأ الامر فيها أن أهل المدينة كرهوا خلافة يزيد وخلعوه وحصروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم فأرسل بنو أمية رسولا الى يزيد يعلمه حالهم فلما وصل الرسول الى يزيد وأخبره بذلك تمثل (طويل)

لقد بدلوا الحلم الذى فى سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان

ثم ندب اليها عمرو بن سعيد فأحجم عنها وأرسل يقول له إنى قد ضبطت لك الامور والبلاد* وأما الآن اذ صارت دماء قريش تهراق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك فندب عبيد الله بن زياد لذلك فاعتذر وقال والله لاجمعتهما للفاسق أقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو مدينته والكعبة فندب اليها مسلم بن عقبة المري وكان شيخاً كبيراً مريضاً الا أنه كان احد جبابرة العرب وشياطينهم وقيل ان أباه قال له ان خالفك أهل المدينة فارمهم بمسلم بن عقبة فتوجه اليها مسلم بن عقبة وهو مريض فحاصرها من جهة الحرة وهو موضع بظاهر المدينة فنصب لمسلم بن عقبة كرسى بين الصفين وجلس يحرض أصحابه على القتال حتى فتحها وقتل فى ذلك الوقعة جماعة من أعيانها* فيقال ان أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله خاف فأخذ سيفه وخرج الى كهف هناك ليدخل اليه ويعتصم به فتبعه بعض أهل الشأم نخافه أبو سعيد وسل سيفه عليه ليروعه فسل الآخر سيفه فلما وصل الى أبى سعيد قال له (لئن بسطت يدك الي لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك) فقال له الشامي من أنت

قال أنا ابو سعيد قال صاحب رسول الله قال نعم فمضى وتركه ثم أباح مسلم ابن عقبة المدينة ثلاثا فقتل ونهب وسبى فقيل ان الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان اذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول لعلها قد افتضت فى وقعة الحرة وسمى مسلم بن عقبة مسرفا

﴿ شرح كيفية غزو الكعبة ﴾

ثم ثلث يزيد بغزو الكعبة فأمر مسلم بن عقبة بقصدها وغزوها بعد فراغه من أمر المدينة فتوجه مسلم اليها وكان عبد الله بن الزبير بها وقد دعا الى نفسه وتبعه أهل مكة فمات مسلم فى الطريق واستخلف على الجيش رجلا كان يزيد أوصاه بتأميره إن هلك فمضى بالجيش الى مكة وحصرها وبرز ابن الزبير اليه فى أهل مكة ونشبت الحرب وقال راجز اهل الشأم

(رجز)

خطارة مثل الفنيق المزبد يرمي بها أعواد هذا المسجد

وهم فى ذلك اذ ورد نعي يزيد فرجعوا

(ثم ملك بعده ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية) كان صبياً ضعيفاً ملك اربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر ثم قال للناس انى ضعفت عن أمركم فالتمست لكم مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم أجد فالتمست ستة مثل أهل الشورى فلم اجدفأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم فما كنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بها حياً ثم دخل داره وتغيب اياما ومات وقيل مات مسموما وليس له من الاخبار ما يؤثر

(ثم ملك بعده مروان بن الحكم) هو مروان بن الحكم بن ابى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ولما مات معاوية بن يزيد بن معاوية ماج الناس فأراد اهل الشام بنى أمية وأراد غيرهم عبد الله بن الزبير ثم غلب من رأيه فى بنى أمية لكنهم اختلفوا فيمن يولونه فمال ناس منهم الى خالد بن يزيد بن معاوية وكان فصيحاً بليغاً وقيل انه أصاب عمل الكيمياء وكان صبياً ومال ناس الى مروان ابن الحكم لسنه وشيخوخته وكرهوا خالدا لصبوته ثم بايعوا مروان وقاد الجنود وفتح مصر وكان يقال له ابن الطريد وذلك لان أباه الحكم طرده رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة

فلما ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه رده اليه وانكر المسلمون ذلك منه فاحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعده برده ورويت أحاديث واخبار فى لعنة الحكم بن العاص ولعنة من فى صلبه وضعفها قوم وكان من أراد ذم مروان وعيبه يقول له يا ابن الزرقاء قالوا وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التى يستدل بها على بيوت البغايا فى الجاهلية فلذلك كانوا يذمون بها وكان مروان حين بويع قد تزوج أم خالد زوجة يزيد بن معاوية ليصغر بذلك شأن خالد فيسقط عن درجة الخلافة فدخل خالد يوما على مروان فقال له مروان يا ابن الرطبة ونسبه الى الحمق ليصغر أمره عند اهل الشام فخجل خالد ودخل على أمه وأخبرها بما قال له مروان فقالت لا يعلمن احد أنك أعلمتنى وانا أكفيك ثم ان مروان نام عندها ليلة فوضعت على وجهه وسادة ولم ترفعها حتى مات واراد ابنه عبد الملك أن يقتلها فقيل له يتحدث الناس أن اباك قتلته امرأة فتركها وكانت ولاية مروان تسعة اشهر وبعض شهر وذلك تأويل قول امير المؤمنين ان له إمرة كلعقة الكلب أنفه * وفى تلك الايام أخذت الشيعة بثأر الحسين عليه السلام

﴿ شرح كيفية ذلك على وجه الاختصار ﴾

لما هدأت الفتنة بعد قتل الحسين عليه السلام وهلك يزيد بن معاوية اجتمع ناس من أهل الكوفة وندموا على خذلانهم الحسين عليه السلام ومقاتلتهم له ونصرهم لقتلته بعد ارسالهم اليه واستدعائهم منه القدوم عليهم وبذلهم له النصر وتابوا من ذلك فسموا التوّابين ثم انهم تحالفوا على بذل نفوسهم واموالهم فى الطلب بثأره ومقاتلة قتلته واقرار الحق مقره فى رجل من آل بيت نبيهم صلوات الله عليه وسلامه وأمروا عليهم رجلا منهم يقال له سليمان بن صرد رضى الله عنه فكاتب الشيعة بالامصار يندبهم الى ذلك فأجابوه بالموافقة والمسارعة ثم ظهر فى تلك الايام المختار بن عبيد الثقفى وكان رجلا شريفاً فى نفسه عالى الهمة كريماً فدعا الى محمد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام وهو المعروف بابن الحنفية وكانت تلك الايام أيام فتن وذلك ان مروان كان خليفة بالشأم ومصر مبايعاً جالساً على سرير الملك وعبد الله بن الزبير خليفة بالحجاز والبصرة مبايع معه الجنود والسلاح والمختار بن ابى عبيد بالكوفة ومعه الناس والجنود والسلاح وقد أخرج أمير الكوفة عنها وصار هو اميرها يدعو الى محمد بن الحنفية

ثم ان المختار قويت شوكته ففتك بقتلة الحسين فضرب عنق عمر بن سعد وابنه وقال هذا بالحسين وابنه علىّ ووالله لو قتلت به ثلثى قريش ماوفوا بأنملة من أنامله ثم ان مروان أرسل عبيد الله بن زياد فى جيش كثيف فأرسل اليه المختار ابراهيم بن مالك الأشتر فقتله بنواحى الموصل وأرسل برأسه الى المختار فالقى فى القصر فيقال ان حية دقيقة تخللت رؤوس القتلى ودخلت فى فم عبيد الله فخرجت من منخره ثم دخلت فى منخره فخرجت من فيه

فعلت ذلك مراراً ثم ان عبد الله بن الزبير أرسل أخاه مصعبا وكان شجاعا الى المختار فقتله * ومات مروان بن الحكم فى سنة خمس وستين وبويع ابنه عبد الملك

(ثم ملك ابنه عبد الملك بن مروان) كان عبد الملك لبيباً عاقلا عالماً ملكا جباراً قوى الهيبة شديد السياسة حسن التدبير للدنيا فى ايامه نقل الديوان من الفارسية الى العربية واخترعت سياقة المستعربين وهو أول من نهى الرعية عن كثرة الحديث بحضرة الخلفاء ومراجعتهم وكانوا يتجرؤون عليهم وقد تقدم شرح ذلك وهو الذى سلط الحجاج بن يوسف على الناس وغزا الكعبة وقتل عبد الله بن الزبير واخاه مصعبا من قبله

ومن ظريف ماوقع فى ذلك أن عبد الملك لما أرسل يزيد بن معاوية الجيش لقتال أهل المدينة وغزو الكعبة امتعض عبد الملك من ذلك غاية الامتعاض وقال ليت السماء انطبقت على الارض فلما صار خليفة فعل ذلك وأشد منه فانه أرسل الحجاج لحصار بن الزبير وغزو مكة وكان عبد الملك قبل الخلافة احد فقهاء المدينة وكان يسمى حمامة المسجد لمداومته تلاوة القرآن فلما مات أبوه وبشر بالخلافة أطبق المصحف وقال هذا فراق بينى وبينك وتصدى لأمور الدنيا وقيل إنه قال يوما لسعيد بن المسيب ياسعيد قد صرت أفعل الخير فلا أسر به وأصنع الشر فلا أساء به فقال له سعيد بن المسيب الآن تكامل فيك موت القلب * فى أيامه قتل عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب أمير العراق

فأما عبد الله بن الزبير فانه كان قد اعتصم بمكة وبايعه أهل الحجاز وأهل العراق وكان عظيم الشح فلذلك لم يتم أمره فارسل الحجاج اليه فحاصره

بمكة ورمي الكعبة بالمنجنيق وحاربه وخذله أهله وأصحابه فدخل على أمه وقال لها ياأمت قد خذلني الناس حتى ولدى وأهلي ولم يبق معي غير نفر يسير ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك فقالت له انت اعلم بنفسك ان كنت تعلم انك على حق فامض لشأنك ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكت نفسك ومن معك وكم خلودك في الدنيا القتل أحسن فقال يا أمت انى أخاف ان قتلونى أن يمثلوا بي قالت يابني ان الشاة لايضرها سلخها بعد ذبحها وما زالت تحرضه بهذا وأشباهه حتى خرج فصمم على المناجزة فقتل وأرسل الحجاج بالبشارة الى عبد الملك وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين

وأما أخوه مصعب بن الزبير امير العراق فكان شجاعا جميلا جليل القدر ممدحا تزوج سكينة بنت الحسين عليه السلام وعائشة بنت طلحة وجمعها في داره وكانتا من أعظم النساء قدرا ومالا وجمالا فقال عبد الملك يوما لجلسائه من أشجع الناس قالوا انت قال لا لكن أشجع الناس من جمع في داره بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين يعني مصعبا ثم تجهز عبد الملك لقتال مصعب وودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فلما ودعها بكت فبكى جواريها لبكائها فقال عبد الملك قاتل الله كثير عزة كأنه شاهد هذا حين قال (طويل)

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهي نافعاً بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم ثار الى حرب مصعب فالتقيا بأرض دجيل فاقتتلوا قتالا شديداً

وقتل مصعب وذلك فى سنة إحدى وسبعين

وكان عبد الملك أديباً ذكياً فاضلا قال الشعبي ما ذاكرت أحداً الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك بن مروان فانى ما ذاكرته حديثاً الاّ زادنى فيه ولا شعراً الا زادنى فيه

وقيل لعبد الملك لقد أسرع اليك الشيب قال شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن وكان اللحن عندهم فى غاية القبح * ومن آرائه ما أشار به وهو صبيّ على مسلم بن عقبة المرىّ حين أرسله يزيد بن معاوية لقتال أهل المدينة فوصلها وبنو أمية محاصرون بها ثم أخرجوا فلما لقيهم مسلم بن عقبة استشار بعبد الملك بن مروان وكان حدثا فقال له الرأى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى أدنى نخلها نزلت فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من صفوه فاذا أصبحت مضيت وتركت المدينة على اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرّة مشرقاً ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد طلعت الشمس عليهم طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم بل يصيب أهل المدينة أذاها ويرون من إئتلاف بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله * وقال عبد الملك يوماً لجلسائه ما تقولون فى قول القائل (طويل)

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فوا حربا ممن يهيم بها بعدى

قالوا معنى حسن قال هذا ميت كثير الفضول ليس هذا معنى جيداً قالوا صدقت قال فكيف كان ينبغى أن يقول فقال رجل منهم كان ينبغى أن يقول (طويل)

أهيم بدعد ما حييت فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبد الملك هذا ميت ديوث قالوا فكيف ينبغى أن يكون قال كان ينبغى أن يقول (طويل)

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدى

قالوا أنت يا أمير المؤمنين اشعر الثلاثة * ولما اشتد مرضه قال اصعدونى على شرف فأصعدوه الى موضع عال فجعل يتنسم الهواء ثم قال يا دنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير وان كثيرك لحقير وان كنا منك لفى غرور وتمثل بهذين البيتين (خفيف)

إن تناقش يكن نقاشك يار ب عذاباً لا طوق لى بالعذاب

او تجاوز فأنت ربّ صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

ولما مات صلى عليه ابنه الوليد فتمثل هشام ابنه الآخر

(طويل)

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فقال له الوليد اسكت فأنت تتكلم بلسان شيطان الا قلت كما قال الآخر (طويل)

اذا سيد منا مضى قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين مضى الى مصر اميراً عليها فقال له ابسط بشرك وألن كنفك وآثر الرفق فى الامور فانه ابلغ بك وانظر حاجبك فليكن من خير اهلك فانه وجهك ولسانك ولا يقفن أحد ببابك الا اعلمك مكانه لتكون انت الذى تأذن له او ترده واذا خرجت الى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك وتثبت فى قلوبهم محبتك واذا انتهى اليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فانها تفتح مغاليق الامور واذا

سخطت على احد فأخر عقوبته فانك على العقوبة بعد التوقف عنه اقدر منك على ردها بعد امضائها * وكانت وفاته فى سنة ست وثمانين

(ثم ملك ابنه الوليد)

كان الوليد من افضل خلفائهم سيرة عند اهل الشأم بنى الجوامع جامع دمشق وجامع المدينة على ساكنها افضل السلام والمسجد الاقصى واعطى المجذمين ومنعهم من سؤال الناس واعطى كلّ مقعد خادماً وكلّ ضرير قائداً وفتح فى خلافته فتوحاً عظاماً * منها الاندلس وكاشغر والهند وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون فى زمانه فيسئل بعضهم بعضاً عن الابنية والعمارات * وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح فكان الناس فى خلافته اذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح * وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة فكان الناس اذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن وكم تقوم من الشهر

وهذا من خواصّ الملك التى تقدم شرحها * وكان لحاناً لا يحسن النحو فدخل عليه يوماً بعض الاعراب فتقرب اليه بقرابة بينه وبينه فقال له الوليد من ختنك وفتح النون فظن الاعرابىّ أنه يسئل عن الختان فقال بعض الاطباء فقال له سليمان أخوه انما يقول لك أمير المؤمنين من ختنك وضم سليمان النون فقال الاعرابىّ نعم ختنى فلان وذكر قرابته

وعاتبه أبوه عبد الملك على اللحن وقال له انه لا يلى العرب الا من يحسن كلامهم فدخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه فخرج أجهل مما كان يوم دخوله فلما بلغ ذلك عبد الملك قال قد أعذر

(ثم ملك بعده أخوه سليمان بن عبد الملك)

كانت أيامه ذات فتوح متوالية وكان غيوراً شديد الغيرة وكان نهماً فيقال ان الطباخ كان يأتيه بالشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكمه وكان فصيحاً بليغاً

* (وهاهنا موضع حكاية)*

(قال الأصمعى) كنت مرة أفاوض هرون الرشيد فجرى حديث أصحاب النهم فقلت كان سليمان بن عبد الملك شديد النهم وكان اذا أتاه الطباخ بشواء تلقاه فأخذه بأكمامه فقال الرشيد ما أعلمك يا أصمعى بأخبار الناس لقد اعترضت منذ أيام جباب سليمان فوجدت أثر الدهن فى أكمامها فظننته طيباً قال الأصمعى ثم أمر لى بجبة منها * وقيل ان سليمان لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر فى المرآة فقال انا الملك الفتى ثم نظرت اليه جارية من جواريه فقال ما تنظرين قالت (خفيف)

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى   غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما علمته فيك عيب   كان فى الناس غير انك فان

فلم تمض الا جمعة واحدة حتى مات وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين

(ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان)

لما مرض سليمان بن عبد الملك مرضته التى مات فيها عزم على ان يبايع لبعض أولاده فنهاه بعض أصحابه وقال له ياأمير المؤمنين انه مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستحفظ على الناس رجلا صالحاً فقال سليمان أستخير الله وأفعل ثم استشاره فى عمر بن عبد العزيز فأشار عليه به وأثنى عليه خيراً فكتب سليمان عهده الى عمر بن عبد العزيز وختمه ودعا أهل بيته وقال بايعوا لمن قد عهدت اليه فى هذا الكتاب ولم يعلمهم به فبايعوا ثم لما مات جمعهم ذلك الرجل الذى أشار عليه بعمر بن

عبد العزيز وقد كتم موت سليمان عنهم وقال لهم بايعوا مرة أخرى فبايعوا فلما رأى انه قد أحكم الامر أعلمهم بموت سليمان

وكان عمر بن عبد العزيز من خيار الخلفاء عالماً زاهداً عابداً تقياً ورعا سار سيرة مرضية ومضى حميداً هو الذى قطع السبّ عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه وكان بنو أمية يسبونه على المنابر قال عمر بن عبد العزيز كان أبى عبد العزيز بن مروان يمر فى خطبته يهذها هذا حتى اذا وصل الى ذكر أمير المؤمنين علىّ عليه السلام تتعتع قال فقلت له ذلك فقال يا بنىّ أدركت هذا منى قلت نعم قال يا بنيّ إعلم أن العوام لو عرفوا من علىّ بن أبى طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا الى ولده فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السبّ وجعل مكانه قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) * ومدحه الشعراء على ذلك * فممن مدحه على ذلك كثير عزة بقوله (طويل)

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضياً كلّ مسلم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... وأبدت لك الدنيا بخد ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت منها فى جبال أرومها ... ومن بحرها فى زاخر السيل مفعم

ورثاه الشريف الرضى الموسوىّ بقوله (خفيف)

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ... ـن فتى من أمية لبكيتك
انت انقذتنا من السب والشتـ ... ـم فلو امكن الجزاء جزيتك

غير أنى أقول إنك قد طبت وان لم يطب ولم يزك بيتك
دير سمعان لا عدتك الغوادى   خير ميت من آل مروان ميتك

واليه الاشارة بقولهم الأشجّ والناقص أعدلا بنى مروان

وسيجيء ذكر الناقص فيما بعد ان شاء الله تعالى * وكانت وفاته بدير سمعان فى سنة احدى ومائة

﴿ ثم ملك بعده يزيد بن عبد الملك ﴾

كان خليع بنى أمية شغف بجاريتين اسم احداهما سلامة واسم الاخرى حبابة فقطع معهما زمانه قالوا فغنت يوماً حبابة   (كامل)

بين التراقى واللهاة حرارة   ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فأهوى يزيد بن عبد الملك ليطير فقالت يا امير المؤمنين لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرنّ قالت فعلى من تدع الامة قال عليك وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك فما أسخنك * فانظر الى هذا والى أبيه عبد الملك حين خرج الى قتال مصعب بن الزبير وصدّته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فلم يلتفت اليها واستشهد بذينك البيتين وقد سبق شرح ذلك فى ترجمة عبد الملك بن مروان * ولم تكن دولة يزيد طائلة ولا وقع فيها من الفتوح والوقائع ما تحسن حكايته * وكانت وفاته فى سنة خمس ومائة عشقاً وصبابة

﴿ ثم ملك بعده أخوه هشام بن عبد الملك ﴾

كان هشام بخيلا شديد البخل إلا أنه كان غزير العقل حليما عفيفاً امتدّت ايامه وجرى فيها وقائع * فمن وقائعها الشهيرة قتل زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن ابى طالب عليه السلام

﴿ شرح مقتل زيد بن عليّ بن الحسين إمام الزيدية رضى الله عنه ﴾

كان زيد من عظماء أهل البيت عليهم السلام علما وزهداً وورعا وشجاعة وديناً وكرما وكان دائمًا يحدث نفسه بالخلافة ويرى انه أهل لذلك وما زال هذا المعنى يتردّد فى نفسه ويظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك فاتهمه بوديعة لخالد بن عبد الله القسريّ امير الكوفة فحمله الى يوسف بن عمر اميرها فى ذلك العصر فاستحلفه أن ما لخالد عنده مالا وخلى سبيله فخرج ليتوجه الى المدينة فتبعه اهل الكوفة وقالوا له أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة الف سيف نضرب بها دونك وليس عندنا من بنى أمية الا نفر قليل لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم باذن الله ورغبوه بهذا وأمثاله فقال لهم يا قوم انى أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين عليه السلام ما فعلتم وأبى عليهم فقالوا نناشدك الله إلا ما رجعت ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الأيمان والعهود والمواثيق ما تثق به فانا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية فلم يزالوا به حتى ردوه فلما رجع الى الكوفة أقبلت الشيعة تختلف اليه يبايعونه حتى أحصى ديوانه خمسة عشر الفاً من أهل الكوفة سوى اهل المداين والبصرة وواسط والموصل واهل خراسان والريّ وجرجان والجزيرة واقاموا بالكوفة شهوراً * ثم لما تم الامر لزيد وخفقت الألوية على رأسه قال الحمد لله الذى أكمل لي دينى والله انى كنت أستحيي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أرد عليه الحوض غداً ولم آمر فى امته بمعروف ولم أنه عن منكر فلما اجتمع الناس مع زيد أظهر امره ونابذ من خالفه فجمع له يوسف بن عمر جموعا وبرز اليه وعبى كل منهما أصحابه

والتقى الفريقان وجرى بينهم قتال شديد* فتفرق اصحاب زيد عنه وخذلوه فبقى فى شرذمة يسيرة فأبلى هو رضى الله عنه بلاء حسناً وقاتل قتالا شديدا فجاءه سهم فأصاب جبينه فطلب حداداً فنزع السهم من جبينه فكانت فيه نفسه فمات رضى الله عنه من ساعته فحفر له اصحابه فى ساقية ودفنوه فيها وأجروا الماء على قبره خوفا أن يمثلوا به فلما استظهر يوسف بن عمر أمير الكوفة تطلب قبر زيد فلم يعرفه فدله عليه بعض العبيدفنبشه وأخرجه فصلبه فبقى مدة مصلوباً ثم احرق وذرى رماده فى الفرات رضى الله عنه وسلم عليه ولعن ظالميه وغاصبيه حقه فلقد مضى شهيداً مظلوما

وفى أيامه انبثت دعاة بنى العباس فى البلاد الشرقية وتحركت الشيعة خفية وغزت جنود هشام الترك بما وراء النهر * وكانت لجنوده الغلبة ثم بعد ذلك قتل خاقان

(ثم ملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

كان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم منهمكا فى اللهو والشرب وسماع الغناء وكان شاعراً محسناً له أشعار حسنة فى العتاب والغزل ووصف الخمر فمن جيد شعره ما كتبه الى هشام بن عبد الملك وقد عزم على خلعه وكان هشام لما رأى استهتار الوليد بالمعاصى وعكوفه على اللذات طمع فى الخلافة لابنه وأراده على أن يخلع نفسه وتناوله بلسانه وتهدده فكتب اليه الوليد بن يزيد (طويل)

كفرت يدا من منعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جاهداً فى قطيعتى ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ماتبنى
أراك على الباقين تجنى ضغينة ... فياويحهم إن مت من شر ماتجنى

كأنى بهم يوما وأكثر قولهم ألا ليت أنا حين يا ليت لايغنى

وقد سرق الناس معانيه وأودعوها أشعارهم * فممن سرق معانيه أبو نواس أخذ معانيه فى وصف الخمر

(ومما يحكى عن الوليد بن يزيد) أنه استفتح فألا فى المصحف فخرج (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فألقاه ورماه بسهام وقال (وافر)

تهــددنى بجبار عنيــد نعم انا ذاك جبار عنيــد

اذا ماجئت ربك يوم بعث فقل يارب خرقنى الوليد

(فلم يلبث بعد هــذا إلا يسيراً حتى قتل) وكان السبب فى قتله أنه كان قبل الخلافة على ماوصـفنا من اللهو والشرب وانتهاك حرمات الله عز وجل فلما أفضت اليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكا فى اللذات واستهتاراً بالمعاصى وضم الى ذلك ما ارتكبه من اغضاب أكابر اهله والاساءة اليهم وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته وهجموا عليه وقتلوه وكان المتولى لذلك يزيد ابن الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ست وعشرين ومائة

(ثم ملك بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك)

كان يظهر التنسك وكان يقال أنه قدرى وسمى الناقص لانه نقص من اعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبدالملك فسمى الناقص لهذا السبب* ولما بويع بالخلافة خطب الناس وقال لهم كلاما حسناً انا مثبته هاهنا لحسنه خطبهم وذكر الوليد بن يزيد والحاده وقال سيرته كانت خبيثة وكان منتهكا لحرمات الله فقتلته ثم قال أيها الناس ان لكم على أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة ولا اكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أنقل مالا من بلد الى بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل منه نقلته الى البلد الآخر الذى

يليه ولا أغلق بابى دونكم ولكم أعطياتكم فى كل سنة وأرزاقكم كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فان وفيت لكم بما قلت فعليكم بالسمع والطاعة وحسن الموازرة وان لم أف فلكم أن تخلعونى الا أن أتوب وان كنتم تعلمون ان أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ماقد بذلت لكم وأردتم أن تبايعوه فانا أول من يبايعه معكم انه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق

أقول ان هذا الكلام حسن بالنسبة الى ذلك الزمان والى اصطلاح أهله فان هذه الشرائط هى التى كانت معتبرة عندهم فى استحقاق الرئاسة فأما فى هذا العصر فلو افتخر ملك من الملوك بأنه لا يكرى نهرا ولا يضع حجرا على حجر او ندب رعيته الي تمليك غيره لعد سفيها ولكان جديرا فى اصطلاحهم بان يملك غيره

وفى تلك الايام شرع حبل بنى أمية يضطرب وشرعت الدولة العباسية تنبع وانبعثت الدعاة فى الأمصار * وكانت وفاته فى سنة ست وعشرين ومائة

﴿ ثم ملك بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ﴾

كانت تلك الايام أيام فتن وكان حبل بنى أمية قد اضطرب فلما مات يزيد ابن الوليد بن عبد الملك بويع أخوه ابراهيم بيعة لم تكن بطائل فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالامارة وناس ربما لايسلمون عليه بواحدة منهما واضطرب أمره فمكث سبعين يوما وسار اليه مروان بن محمد بن مروان فخلعه وبويع له بالخلافة وجلس على سرير المملكة وذلك بعد حروب وفتن ووقائع يشيب منها الطفل

﴿ ثم ملك بعده مروان بن محمد بن مروان ﴾

هو آخر خلفاء بنى أمية وعنه انتقلت الدولة الى بنى العباس ويقال له

الجعدي ويقال له الحمار وانما لقب بالحمار قالوا الصبره فى الحرب وكان شجاعاً صاحب دهاء ومكر وكانت أيامه أيام فتن وهرج ومرج ولم تطل أيامه حتى هزمته الجيوش العباسية وتبعته الى بلاد مصر فقتل بقرية اسمها بوصير من قرى الصعيد وذلك سنة اثنين وثلاثين ومائة * فى أيامه خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

لما اضطرب حبل بنى أمية وبويع مروان ثارت الفتن بين الناس واختلفت كلمتهم فكل يرى رأيا ويذهب مذهبا وكان بالكوفة رجل من ولد جعفر الطيار عليه السلام اسمه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب وكان فاضلا شاعراً فحدثته نفسه بالامر ورأى أهل الكوفة اختلاف الامور بدمشق واضطراب حبل بنى أمية فحضروا الى هذا عبد الله وبايعوه واجتمعوا حوله خلائق فبرز اليهم أمير الكوفة يومئذ فقاتلهم بمن معه وتصابر الفريقان مدة . ففى آخر الامر طلب أهل الكوفة لانفسهم ولعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الامان من أمير الكوفة ليتوجهوا أين شاؤا من بلاد الله وكان أمير الكوفة ومن معه قد ملوا من القتال فأعطاهم الامان فتوجه عبد الله الى المداين وعبر دجلة وغلب على حلوان وما قاربها ثم توجه الى بلاد العجم فغلب على تلك الجبال وهمذان واصفهان والرى والتحق به قوم من بنى هاشم وبقى على ذلك مدة

وكان أبو مسلم الخراسانى قد قويت شوكته فسار الى هذا عبد الله فقتله ثم أظهر الدولة العباسية * ثم ظهرت الدولة العباسية واشتهرت دعوتها

﴿ ذكر انتقال الملك من بنى أمية الى بنى العباس ﴾

لابد قبل الخوض فى ذلك من مقدمة يشرح فيها ابتداء أمر أبى مسلم الخراسانى فانه رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح

﴿ شرح ابتداء أمر أبى مسلم الخراسانى ونسبه ﴾

أما نسبه ففيه اختلاف كثير لافائدة فى استقصاء القول فيه * فقيل هو حر من ولد بزرجمهر وانه ولد باصفهان ونشأ بالكوفة فاتصل بابراهيم الامام ابن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس فغير اسمه وكناه بأبى مسلم وثقفه وفقهه حتى كان منه ما كان

وقيل هو عبد تنقل فى الرق حتى وصل الى ابراهيم الامام فلما رآه أعجبه سمته وعقله فابتاعه من مولاه وثقفه وفهمه وصار يرسله الى شيعته وأصحاب دعوته بخراسان وما زال على ذلك حتى كان من الامر ما كان

وأما هو فانه لما قويت شوكته ادعى انه بن سليط بن عبد الله بن العباس ولهذا سليط خبر هذا موضع شرحه على سبيل الاختصار

كان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة من المرات ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبداً فوطئها فولدت منه غلاما سمته سليطاً ثم ألصقته بعبد الله بن العباس وأنكره عبد الله ولم يعترف به ونشأ سليط وهو أكره الخلق الى عبد الله بن عباس فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه وأعجب ذلك بنى أمية ليغضوا من علىّ بن عبد الله بن عباس فأعانوه وأوصوا قاضى دمشق فى الباطن فمال اليه فى الحكم وحكم له بالميراث وجرت فى ذلك خطوب ليس هذا موضعاً لشرحها فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته انه من ولد هذا سليط ثم ترسل أبو مسلم لابراهيم الامام الى خراسان ودعا اليه

سراً وما زال على ذلك حتى ظهرت الدعوة وتم الامر

« مقدمة أخرى قبل الخوض فيها »

قال الله تعالى (وتلك الايام نداولها بين الناس)

وعزى بعض الحكماء بعض الملوك عن مملكة خرجت عنه فقال لو بقيت لغيرك لما وصلت اليك

واعلم علمت الخير ان هذه دولة من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة ثم طرت عليها دول كدولة بنى بويه وكانت عظمتها كما علمت وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة فناخسرو وكدولة بنى سلجوق وفيها مثل طغرلبك وكالدولة الخوارزمشاهية وفيها مثل علاء الدين وجريدة عسكره مشتملة على اربع مائة ألف مقاتل وكدولة الفاطميين بمصر وقد وجهوا عسكراً صحبة عبد من عبيدهم اسمه جوهر لم ير عسكر أكشف منه حتى قال فيه شاعرهم وهو محمد بن هانئ المغربي (طويل)

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر ... تخب المطايا فيه عشراً وتوضع

ولخوارج خرجوا فى أثنائها بجموع كثيرة وحشور عظيمة كلّ ذلك ولم يزل ملكهم ولم تقو دولة على إزالة ملكهم ومحو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحتشد ويجر العساكر العظيمة حتى يصل الى بغداذ فاذا وصل التمس الحضور بين يدى الخليفة فاذا حضر قبل الارض بين يديه وكان قصارى ما يتمناه أن يوليه الخليفة ويعقد له لواء ويخلع عليه فاذا فعل الخليفة ذلك قبل الملك الارض بين يديه ومشى فى ركابه راجلا والغاشية

تحت إبطه كما فعل مسعود السلطان مع المسترشد فان المسترشد وقعت بينه وبين مسعود منابذة أدت الى محاربة فخرج المسترشد بعسكر كثيف وصحبته جميع أرباب الدولة فالتقى هو والسلطان مسعود بظاهر مراغة فاقتتلوا ساعة ثم انكشف الغبار وقد انهزم أصحاب المسترشد واستولى عسكر مسعود فانجلى الغبار والخليفة ثابت على ظهر فرسه وفى يده المصحف وحواليه القراء والقضاة والوزراء لم ينهزم أحد منهم وانما انهزم المقاتلون فلما نظر السلطان مسعود اليهم أرسل من قاد دابة الخليفة وأدخله الى خيمة قد نصبت له وأخذ أرباب دولته فحبسهم فى قلعة قريبة من تلك النواحى ثم غنموا جميع ما كان فى عسكر الخليفة وبعد أيام اجتمع السلطان بالخليفة وعاتبه على فعله ثم تقرر بينهم أمر الصلح فاصطلحا وركب الخليفة الى مخيم عظيم ضربه لاجله السلطان فلما ركب الخليفة أخذ السلطان مسعود الغاشية ومشى فى ركابه ثم جرى من قتل المسترشد ما نذكره بعد هذا * فهذه الدول جميعها طرت على دولة بنى العباس ولم تقو نفس أحد على إزالة ملكهم ومحو آثارهم وكانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أحد آخر من العالم حتى ان السلطان هولاكو لما فتح بغداذ وأراد قتل الخليفة أبى أحمد عبد الله المستعصم ألقوا الى سمعه انه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات فاستشعر لذلك ثم سأل بعض العلماء فى حقيقة الحال عن ذلك فذكر ذلك العالم له الحق فى هذا وقال ان علىّ بن أبى طالب كان خيراً من هذا الخليفة باجماع العالم ثم قتل ولم تجر هذه المحذورات وكذلك الحسين وكذلك أجداد هذا الخليفة قتلوا وجرى عليهم كل مكروه وما احتجبت الشمس ولا امتنع القطر فحين سمع ذلك زال ما كان قد حصل فى خاطره واعتذر ذلك العالم عن هذا

القول بأن هيبة السلطان كانت عظيمة وسطوته مرهوبة فما تجاسرت أن أقول بين يديه غير الحق * فهذا كان اعتقاد الناس فى بنى العباس وما قويت دولة من الدول على إزالة مملكتهم ومحو أثرهم سوى هذه الدولة القاهرة نشر الله احسانها وأعلى شأنها

فان السلطان هولاكو لما فتح بغداذ وقتل الخليفة محا أثر بنى العباس كل المحو وغير جميع قواعدهم حتى إن الذى كان يتلفظ باسم بنى العباس كان على خطر من ذلك

« وهاهنا موضع حكاية »

حدثني نصر المليسىّ الحبشى أحد خدام السلطان مدّ الله معدلته وأعلى فى الدارين درجته وكان قبل ذلك للخليفة المستعصم قال لما ملكت بغداذ أخرجونى وانا صغير فى جملة الخدم فلازمنا خدمة الدركاه أياما فلما بعدنا عن بغداذ أحضرنا السلطان هولاكو يوما بين يديه وكان علينا زىّ دار الخلافة فقال انتم كنتم قبل هذا للخليفة وانتم اليوم لى فينبغي انكم تخدمون خدمة جيدة بنصيحة وتزيلون من قلوبكم اسم الخليفة فذاك شىء كان ومضى وإن آثرتم تغيير هذا الزىّ والدخول فى زينا كان أصلح قال فقلنا السمع والطاعة ثم غيرنا زينا ودخلنا فى زيهم

« شرح ابتداء الدولة العباسية »

روى أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه البشارة بدولة هاشمية فزعم ناس أنه قال تكون لرجل من ولدى وزعم ناس انه عليه الصلاة والسلام قال لعمه العباس رضى الله عنه وسلم عليه إنها تكون فى ولدك وانه حين أتاه بابنه عبد الله أذن فى أذنه وتفل

ن فيه وقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ثم دفعه الى ابيه وقال له خذ اليك أبا الاملاك فمن زعم هذا الزعم

قال ان الدولة العباسية هى الدولة المبشر بها وكانت دولة بنى أمية مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة مستهترة بالمعاصى والقبائح فكان الناس من أهل الامصار ينتظرون هذه الدولة صباح مساء . وكان محمد ابن علىّ بن أبى طالب عليه السلام وهو المعروف بابن الحنفية قد اعتقد فيه الناس أنه صاحب الدولة بعد قتل اخيه الحسين عليه السلام ماعدا الامامية فان اعتقادهم إمامة علىّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام وإمامة بنيه واحد بعد واحدالى القائم محمد بن الحسن عليه السلام

فلما مات محمد بن الحنفية عليه السلام أوصى الى ابنه ابى هاشم عبد الله وكان أبو هاشم من رجال اهل البيت عليهم السلام فاتفق أنه قصد دمشق وافداً على هشام بن عبد الملك فبرّه هشام ووصله ثم رأى من فصاحته ورئاسته وعلمه ما حسده عليه وخاف منه فبعث اليه وقد رجع الى المدينة من سمه فى لبن فلما علم بذلك عدل الى محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس وكان نازلا بالحميمة من أرض الشأم فأعلمه أنه ميت وأوصى اليه وكان صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم اليه وأوصاه فيهم ثم مات رضى الله عنه فتهوّس محمد بن علىّ بن عبد الله بالخلافة منذ يومئذ وشرع فى بث الدعاة سراً وما زال الامر على ذلك حتى مات وخلف أولاده وهم جماعة منهم ابراهيم الامام والسفاح والمنصور . فقام ابراهيم الامام بالامر بعد أبيه واستكثر من ارسال الدعاة الى الاطراف خصوصاً الى خراسان فانهم كانوا أشد وثوقاً بأهل خراسان من غيرهم من أهل الامصار

أما أهل الحجاز فقليلون وأما اهل الكوفة والبصرة فكان أهل البيت مذعورين منهم لما جرى منهم على أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام من الخذلان والغدر وسفك الدم وأما اهل الشأم ومصر فهواهم فى بنى أمية وحب بنى أمية قدرسخ فى قلوبهم فلم يبق لهم من يسكنون اليه من اهل الامصار الا اهل خراسان

وكان يقال ان الرايات السود الناصرة لأهل البيت تخرج من خراسان فأرسل ابراهيم الامام جماعة من الدعاة الى خراسان وكانت مشايخها ودهاقينها فأجابوه ودعوا اليه سراً وأرسل فى آخر الامر أبا مسلم فمضى الى هناك وجمع الجموع كل ذلك والامر سر والدعوة مخفية لم تظهر بعد

فلما كانت أيام مروان الحمار بن محمد بن مروان آخر خلفاء بنى أمية كثر الهرج والمرج ونمى الشر وثارت الفتن واضطرب حبل بنى أمية واختلفت كلمتهم وقتل بعضهم بعضاً أظهر ابو مسلم دعوة بنى العباس واجتمع اليه كل من له فى ذلك رأى من اهل خراسان وجرّ عسكراً كثيفاً ليقاتل به أمير خراسان وهو نصر بن سيار فلما بلغ نصرا حال ابى مسلم وجموعه راعه ذلك فكتب الى مروان الحمار (وافر)

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فكتب اليه مروان ان الحاضر يرى ما لا يرى الغائب فاحسم أنت هذا الداء الذى قد ظهر عندك فقال نصر بن سيار لأصحابه أما صاحبكم فقد أعلمكم

انه لا نصر عنده وتواترت الاخبار الى مروان بهذا الامر وحبله كلما جاء اضطرب وأمره فى كل يوم يضعف ثم بلغه أن الذى تدعو الدعاة اليه هو ابراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس اخو السفاح والمنصور فأرسل اليه وقبض عليه وأحضره الى حرّان فحبسه فيها ثم سمه فى الحبس فمات

ثم جرت بين ابى مسلم وبين نصر بن سيار وغيره من امراء خراسان حروب ووقائع كانت الغلبة فيها للمسودة وهم عسكر ابى مسلم وانما سموا المسودة لان الزىّ الذى اختاروه لبنى العباس هو لون السواد فانظر الى قدرة الله تعالى وانه اذا أراد امراً هيأ اسبابه واذا اراد أمراً فلا مرد لامره

لما قدّر انتقال الملك الى بني العباس هيأ لهم جميع الاسباب . فكان ابراهيم الامام بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس بالحجاز او بالشأم جالساً على مصلاه مشغولا بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل واهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لا يعرفه ولا يفرق بين اسمه وشخصه وانظر الى ابراهيم الامام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز او بالشأم وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لا ينفق عليهم مالا ولا يعطى احدهم دابة ولا سلاحا بل هم يجبون اليه الاموال ويحملون اليه الخراج فى كل سنة

ولما قدر الله تعالى خذلان مروان وانقراض ملك بنى أمية كان مروان خليفة مبايعاً ومعه الجنود والاموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرّقون عنه وأمره يضعف وحبله يضطرب فما زال يضمحل حتى هزم وقتل فتعالى الله

ولما غاب ابو مسلم على خراسان واستولى على كورها وقويت شوكته

سار الى العراق بالجنود وكان لما قبض مروان على ابراهيم الامام وحبسه بحران خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم فهربوا وقصدوا الكوفة وكان لهم بها شيعة منهم ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال وكان من كبار الشيعة بالكوفة وصار بعد ذلك وزيراً للسفاح ثم قتله السفاح وسيرد ذكره عند ذكر الوزراء. فأخلى لهم ابو سلمة الخلال داراً بالكوفة وأمر لهم بها وتولى خدمتهم بنفسه وكتم أمرهم واجتمعت الشيعة اليه وقويت شوكتهم فوصل ابو مسلم بالجنود من خراسان الى الكوفة فدخل على بني العباس وقال أيكم ابن الحارثية فقال له المنصور هذا وأشار الى السفاح وكانت أمه حارثية فسلم ابو مسلم عليه بالخلافة وخرج السفاح ومعه اخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه الى الجامع فصلى وصعد المنبر وأظهر الدعوة وخطب الناس وبويع بالخلافة وذلك في سنة مائة واثنتين وثلاثين . وهذا أول دولة بني العباس وآخر دولة بني أمية

ثم عسكر السفاح ظاهر الكوفة ووفد عليه الناس من الامصار يبايعونه فلما اجتمع عنده الناس وقويت شوكته ندب رجلا من أقاربه لقتال مروان الحمار فانتدب لذلك عمه عبد الله بن علي وكان من رجال بني العباس فتوجه عبد الله بن علي الى مروان فلقيه بالزاب ومع مروان مائة وعشرون الف مقاتل ولا يكون مع عبد الله بن علي الا الأقل من ذلك فصنع الله تعالى لعبد الله بن علي أنواع الصنع وخذل مروان كل الخذلان فانظر واعتبر

« شرح كيفية الوقعة بالزاب وخذلان مروان وانهزامه »

لما التقى على الزاب مروان الحمار وعبد الله بن علي قال مروان لبعض أصحابه ان غابت شمس هذا النهار ولم يقاتلونا فالخلافة فينا ونحن نسلمها في آخر

الزمان الى المسيح عليه السلام وأمر أصحابه بالكف عن القتال وقصد أن ينقضى النهار ولا يقع قتال ثم أرسل الى عبد الله بن علىّ يسأله الموادعة فقال عبد الله كذب لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل ان شاء الله تعالى فكان من الاتفاقات الطريفة أن صهر مروان حمل على قطعة من عسكر عبد الله بن علىّ فردّه مروان وشتمه فلم يقبل ونشب القتال فأمر عبد الله بن علىّ أصحابه بالمناجزة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ونادى عبد الله بن علىّ يا رب حتى متى نقتل فيك ونادى يا أهل خراسان يالثارات ابراهيم الامام واشتد القتال فصار مروان اذا أمر طائفة من العسكر بشىء قالوا قل للطائفة الأخرى وبلغ من أمره انه قال لصاحب شرطته انزل الى الارض فقال لا والله لا ألقى نفسى فى التهلكة فقال له مروان لأفعلن بك وتهدده فقال وددتّ أنك تقدر على ذلك ثم رأى مروان فترة أصحابه ومناجزة أصحاب عبد الله بن علىّ فوضع مروان ذهباً كثيراً قدام الناس وقال أيها الناس قاتلوا وهذا المال لكم فصار الناس يمدون أيديهم الى المال ويتناولون منه شيئاً شيئاً فقال بعض الناس لمروان ان الناس قدموا أيديهم الى المال ولا نأمن انهم يذهبون به فأمر ابنه أن يسير فى أواخر العسكر فمن وجد معه شيئاً من المال قتله فرجع ابنه برايته ليمتهد ما قال فرأى الناس الراية راجعة فنادوا الهزيمة الهزيمة فانهزم الناس ومروان أيضاً وعبروا دجلة فكان من غرق أكثر ممن قتل * وتلا عبد الله ابن علىّ (واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) ثم انتقل الى عسكر مروان وغنم ما فيه وأقام به سبعة أيام

« شرح مقتل مروان الحمار »

ثم ان مروان مضى منهزما حتى وصل الموصل فقطع أهلها الجسر

ومنعوه من العبور فنادى أصحابه يا اهل الموصل هـذا أمير المؤمنين يريد العبور فناداهم أهل الموصل كذبتم أمير المؤمنين لا يفر وسبه اهل الموصل وقالوا له الحمد لله الذى أزال سلطانكم وذهب بدولتكم الحمد لله الذى أتانا بأهل بيت نبينا * فلما سمع ذلك سار الى بلد وعبر دجلة وأتى حرّان ثم منها الى دمشق ثم منها الى مصر وتبعه عبد الله بن علىّ ثم أرسل خلفه بعض أصحابه فرآه بقرية من قرى الصعيد اسمها بوصير فخرج اليهم ليلا مروان وقاتلهم فقال لجند بنى العباس أميرهم إن أصبحنا ورأوا قلتنا أهلكونا ولم ينج منا احد فناجزوا القوم وكسر جفن سيفه وفعل أصحابه مثله وحملوا عليهم فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه فصرعه وصاح صائح صرع أمير المؤمنين فابتدروه فسبق اليه رجل من أهل الكوفة فاحتزّ رأسه ثم نفض الرأس وقطع لسانه فأكلته هرة كانت هناك ثم حمل الرأس الى السفاح فوصل اليه وهو بالكوفة فلما رآه سجد ثم رفع رأسه وقال الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ولم يبق ثأرى قبلك وتمثل (بسيط)

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم صفا الملك للسفاح

﴿ الدولة العباسية ﴾

﴿ وهى التي تسلمت الملك من الدولة الاموية ﴾

واعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة خصوصاً فى أواخرها فان المتأخرين منهم بطلوا قوة الشدة والنجدة وركنوا الى الحيل والخدع * وفى

مثل ذلك يقول كشاجم مشيراً الى موادعة أصحاب السيوف وعداوة أصحاب الاقلام ومقاتلة بعضهم لبعض (طويل)

هنيئاً لاصحاب السيوف بطالة تقضى بها أوقاتهم فى التنعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقداً فى نجاده حساماً سليم الحد لم يتثلم
ولكن ذوو الاقلام فى كل ساعة سيوفهم ليست تجف من الدم

وفيها يقول بعض الشعراء حين قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات (وافر)

يكاد القلب من جزع يطير اذا ما قيل قد قتل الوزير
أمير المؤمنين فتلت شخصا عليه رحا كم كانت تدور
فمهلا يا بنى العباس مهلا لقد كويت بغدركم الصدور

إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها فانتشر الجبر . واضطرب الامر . وانتقلت الدولة وسيرد ذلك فى موضعه مشروحاً ان شاء الله تعالى * وهذا أوان الشروع فى ذكر خليفة خليفة

أول خليفة ملك منهم السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب * بويع فى سنة مائة واثنتين وثلاثين

كان كريماً حليماً وقوراً عاقلا كاملا كثير الحياء حسن الأخلاق ولما بويع

واستوسق له الامر تتبع بقايا بنى أمية ورجالهم فوضع السيف فيهم * وفى بعض أيامه كان جالساً فى مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك وقد أكرمه السفاح فدخل عليه سديف الشاعر فانشده (خفيف)

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال قتلتنى يا شيخ ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل ودخل عليه شاعر آخر وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا من بنى أمية فأنشده (خفيف)

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس

لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس

ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسى

ولقد غاظنى وغاظ سوائى قربهم من نمارق وكراسى

أنزلوها بحيث أنزلها اللـــه بدار الهوان والاتعاس

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس

والقتيل الذى بحرّان أضحى ثاويا بين غربة وتناس

فالتفت أحدهم الى من بجانبه وقال قتلنا العبد ثم امر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فاكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتو جميعاً

وبالغ بنو العباس فى استئصال شأفة بنى أمية حتى نبشوا قبورهم بدمشق فنبشوا قبر معاوية بن ابى سفيان رضى الله عنه فلم يجدوا فيه الا خيطاً مثل الهباء

ونبشوا قبر يزيد فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد ولما قتل رجالهم واستصفى أموالهم قال

(بسيط)

بنى أميــة قد افنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالاول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عـثرتكم ... بليث غاب الى الاعداء نهاض
ان كان غيظى لفوت منكم فلقد ... رضيت منكم بما ربى به راض

ثم لم تطل مدة السفاح حتى مات بالانبار فى سنة مائة وست وثلاثين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لا بد قبل الخوض فى ذلك من تقديم كلمات فى هذا المعنى فأقول

الوزير وسيط بين الملك ورعيته فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والامانة والصدق رأس ماله * قيل اذا خان السفير . بطل التدبير . وقيل ليس لمكذوب رأى والكفاءة والشهامة من مهماته والفطنــة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاماً ليستميل بذلك الاعناق وليكون مشكوراً بكل لسان * والرفق والاناة والتثبت فى الامور والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لا بد له منه

لما استوزر الناصر وزيره مؤيد الدين محمد بن برز القمىّ خلع عليه خلع الوزارة ثم جلس القمىّ فى منصب الوزارة والناس جميعاً بين يديه فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف فى قدر الخنصر بخط يد الناصر فقرئ على الجمع فكان فيه * باسم الله الرحمن الرحيم محمد بن برز القمىّ نائبنا فى البلاد والعباد فمن أطاعه فقد أطاعنا ومن أطاعنا فقد أطاع الله ومن أطاع الله أدخله الجنــة

ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله أدخله النار * فنبل القمي بهذا التوقيع في عيون الناس وجلت مكانته وقامت له الهيبة في الصدور * والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس *فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار بذوي الحجى والآراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى وزير فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً

قال أهل اللغة الوزر الملجأ والمعتصم والوزر الثقل فالوزير إما مأخوذ من الوزرفيكون معناه أنه يحمل الثقل أو يكون مأخوذاً من الوزر فيكون المعنى أنه يرجع ويلجأ الى رأيه وتدبيره وكيف تقلبت لفظة وزر كانت دالة على الملجأ والثقل

أول وزير وزر لأول خليفة عباسي حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال كان مولى لبني الحارث بن كعب * قيل في تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه أحدها ان منزله بالكوفة كان قريباً من محلة الخلالين وكان يجالسهم فنسب اليهم كما نسب الغزالي الى الغزالين وكان يجالسهم كثيراً *ورأيت في تسمية الغزالي وجهاً آخر قيل كان من رأيه الصدقة على النساء العجائز اللواتي يحضرن الى دار الغزل ليبعن غزلهن فيرى ضعفهن وفقرهن ونزارة مكسبهن فيرق لهن فيتصدق عليهن كثيراً ويأمر بالصدقة عليهن فنسب الى ذلك وثانيها أنه كان له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب الى ذلك وثالثها انها نسبة الى خلل السيوف وهي أغمادها

كان ابو سلمة من مياسير أهل الكوفة وكان ينفق ماله على رجال

الدعوة وكان سبب وصلته الى بنى العباس انه كان صهراً لبكير بن ما هان وكان بكير بن ما هان كاتباً خصيصاً بابراهيم الامام فلما أدركته الوفاة قال لابراهيم الامام ان لى صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضى فى القيام بأمر دعوتكم ثم مات فكتب ابراهيم الامام الى أبى سلمة يعلمه بذلك ويأمره بما يريد من أمر الدعوة وقام أبو سلمة بأمر دعوتهم قياماً عظيما فلما سبر أحوال بنى العباس عزم على العدول عنهم الى بنى علىّ عليه السلام فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وعبد الله المحض ابن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام وعمر الأشرف بن زين العابدين عليه السلام وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد الصادق فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين وان لم يجب فالق عبد الله المحض فان أجاب فأبطل كتاب عمر وان لم يجب فالق عمر فذهب الرسول الى جعفر بن محمد عليه السلام أولا ودفع اليه كتاب أبى سلمة فقال مالى ولابى سلمة وهو شيعة لغيرى فقال له الرسول اقرإ الكتاب فقال الصادق عليه السلام لخادمه أدن السراج منى فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه قال قد رأيت الجواب ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال الى الصادق عليه السلام وقال هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه الى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له الصادق عليه السلام ومتى صار أهل خراسان شيعتك أأنت وجهت اليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبد الله كأن هذا الكلام منك لشىء فقال الصادق قد

علم الله انى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أذخره عنك فلا تمن نفسك الاباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض وأما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه ثم غلب أبو سلمة على رأيه وعملت الدعوة عملها وبويع السفاح ونم الخبر اليه فحقدها على أبى سلمة وقتله

﴿ ذكر شيء من سيرته ومقتله ﴾

كان أبو سلمة سمحاً كريماً مطعاما كثير البذل مشغوفا بالتنوق فى السلاح والدواب فصيحا عالما بالأخبار والاشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة فلما بويع السفاح استوزره وفوض الأمور اليه وسلم اليه الدواوين ولقب وزير آل محمد وفى النفس أشياء وخاف السفاح إن هو قتل وزيره أبا سلمة أن يستشعر أبو مسلم ويتنمر فتلطف لذلك وكتب الى ابى مسلم كتابا يعلمه فيه بما عزم عليه ابو سلمة من نقل الدولة عنهم ويقول لهم انى قد وهبت جرمه لك وباطن الكتاب يقتضى تصويب الرأى فى قتل ابى سلمة وأرسل الكتاب مع أخيه المنصور فلما قرأ ابو مسلم الكتاب فطن لغرض السفاح فأرسل قوما من أهل خراسان فقتلوا أبا سلمة فقال الشاعر (كامل)

إن الوزير وزير آل محمد ... أودى فمن يشناك كان وزيراً
إن السلامة قد تبين وربما ... كان السرور بما كرهت جديراً

﴿ انقضت وزارة ابى سلمة ﴾

اختلفوا فيمن وزر للسفاح بعده فقيل أبو الجهم وقيل عبد الرحمن فاما أبو الجهم فوزر للسفاح مدة فلما أفضت الخلافة الى المنصور كان فى نفسه

منه أمور فسمه فى سويق اللوز فلما أحس بالسم قام ليذهب فقال له المنصور الى أين قال الى حيث بعثتنى يا امير المؤمنين

وأما الصولى فقال إن السفاح استوزر بعد أبى سلمة خالد بن برمك

﴿ ذكر وزارة خالد بن برمك وشىء من سيرته ﴾

هذا خالد هو جد البرامكة وفى تلك الايام نبغت الدولة البرمكية وامتدت الى أن انقضت فى أيام الرشيد

وكان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية فاضلا جليلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح وخف على قلبه وكان يسمى وزيراً وقيل إن كل من استوزر بعد ابى سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً تطيراً مما جرى على ابى سلمة ولقول من قال (كامل)

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً

قالوا فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا

كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء * قيل إن السفاح قال له يوما ياخالد مارضيت حتى استخدمتني فقزع خالد وقال كيف ياامير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك فضحك وقال إن ريطة ابنتى تنام مع ابنتك فى مكان واحد فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما فارده عليهما فقبل خالد يده وقال مولى يكتسب الأجر فى عبده وأمته * وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك ومدحه الشعراء وانتجعه الناس وكان الوافدون قبل ذلك يسمون سؤالا فقال خالد إنى استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الاشراف والاكابر فسماهم الزوار وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجل أصلتنا أم تسميتنا * وقيل إن أول من فعل ذلك المساور بن النعمان

في دولة بنى أمية

ولما بنى المنصور مدينة بغداد عظمت النفقة عليه فأشار عليه ابو ايوب الموريانى بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك فقال لا تفعل يا امير المؤمنين فانه آية الاسلام فاذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله الا امر سماوى وهو مع ذلك مصلى علىّ بن ابى طالب عليه السلام والمؤنة فى نقضه أكثر من نفعه فقال له المنصور أبيت ياخالد الا ميلا الى العجمية ثم أمر المنصور بهدمه فهدمت منه ثلمة فبلغت النفقة عليها اكثر مما حصل منها فامسك المنصور عن هدمه وقال ياخالد قد صرنا الى رأيك وتركنا هدم الايوان قال ياامير المؤمنين انا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم مابناه غيرك فأعرض عنه وأمسك عن هدمه

كتب بعض الشعراء الى خالد بن برمك فى يوم نوروز وقد أهدى الناس الى خالد هدايا فيها جامات من فضة وذهب (خفيف)

ليت شعرى أمالنا منك حظ ياهدايا الوزير فى النوروز

ماعلى خالد بن برمك فى الجو د نوال ينيله بعزيز

ليت لى جام فضة من هدايا هـ سوى ما به الامير مجيزى

انما أبتغيه للعسل الممـ ـزوج بالمال لا لبول العجوز

فأمر له بجميع ما كان حاضراً بين يديه من الجامات والاوانى الفضية والذهبية فبلغت مالا جليلا

ولما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته وأكرمه واستشاره * انقضت وزارة وزراء السفاح وبانقضائها انقضى الكلام على دولته

﴿ ثم ملك بعده اخوه ابو جعفر المنصور ﴾

بويع فى سنة مائة وست وثلاثين * ذكر شيء من سيرته وما وقع فى أيامه من الحوادث والوقائع

كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة وقوراً شديد الوقار حسن الخلق فى الخلوة من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث او مزاح فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه قال يوما لبنيه يا بنيّ اذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت الى المجلس فلا يدنونّ أحد منى مخافة أن أعرّه بشيء قالوا وكان المنصور يلبس الخشن وربما رقع قميصه وقيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام فقال الحمد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه قالوا ولم يكن يرى فى دار المنصور لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب

حدث بعض مواليه قال كنت مرة واقفاً على رأسه فسمع صوتاً عالياً فقال لى انظر ماهذا الصوت قال فنظرت فاذا هو بعض خدمه يلعب بالطنبور وحوله جماعة من جواريه يضحكن منه قال فأخبرته الخبر فتنمر وقال وأى شيء يكون الطنبور قال فوصفته له فقال وأنت ما يدريك بالطنبور قلت يا أمير المؤمنين رأيته بخراسان فقام المنصور حتى جاء الى الخادم فلما بصر به الجوارى تفرقن فأمر فضرب رأس الخادم بالطنبور حتى تكسر الطنبور ثم أخرجه فباعه

وكان المنصور من أشد الناس شعفاً بابنه المهدى فكان اذا جنى احداً جناية او أخذ من أحد مالا جعله فى بيت المال مفردا وكتب عليه اسم صاحبه

فلما أدركته الوفاة قال لابنه المهدى يا بنى انى قد أفردت كل شىء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه فاذا وليت أنت فأعده على أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك

قال يزيد بن عمر بن هبيرة ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم امكر ولا انكر ولا أشد تيقظاً من المنصور لقد حاصرنى تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه ولقد حصرنى وما فى رأسى شعرة بيضاء ثم انقضى ذلك وما فى رأسى شعرة سوداء

واعلم أن المنصور هو الذى أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس واخترع اشياء * فمن جملة ما اخترع فرس النوبة ولم يكن الملوك قبله يعرفون ذلك وسبب ذلك يأتى فيما بعد * ومن جملة ما اخترع عمل الخيش الكتان فى الصيف ولم يكن الناس قبله يعرفون ذلك وكان الاكاسرة يطينون كل يوم من أيام الصيف بيتاً يسكنونه ثم فى الغد يطين بيت آخر

وكان المنصور مبخلا يضرب بشحه الأمثال وقيل كان كريماً وإنه لما حج أفضل على أهل الحجاز فكانوا يسمون عامه عام الخصب والصحيح أنه كان رجلا حازما يعطى فى موضع العطاء ويمنع فى موضع المنع وكان المنع عليه أغلب

وجرى فى أيامه شىء طريف وهو أن قوما من أهل خراسان يقال لهم الراوندية كانوا يقولون بتناسخ الارواح ويزعمون أن روح آدم انتقلت الى فلان رجل من كبارهم وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو المنصور وأن

جبرائيل هو فلان عن رجل آخر فلما ظهروا أتوا قصر المنصور فطافوا حوله وقالوا هذا قصر ربنا فأخذ المنصور رؤساءهم فحبس منهم مائتى رجل فغضب الباقون واجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا أصحابهم منها وقصدوا المنصور وحاربوه فخرج المنصور اليهم ماشياً ولم يكن فى بابه فى ذلك الوقت دابة فصار بعد ذلك اليوم تربط له دابة فى باب القصر لا تزال واقفة وصارت تلك سنة للخلفاء بعده وللملوك فلما خرج المنصور أتى بدابة فركبها وهو يريدهم حتى تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه * وجاء معن بن زائدة وكان مستخفيا من المنصور جاء متلثما ووقف بين يدى المنصور والمنصور لا يعرفه فقاتل بين يديه قتالا شديداً وأبلى بلاء حسنا

وكان المنصور راكباً على بغلة ولجامها بيد حاجبه الربيع فأتى معن وقال تنح فأنا أحق منك بهذا اللجام فى هذا الوقت فقال المنصور صدق ادفع اللجام اليه فلم يزل يقاتل حتى انكشفت الحال وظفر بالراوندية فقال له المنصور من أنت قال طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة فقال قد آمنك الله على نفسك واهلك وما لك ومثلك يصطنع وأحسن اليه وولاه اليمن والمنصور هو الذى بنى مدينة بغداذ

﴿ شرح كيفية الحال فى بناء بغداذ ﴾

كان المنصور قد بنى فى أوائل دولتهم مدينة بنواحى الكوفة وسماها الهاشمية ووقعت وقعة الراوندية فيها فكره سكناها لذلك ولمجاورة أهل الكوفة فانه كان لا يأمنهم على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه ويبنى فيه مدينة له ولعياله ولأهله ولجنده فانحدر الى جرجرايا وأصعد الى الموصل ثم أرسل جماعة من الحكماء ذوى اللب والعقل

وأمرهم بارتياد موضع فاختاروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور وهى بالجانب الغربى قريبة من مشهد موسى والجواد عليهما السلام فحضر الى هناك واعتبر المكان ليلا ونهاراً فاستطابه وبنى به المدينة

ومن طريف ما اتفق فى ذلك أن راهبا من رهبان الدير المعروف الآن بدير الروم سأل بعض أصحاب المنصور من يريد أن يبنى فى هذا الموضع مدينة فقال له ذلك الرجل امير المؤمنين المنصور خليفة الناس قال ما اسمه قال عبد الله قال فهل له اسم غير هذا قال اللهم لا إلا أن كنيته ابو جعفر ولقبه المنصور قال الراهب فاذهب اليه وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة فانا نجد فى كتبنا أن رجلا اسمه مقلاص يبنى هاهنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن وان غيره لا يتمكن من ذلك فجاء ذلك الرجل الى المنصور وأخبره بما قال الراهب فنزل المنصور عن دابته وسجد طويلا ثم قال أما والله كان اسمى مقلاصا وكان هذا اللقب قد غلب علىّ ثم ذهب عنى وذاك ان لصا كان فى صباى يسمى مقلاصا وكان تضرب به الامثال وكانت لنا عجوز تربينى فاتفق ان صبيان المكتب جاؤا يوما الىّ وقالوا لى نحن اليوم اضيافك ولم يكن معى ما انفقه عليهم وكان للعجوز غزل فأخذته وبعته بما انفقته عليهم فلما علمت انى سرقت غزلها سمتنى مقلاصا وغلب هذا اللقب علىّ ثم ذهب عنى والآن عرفت انى ابني هذه المدينة

ونبهه بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال يا أمير المؤمنين تكون على الصراة بين دجلة مع الفرات فاذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك ثم ان الميرة تأتيك فى دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة وفى الفرات من الرقة والشأم وتجيئك الميرة أيضاً

من خراسان وبلاد العجم فى شط تامرا * وأنت ياأمير المؤمنين بين أنهار لايصل عدوك اليك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل اليك عدوك * وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد * وانت قريب من البر والبحر والجبل . فازداد المنصور جداً وحرصاً على بنائها وكاتب الاطراف بانفاذ الصناع والفعلة وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة والعقل والعلم والامانة والمعرفة بالهندسة ليتولوا قسمة المدينة وعملها وشرع فيها فى سنة خمس واربعين ومائة

وكان أبو حنيفة رضى الله عنه صاحب المذهب يعد اللبن والآجر وهو الذى اخترع عده بالقصب اختصارا وجعل المنصور عرض السور من أساسه خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وقال بسم الله والحمد لله الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا فابتدأ بها فى سنة خمس واربعين ومائة وتممها فى سنة ست واربعين ومائة وجعلها مدورة وجعل قصره فى وسطها لئلا يكون احد اقرب اليه من الآخر وبلغ الخرج عليها اربعة الف الف وثمانى مائة وثلاثة وثلاثين درهما ولما فرغت حاسب القواد بما كان حول عليهم لعمارتها فألزمهم بالبواقى حتى استوفى من بعضهم ما اقتضاه الحساب خمسة عشر درهما * أسماؤها * يقال بغداد وكان هناك موضع يسمى بغداد فسميت المدينة باسمه * ويقال بغداذ بالذال المعجمة * ويقال بغدان بالنون * ويقال الزوراء وكان موضعها يسمى الزوراء قديماً وقيل لان قبلتها غير مستقيمة يحتاج المصلى فى مسجدها الجامع ان ينحرف الى جهة اليسار قليلا * ويقال مدينة المنصور * ويقال دار السلام * وقيل انها مدينة مباركة مسعودة لم يمت فيها خليفة قط فمدينة المنصور هى بغداذ القديمة وهذه بغداذ التى هى

بالجانب الشرقى استجدت بعد ذلك * وهو الذى فعل ببنى الحسن مافعل أخذ مشايخ السادات منهم وهم عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السلام وكان شيخ الطالبيين فى عصره وبنيه وإخوته وبنى اخوته سادات بنى الحسن عليهم السلام فحبسهم عنده وماتوا فى حبسه

روى انه خرج حاجبه فقال من كان على الباب من بنى الحسين فليدخل فدخل مشايخ بنى الحسين عليهم السلام ثم خرج فقال من كان بالباب من بنى الحسن فليدخل فدخل مشايخ بنى الحسن عليه السلام فعدل بهم الى مقصورة ثم أدخل الحدادين من باب آخر فقيدهم وحملهم الى العراق فحبسهم حتى ماتوا فى حبسه بالكوفة لا جزاه الله خيراً عن فعله

ومن طريف ماوقع فى ذلك أن رجلا من بنى الحسن عليه السلام جاء حتى وقف على المنصور فقال ماجاء بك قال جئت حتى تحبسنى عند أهلى فانى لا أريد الدنيا بعدهم فحبسه معهم وكان ذلك الرجل علىّ بن حسن بن حسن ابن الحسن بن علىّ بن أبى طالب وكان منهم محمد بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علىّ بن ابى طالب عليهم السلام وكان من أحسن الناس صورة وكان يسمى الديباج الاصفر لحسنه وجماله فأحضره المنصور وقال له أنت الديباج الأصفر قال كذا يقولون قال لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً ثم أمر به فبنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها

« ذكر السبب فى فعل المنصور مافعل ببنى الحسن عليهم السلام »

كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى أمية وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد وما قد آل اليه امر بنى أمية من الاضطراب وميل الناس اليهم ومحبتهم لان تكون لهم دعوة واتفقوا على

أن يدعوا الناس سراً ثم قالوا لابد لنا من رئيس نبايعه فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم فحضره من أعيان الطالبيين الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام وعبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علىّ بن ابى طالب وابناه محمد النفس الزكية وابراهيم قتيل باخمرى وجماعة من الطالبيين ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية الا الامام جعفر بن محمد الصادق فانه قال لابيه عبد الله المحض ان ابنك لا ينالها يعنى الخلافة ولن ينالها الا صاحب القباء الأصفر يعنى المنصور وكان على المنصور حيئذ قباء أصفر قال المنصور فرتبت العمال فى نفسى من تلك الساعة ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه ثم ضرب الدهر ضربه وانتقل الملك الى بنى العباس كما تقدم شرحه ثم انتقل من السفاح الى المنصور فلم يكن له همة سوى طلب النفس الزكية لقتله او ليخلعه وأغراه بذلك ان الناس كانوا شديدى الميل الى النفس الزكية وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرئاسة فطالبه المنصور من أبيه عبد الله المحض وكان عبد الله المحض من رجال بنى هاشم وساداتهم فألزمه المنصور باحضار ابنيه محمد النفس الزكية وابراهيم فقال لا علم لى بهما وكانا قد تغيبا خوفا منه فلما طول القول لابيهما عبد الله قال كم تطول والله لو كانا تحت قدمىّ لما رفعتهما عنهما سبحان الله آتيك بولدىّ لتقتلهما فقبض عليه وعلى أهله من بنى الحسن وكان من امرهم ماتقدم شرحه رضى الله عنهم وسلم عليهم

﴿ شرح خروج النفس الزكية هو محمد بن عبد الله المحض بن الحسن ابن الحسن بن عليّ بن ابى طالب عليهم السلام ﴾

كان النفس الزكية من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفاً وديناً وعلما وشجاعة وفصاحة ورئاسة وكرامة ونبلا وكان فى ابتداء الامر قد شيع بين الناس أنه المهدى الذى بشر به وأثبت ابوه هذا فى نفوس طوائف من الناس وكان يروى أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه قال لو بقى من الدنيا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه مهديا أو قائمنا اسمه كاسمى واسم أبيه كاسم أبى * فأما الامامية فيروون هذا الحديث خالياً من واسم أبيه كاسم أبى

فكان عبد الله المحض يقول للناس عن ابنه محمد هذا هو المهدى الذى بشر به هذا محمد بن عبد الله ثم ألقى الله محبته على الناس فمالوا اليه كافة ثم عضد ذلك ان أشراف بنى هاشم بايعوه ورشحوه للامر فقدموه على نفوسهم فزادت رغبته فى طلب الامر وزادت رغبة الناس فيه وما زال متغرباً منذ أفضت الدولة الى بنى العباس خوفا منهم على نفسه فلما علم بما جرى لوالده ولقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره وتبعه أعيان المدينة ولم يتخلف عنه الا نفر يسير ثم غلب على المدينة وعزل عنها أميرها من قبل المنصور ورتب عليها عاملا وقاضياً وكسر أبواب السجون وأخرج من بها واستولى على المدينة ومنذ خرج محمد بن عبد الله وفعل ما فعل بالمدينة توجه رجل يقال له أوس العامرىّ من المدينة الى المنصور فى تسعة أيام وقدم ليلا فوقف على أبواب المدينة فصاح حتى علموا به فأدخلوه فقال الربيع الحاجب ما حاجتك فى هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم قال لا بد لى منه فدخل الربيع وأخبر المنصور خبره وأدخله اليه فقال يا أمير المؤمنين خرج محمد بن عبد الله بالمدينة وفعل

وصنع قال أنت رأيته قال نعم وعاينته على منبر رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وخاطبته فادخله المنصور بيتاً ثم تواترت الاخبار عليه بذلك فاخرجه وقال له سوف افعل معك وأصنع وأغنيك . فى كم ليلة وصلت من المدينة قال فى تسع ليال فاعطاه تسعة آلاف درهم . ثم قام المنصور وقعد وتراخت المدة حتى تكاتبا وتراسلا فكتب كل واحد منهما الى صاحبه كتابا نادراً معدوداً من محاسن الكتب احتج فيه وذهب فى الاحتجاج كلّ مذهب وفى آخر الامر ندب ابن أخيه عيسى بن موسى لقتاله فتوجه اليه عيسى بن موسى فى عسكر كثيف فالتقوا فى موضع قريب من المدينة فكانت الغلبة لعسكر المنصور فقتل محمد بن عبد الله وحمل رأسه الى المنصور وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة * ثم خرج أخوه ابراهيم بن عبد الله قتيل باخمرى بالبصرة

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

كان ابراهيم بن عبد الله فى حال تغيبه يحضر الى عسكر المنصور متخفياً وربما جلس على السماط وكان المنصور شديد الطلب له فخرج من مدينة المنصور ومضى الى البصرة وأظهر أمره ودعا الى نفسه فتبعه جماعة وكثرت جموعه فارسل المنصور اليه ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل النفس الزكية فتوجه عيسى بن موسى اليه بخمسة عشر ألف مقاتل فالتقوا بقرية يقال لها باخمرى قريبة من الكوفة فكانت الغلبة لعسكر المنصور وقتل ابراهيم فى المعركة وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة رحمه الله تعالى

وكانت أيام المنصور ذات فتوق وأحداث * فمن خرج عليه عمه عبد الله ابن علىّ وكان السفاح أرسله الى قتال مروان الحمار كما تقدم شرحه ثم مات السفاح وتولى المنصور الخلافة وعبد الله بن علىّ بالشأم فطمع فى الخلافة

وخطب الناس وقال ان السفاح ندب بنى العباس لقتال مروان فلم ينتدب غيرى وانه قال لى ان ظهرت عليه وكانت الغلبة لك فانت ولى العهد بعدى وشهد له جماعة بذلك فبايعه الناس ولما اتصل الخبر بالمنصور أقامه ذلك وأقعده فقال له أبو مسلم الخراسانىّ ان شئت جمعت ثيابى فى منطقتى وخدمتك وان شئت أتيت خراسان وأمددتك بالجنود وان شئت سرت الى حرب عبد الله بن علىّ فامره بالمسير الى حرب عبد الله فسار أبو مسلم بعسكر كثيف فتطاول الامد بينهما شهوراً كانت فى آخرها الغلبة لعسكر أبى مسلم فهرب عبد الله بن علىّ الى البصرة ونزل على أخيه سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس فشفع سليمان فيه الى المنصور وطلب له الامان فآمنه المنصور وكتب له كتاباً بليغاً التزم فيه بكل شىء فلما جاء اليه حبسه ومات فى حبسه فقيل إنه بنى له بيتاً وجعل فى أساساته ملحاً ثم أجرى الماء فيه فسقط البيت عليه فمات * والمنصور هو الذى قتل أبا مسلم الخراسانى

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان فى نفس المنصور قديماً حزازات من أبى مسلم وكان بينهما تباغض وقد كان المنصور أشار على أخيه السفاح بقتله فامتنع السفاح وقال كيف يكون ذلك مع حسن بلائه فى دولتنا فلما ولى المنصور الخلافة أرسل أبا مسلم الى الشأم لحرب عمه عبد الله بن علىّ بن العباس كما تقدم شرحه فلما ظفر أبو مسلم وغنم جميع ما كان فى عسكر عبد الله بن علىّ وانهزم عبد الله الى البصرة أرسل المنصور بعض خدمه ليحتاط على باقى العسكر من الاموال فغضب أبو مسلم وقال أمين على الدماء خائن فى الاموال وشتم المنصور وكتب بعض أصحاب الاخبار بذلك الى المنصور وعزم أبو مسلم على الخلاف وأن يتوجه

الى خراسان ولا يحضر عند المنصور نخاف المنصور أن يتوجه أبو مسلم الى خراسان بهذه الصفة فتفسد عليه الامور هناك

وكان أبو مسلم رجلا مهيباً داهية شجاعا لبيباً جريئاً على الامور فطناً عالماً قد سمع الحديث وعلم من كل شئ فكتب اليه المنصور يطيب نفسه ويسكنه ويعده الجميل ويستدعى منه الحضور فأجاب بأنى على الطاعة وانى متوجه الى خراسان فان أصلحت نفسك كنت سامعاً مطيعاً وان أبيت الا أن تعطى نفسك سؤلها كنت قد نظرت لنفسى بالحال التى تقارنها السلامة فاشتد خوف المنصور منه وحنقه عليه وكتب اليه كتاباً معناه انك لست فى نظرنا بهذه الصفة التى قد وسمت بها نفسك وان حسن بلائك فى دولتنا يغنيك عن هذا القول واستدعى منه الحضور وقال لوجوه بنى هاشم اكتبوا أنتم أيضاً اليه فكتبوا اليه يقبحون عليه خلاف المنصور ومشاقته ويحسنون له الحضور عنده والاعتذار اليه وأرسل المنصور الكتب على يد رجل عاقل من أصحابه وقال له امض اليه وحدثه ألين حديث تحدثه أحداً فان رجع فارجع به حتى تقدم به علىّ وان أصرّ على المشاققة وصمم على التوجه وأيست منه ولم يبق لك حيلة فقل له يقول لك فلان لست من العباس وبرئت من محمد ان مضيت على هذه الحال ولم تعد ان تولى حربك غيرى وعلىّ كذا وكذا ان لم أتولّ أنا ذلك بنفسى فمضى الرسول اليه وناوله الكتب فقرأها والتفت الى صديق له يقال له مالك بن الهيثم وقال له ما الرأى قال الرأى أن لا ترجع اليه فانك ان رجعت اليه قتلك وان مضيت على طريقك حتى تصل الى الرى وهم جندك فتقيم وتنظر فى أمرك فان حدث لك حادث كانت خراسان من ورائك فعزم أبو مسلم على ذلك وقال للرسول قل لصاحبك انه ليس من

رأى الحضور عندك وأنا متوجه الى خراسان فقال له الرسول يا أبا مسلم أنت ما زلت أمين آل محمد فأنشدك الله أن تسم نفسك بسمة العصيان والشقاق والرأى ان تحضر عند أمير المؤمنين وتعتذر اليه فلن ترى عنده الا ما تحب فقال له ابو مسلم متى كنت تخاطبنى بمثل هـذا الخطاب فقال الرجل سبحان الله أنت دعوتنا الى ولاية هؤلاء القوم ونصرهم وقلت لنا من خالفهم فاقتلوه فلما دخلنا معك فيما ندبتنا اليه رجعت عنه وأنكرته علينا فقال ابو مسلم هو ما قلت لك ولست ارجع فقال له فليس عندك غير هذا قال نعم فخلا به وابلغه ما قال المنصور فوجم واطرق ساعة ثم قال ارجع واعتذر اليه ورجع ثم سلم عسكره الى بعض أصحابه وقال له ان جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو كتابى وان كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم انه ليس ختمى وأوصاه بما اراد ثم سار الى المنصور فلقيه بالمداين فلما علم المنصور بوصوله أمر الناس جميعاً بتلقيه فلما دخل عليه قبل يده فأدناه وأكرمه ثم أمره بان يعود الى خيمته ويستريح ويدخل الحمام ويعود من الغد فمضى فلما أصبح أتاه رسول المنصور يستدعيه وقد أعد المنصور جماعة من أصحابه خلف الستور بأيديهم السلاح فأوصاهم أنه اذا ضرب باحدى يديه على الاخرى يخرجون فيقتلون ابا مسلم فلما دخل ابو مسلم عليه قال له أخبرنى عن سيفين وجدتهما فى عسكر عبد الله بن علىّ فقال ابو مسلم هذا أحدهما وكان فى يده سيف فأخذه المنصور ووضعه تحت مصلاه ثم شرع فى توبيخه وتقريعه على ذنب ذنب وأبو مسلم يعتذر عن كل واحد بعذر فعدّد عليه عدة ذنوب فقال أبو مسلم يا أمير المؤمنين مثلى لا يقال له هذا ولا تعدد عليه مثل هذه الذنوب بعد ما فعلت فاغتاظ المنصور وقال يا ابن اللخناء انت فعلت والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت ما فعلت وهل نلت ما نلت

إلا بنا وبدولتنا فقال ابو مسلم دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله فضرب المنصور بيده على الاخرى فخرج اولئك النفر وخبطوه بالسيوف فصاح استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك فقال المنصور وأى عدو لى أعدى منك ثم أمر به فكفف فى بساط ودخل عيسى بن موسى فقال أين ابو مسلم يا أمير المؤمنين فقال المنصور هو ذاك فى البساط فقال قتلته قال نعم قال (انا لله وانا اليه راجعون) بعد بلائه وفعله وأمانه وكان المنصور قد آمنه وكفل عيسى ابن موسى على ذلك فقال له المنصور خلع الله قلبك والله ليس لك على وجه الارض عدو أعدى منه وهل كان لكم ملك فى حياته * ثم أمر المنصور بمال لجنده فتفرقوا وتصرف المنصور فى خراسان وذلك فى سنة سبع وثلاثين ومائة

وفى عقب قتل ابى مسلم خرج رجل اسمه سنباذ بخراسان يطلب بثأر ابى مسلم الخراسانى

«شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار»

كان هذا سنباذ رجلا مجوسياً من بعض قرى نيسابور وكان من أصحاب ابى مسلم وصنائعه فظهر غضبا لقتل ابى مسلم وكثر أشياعه وأطاعه أكثر أهل الجبال وغلب على كثير من بلاد خراسان فلما بلغ المنصور خبره ارسل اليه عشرة الف فارس فالتقوا بين همذان والرى وكان هذا سنباذ قد أفسد فى البلاد التى غلب عليها فسادا كثيراً وسبى الذرارى واظهر أنه يريد أن يمضى الى الحجاز ويهدم الكعبة فلما التقى هو وعسكر المنصور كان سنباذ قد أخذ معه عدة من النساء المسلمات اللواتى قد سباهن وهن على جمال أمر سنباذ باخراج النساء المسبيات قدام عسكره فخرج النساء حواسر على الجمال وصحن

صيحة واحدة وا محمداه فنفرت الجمال وكرت راجعة على عسكر سنباذ ففرقتهم فتبعها عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال فوضعوا فيهم السيوف وأبادوهم قتلا وكان عدة القتلى نحواً من ستين الفا وقد دل الاستقراء على أن من اخترع دولة واحدثها لم يستمتع بها فى أغلب الاحوال * قال صلوات الله عليه (لا تتمنوا الدول فتحرموها) وكأن المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به * والمنصور خلع ابن اخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد وجعلها فى ابنه محمد المهدى

«شرح كيفية الحال فى ذلك»

هو عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبدالله بن العباس امير الكوفة هو ابن اخى المنصور

كان عيسى بن موسى قد جعله ابراهيم الامام ولىّ عهد بعد المنصور وأخذ له البيعة على الناس وحلفهم له فلما كبر المهدى بن المنصور شغف المنصور به شغفا شديداً فأحب أن يبايع له بالخلافة فخلع عيسى بن موسى واشهد عليه بالخلع وبايع للمهدى وجعل عيسى بن موسى بعده

«شرح كيفية خلع عيسى بن موسى»

قد اختلف أرباب السير فى كيفية خلعه فقيل ان المنصور التمس منه ذلك وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ويجلس المهدى عن يساره فلما فاوضه المنصور فى خلع نفسه قال يا أمير المؤمنين كيف أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة ليس الى الخلع سبيل فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة وصار يأذن للمهدى قبله ويجلسه

دون المهدى وصار يتقصد أذاه فكان يكون عيسى بن موسى جالسا فيحفر الحائط الذى يليه وينثر التراب على رأسه فيقول لبنيه تنحوا ثم يقوم هو فيصلى والتراب ينتثر عليه ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه فيقول له المنصور يا عيسى ما يدخل أحد علىّ بمثل ما تدخل انت به من الغبار والتراب افكل هـذا من الشارع فيقول عيسى أحسب ذلك يا امير المؤمنين ولا يشكو

وقيل انه سقاه بعض ما يتلفه فمرض مدة ثم افاق منه فلم يزل هـذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع

وقيل بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتمون عيسى بن موسى اذا رأوه وينالون منه فلما شكا ذلك الى المنصور قال له يا ابن اخى إني والله اخافهم عليك وعلى نفسى فانهم قد أشربت قلوبهم حب هذا الفتى يعنى المهدى فلو قدمته بين يديك فخلع عيسى نفسه وبايع المهدى ولما رآه بعض اهل الكوفة وقد جعل المهدي قدامه فى الخلافة وصار هو بعده قال هذا الذى كان غداً فصار بعد غد * وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه احد عشر الف الف درهم * وقيل بل أرسل اليه خالد بن برمك فاخذ معه جماعة من أهل المنصور نحو ثلاثين رجلا ومضى الى عيسى فخاطبه في أن يخلع نفسه فأبى فلما أبى قال خالد للجماعة نشهد عليه انه قد خلع نفسه ونحقن بذلك دمه ونسكن هـذه الفتنة فشهدوا عليه بذلك فقامت البينة به وانكر عيسى فلم يلتفت اليه وتم خلعه وبويع للمهدى والله أعلم أى ذلك كان * والمنصور هو الذى بنى الرصافة لابنه المهدى

﴿ شرح السبب فى بنائها ﴾

كان الجند قد شغبوا على المنصور فقال المنصور لقثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ماترى التياث الجند وإنى خائف أن تجتمع كلمتهم فقال له يا أمير المؤمنين الرأى أن تعبر ابنك الى الجانب الشرقي وتعبر معه قطعة من العسكر وتبنى له مدينة فيصير هو فى مدينة وعسكر بالجانب الشرق وانت فى مدينة وعسكر بالغربى فان رابك حدث من أحد الجانبين استعنت عليه بالجانب الآخر فقبل قوله وبنى الرصافة وتمت الرصافة وصار الخلفاء بعدذلك يدفنون موتاهم بها وبنوا بها الترب الجليلة وحملوا اليها من الفرش العظيم والآلات الجليلة مايتجاوز الحصر ووقفوا عليها من النواحى والأقرحة والعقارات جملة كثيرة وكانت فى أيامهم حرما اذا لجأ اليها الخائف أمن

ومات المنصور محرما بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة فكتم الربيع أمره لاجل البيعة للمهدى فيقال انه أجلسه وسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى وجهه منها ولا يفهم أمره وأذن لوجوه بنى هاشم فلما دخلوا ووقفوا بين يديه وهم يحسبون أنه حى تقدم الربيع اليه كأنه يشاوره ثم عاد اليهم وقال امير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة للمهدى فبايع الناس طرا

وقيل ان المهدى لما بلغه ذلك استخف بالربيع وقال ما منعتك هيبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته مع انه كان يشاور فى الامور دائماً وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء وكانوا لايزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق

﴿ وزارة ابى أيوب الموريانى للمنصور ﴾

موريان قرية من قرى الاهواز * كان المنصور قد اشتراه صبياً قبل الخلافة وثقفه فاتفق انه أرسله مرة الى أخيه السفاح وهو خليفة وأرسل معه هدية فلما رآه السفاح أعجبته هيئته وفصاحته وصباحته فقال له ياغلام لمن انت قال لاخى امير المؤمنين قال بل انت لى واحتبسه عنده وكتب الى المنصور يعلمه أنه قد أخذه وأعتقه واختص بالسفاح مدة خلافته ثم نمت حاله وتزايدت نعم الله عنده حتى قلده المنصور وزارته وكان لبيباً بصيراً بالامور عاقلا فطناً ذكيا فاضلا كريماً غزير المروءة

مكرمة

حدث ابن شبرمة قال زوجت ابنى على صداق مبلغه الفا درهم فجعلت أفكر فيمن أستعين به على ذلك فأتيت ابا أيوب الموريانى وزير المنصور فذكرت له ذلك فقال قد أمرنا لك بهذا القدر فجزيته خيراً وقمت لأخرج فقال لاتعجلن اجلس ثم قال اذا دفعت المهر فما يحتاج ابنك الى نفقة ثم قال أعطوه الفى درهم للنفقة وذهبت لأقوم فقال لاتعجل أفلا يحتاج الى خادم أعطوه الفى درهم لخادم فما زال يأمر لى فى كل مرة بالفين الفين حتى تكمل ما أمر لى به خمسين الف درهم

﴿ ذكر القبض على ابى أيوب سليمان الموريانى وزير المنصور ﴾

كان ابو أيوب يحب جمع المال ليتقرب به الى المنصور اذا خافه فقال له المنصور يوما ماترى حال صالح ابنى ليس له ضيعة فقال ابو ايوب يا امير المؤمنين بالاهواز مزارع عاطلة تحتاج الى ثلاثمائة الف درهم تعدر بها ويقوم منها حاصل جيد فاطلق له ثلاثمائة الف درهم وأمره بعمارتها لابنه صالح فأخذ ابو أيوب المال ولم يعمل فى الضيعة شيئاً وصار فى رأس كل سنة يحمل

عشرين الف درهم ويقول هـذه حاصل الضيعة المستجدة فانكتم الحال عن المنصور مدة ثم ان أعداء ابى أيوب وجدوا هذا طريقاً الى السعاية به فأعلموا المنصور الحال فانحدر بنفسه الى هناك فأمر ابو أيوب أن تبنى بيوت على جانب الشط ويغرس فيها كرم ويخضر حواليها فلما فعل ذلك اجتاز المنصور بها فقال له ابو ايوب هذه هى الضيعة فرأى المنصور العمارة والخضرة فكاد الامر يشتبه عليه فأعلمه أعداء ابى أيوب صورة الحال فركب بنفسه وأخذ الادلاء معه وطاف الضيعة فوجدها عاطلة لا عمارة فيها فعرف القصة وتنبه على خيانة ابى ايوب فنكبه وقتله وقتل اقاربه واستصفى أموالهم * وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفى فى ذلك (خفيف)

قدوجدنا الملوك تحسد من أعـطته طوعا أزمة التدبير
فاذاما رأوا له النهى والامـر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعدحفص سليمـن ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها إذدعوه من بعدها بالامير
اسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

﴿ وزارة الربيع بن يونس للمنصور ﴾

هو ابو الفضل الربيع بن يونس بن محمد بن كيسان هو ابو فروة مولى عثمان بن عفان كان يقال إن الربيع لقيط ولذلك قال يوما لرجل كرّر الترحم على أبيه فى حضرة المنصور كم تكرّر ذكر أبيك وتترحم عليه فقال له الرجل إنك معذور فى ذلك لانك لم تذق حلاوة الآباء * قالوا والصحيح أنه ابن يونس بن محمد بن أبي فروة ولكنه لغير رشدة قالوا وقع يونس بن محمد على جارية لهم فولدت له الربيع فأنكره يونس فبيع وتنقل فى الرق حتى

وصل الى بنى العباس * وبلغنى أن علاء الدين عطا ملك بن الجوينى صاحب الديوان كان ينتسب الى الفضل بن الربيع . ولقد عجبت من الصاحب علاء الدين مع نبله وفضله واطلاعه على السير والتواريخ كيف رضى أن ينتسب الى الفضل بن الربيع . فان كان قد انتحل هذا النسب ففضيحة ظاهرة وان كان حقاً فلقد كان العقل الصحيح يقتضى ستره فانه نسب لا يوجد أرذل منه ولا أفضح ولا أسقط أما أولا فلأن الفضل بن الربيع لم يكن حراً فى نفسه وكان مرمياً بالفاحشة . قالوا كان له صبىّ يأتيه وكان يقال له نخل الفضل وعمل الشعراء فيه أشعاراً فمنها (متقارب)

لواط الخليفة أعجوبة   وأعجب منه بغاء الوزير

فلو يستعفان هذا بذا   لكانا بعرضة أمر ستير

وأما ثانياً فلأن الربيع وان كان جليلا كافياً إلا أنه كان مدخول النسب فكان يقال إنه لقيط وتارة يقال إنه ولد زنا وأحسن أحواله أن يكون صحيح الاتصال الى ابى فروة مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه وفى ذلك أتم العار فان أبا فروة كان ساقطاً وكان عبداً للحرث حفار القبور بمكة والحرث مولى عثمان بن عفان فابو فروة عبد عبد عثمان وفى ذلك يقول الشاعر (طويل)

وان ولاء كيسان للحرث الذى   ولى زمنا حفر القبور بيثرب

وأبو فروة خرج على عثمان يوم الدار وكفاه بذلك عاراً فانظر هل ترى نسبا أسقط أو أرذل من هذا وأعجب من رأى الصاحب علاء الدين فى هذا خلو حضرته ممن يعرف هذا القدر فينبهه عليه

كان الربيع جليلا نبيلا منفذا للامور مهيباً فصيحاً كافياً حازما عاقلا فطناً خبيراً بالحساب والأعمال حاذقا بامور الملك بصيراً بما يأتى ويذر

محباً لفعل الخير

روى أن المنصور أحضر يوما انسانا ذكر له أنه وثب على عامله ببعض النواحي فقال له المنصور ويحك انت المتوثب على فلان العامل والله لاتترن من لحمك أكثر مما يبقى منه على عظمك وكان شيخاً كبيراً فانشد بصوت ضعيف (كامل)

أتروض عرسك بعد ماهرمت   ومن العناء رياضة الهرم

فقال المنصور ياربيع مايقول فقال يقول (بسيط)

العبد عبدكم والامر أمركم   فهل عذابك عني اليوم مصروف

فقال قد عفونا عنه فلينصرف * ورأى المنصور يوما فى بستانه شجيرة من شجر الخلاف فلم يدر ماهى فقال ياربيع ماهذه الشجرة فقال الربيع اجماع ووفاق وكره أن يقال خلاف فاستعقله المنصور واستحسن قوله

ولم يزل الربيع وزيراً للمنصور الى أن مات المنصور وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدي على ما تقدم وصفه وهو آخر وزراء المنصور وقتله الهادى وكان سبب قتله أنه أهدى جارية حسناء الى المهدى بن المنصور فوهبها المهدى لابنه موسى الهادى فغلب حبها عليه وأولدها أولاده فلما صار الهادى خليفة سعى اليه أعداء الربيع وقالوا له انه اذا رأى بنيك قال والله ماوضعت بيني وبين الأرض أطيب من أم هؤلاء فعظم ذلك على الهادى وعلى بنيه وعلى الجارية أيضاً فناوله الهادى قدحاً فيه عسل مسموم فشربه فمات ليومه وذلك فى سنة سبعين ومائة * انقضت أيام المنصور ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه محمد المهدى ﴾

هو ابو عبد الله محمد المهدى بن ابى جعفر المنصور وقد مر نسبه بويع

له بالخلافة بمكة فى سنة ثمان وخمسين ومائة

كان المهدى شهماً فطناً كريماً شديداً على أهل الالحاد والزندقة لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم وكانت أيامه شبيهة بايام أبيه فى الفتوق والحوادث والخوارج وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم

روي عنه أنه كان اذا جلس للمظالم قال أدخلوا عليّ القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى

وحدث عنه أنه خرج متنزهاً ومعه رجل من خواصه اسمه عمرو فانقطعا فى الصيد عن العسكر فجاع المهدي فقال هل من شئ يؤكل فقال له عمرو أرى كوخا فقصدوه فاذا فيه نبطى وعنده مبقلة فسلموا عليه فرد السلام فقالوا هل من طعام فقال عندى ربيثاء وهو نوع من الصحناء وعندي خبز شعير فقال المهدي ان كان عندك زيت فقدا كملت الضيافة قال نعم وكراث فاتاهما بذلك فا كلا حتى شبعا فقال المهدى لعمرو قل فى هذا شعراً فقال

(خفيف)

إن من يطعم الربيثاء بالزيـ ـت وخبز الشعير بالكراث

لجدير بصفعة أو بثنتيـ ـن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى بئسما قلت انما كان ينبغى أن تقول

لجدير ببدرة أو بثنتيـ ـن لحسن الصنيع أو بثلاث

قال ووافاهم العسكر والخزائن والخدم فامر للنبطىّ بثلاث بدر وانصرف * وفى أيامه ظهر المقنع بخراسان

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

كان هذا المقنع رجلا أعور قصيراً من أهل مرو وكان قد عمل وجهاً

من ذهب وركبه على وجهه لئلا يرى وجهه وادعى الالهية وكان يقول ان الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهكذا هلمّ جرّا الى أبى مسلم الخراسانى وسمى نفسه هاشما وكان يقول بالتناسخ وبايعه خلق من ضلال الناس وكانوا يسجدون الى ناحيته أين كانوا من البلاد وكانوا يقولون فى الحرب يا هاشم أعنا واجتمع اليه خلق كثير

فأرسل المهدى اليه جيشاً فاعتصم منهم بقلعة هناك وطاولوه فضجر وضجر أصحابه فطلب أكثرهم الامان وبقى معه نفر يسير وهو فى القلعة محاصر فأضرم ناراً عظيمة وأحرق جميع ما بالقلعة من دابة وثوب ومتاع ثم جمع نساءه واولاده وقال لاصحابه من أحب منكم الارتفاع معى الى السماء فليلق نفسه فى هذه النار ثم القى فيها نفسه وأولاده ونساءه خوفاً ان يظفر بجثته او بحرمه فلما احترقوا فتحت أبواب القلعة فدخلها عسكر المهدىّ فوجدوها خالية خاوية

ولما ولى المهدى الخلافة جدد الكلام فى خلع عيسى بن موسى والبيعة لولديه موسى الهادى وهرون الرشيد وقد تقدم شرح كيفية خلعه فى ايام المنصور وانه قدم المهدى عليه فلما ولى المهدى أراد لبنيه ما أراد المنصور له فطلب من عيسى بن موسى ان يخلع نفسه فأبى فأرهبه وارغبه حتى أجاب واشهد عليه بالخلع وبايع لولديه الهادى والرشيد

وكان المهدى ينظر فى الدقائق من الامور وكذلك كان أبوه فتقدم المهدى حين ولى برد نسب آل زياد بن أبيه الى عبيد الثقفىّ واسقاطهم من ديوان قريش وبرد نسب آل أبى بكرة الى ولاء رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وكتب الكتب بذلك فاعتمد ما رسم به ثم بعد ذلك ارتشى العمال

من بني زياد وأعادوهم الى ديوان قريش * وغزا المهدى الروم عدة دفعات وكانت له الغلبة ومات المهدى بماسبذان واختلف فى سبب موته

فقيل انه طرد ظبياً فى بعض متصيداته فدخل الظبي الى باب خربة فدخل فرس المهدى خلفه فدقه باب الخربة فقطع ظهره فمات من ساعته * وقيل ان بعض جواريه جعلت سما فى بعض المآكل لجارية أخرى فأكل المهدى منه وهو لا يعلم فمات * وذلك فى سنة تسع وستين ومائة * وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته وعليهن المسوح (رمل)

رحن فى الوشى وأقبلـــن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـــر له يوم نطوح
لست بالباقي ولو عمـــرت ما عمر نوح
فعلى نفسك نح ان كنت لا بد تنوح

《 شرح حال الوزارة فى ايامه 》

فى أيامه ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاءة وزيره ابى عبيد الله معاوية ابن يسار فانه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلما وخبرة

《 وهذا شرح طرف من حاله 》

وزارة أبي عبيد الله معاوية بن يسار للمهدى هو من موالى الأشعريين كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور اليه وكان قد عزم على ان يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى فكان غالباً على امور المهـدى لا يعصى له قولا وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به فلما مات المنصور وجلس المهدى على سرير الخلافة فوض اليه تدبير المملكة وسلم اليه

الدواوين وكان مقدماً فى صناعته فاخترع اموراً * منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجا مقرراً ولا يقاسم فلما ولى ابو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر واستمر الحال فى ذلك الى يومنا وصنف كتاباً فى الخراج ذكر فيه احكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو اول من صنف كتاباً فى الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج وكان شديد التكبر والتجبر

روى أن الربيع لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدى حضر من ساعة وصوله الى باب أبى عبيد الله فقال له ابنه الفضل يا أبى نبدأ به قبل امير المؤمنين وقبل منزلنا قال نعم يا بنىّ هو صاحب الرجل والغالب على أمره قال فوصل الربيع الى باب أبى عبيد الله الوزير فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ثم دخل فاستأذن له فأذن له فلما دخل عليه لم يقم له ثم سأله عن مسيره وحاله فأخبره وشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة من موت المنصور واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى فسكته وقال قد بلغنى الخبر فلا حاجة الى إعادته فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج وقال لابنه الفضل علىّ كذا وكذا ان لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وإزالة نعمته ومضى الربيع الى المهدى فاستحجبه واختص به كما كان مع ابيه فشرع فى افساد حال أبى عبيد الله الوزير بكل وجه فلم يتفق له ذلك فخلا ببعض أعدائه وقال له قد ترى مافعل معك ابو عبيد الله وكان قد أساء اليه وما فعل معى أيضاً فهل عندك تدبير فى أمره قال الرجل لا والله ماعندى حيلة تنفذ عليه فانه أعف الناس فرجاً ويداً ولساناً ومذهبه مذهب مستقيم وحذقه فى صناعته ما عليه مزيد وعقله وكفاءته كما علمت ولكن ابنه ردىء الطريقة مذموم السيرة والقول يسرع

اليه فان تهيأ حيلة من جهة ابنه فعسى ذلك فقبل الربيع بين عينيه ولاح له
وجه الحيلة عليه فسعى بابنه الى المهدي أنواعا من السعايات فتارة يرميه
بعض حرم المهدي وتارة يرميه بالزندقة وكان المهدي شديداً على أهل
الالحاد والزندقة لا يزال يتطلع عليهم ويفتك بهم فلما رسخ فى ذهن المهدي
زندقة ابن الوزير استدعى به فسأله عن شيء من القرآن العزيز فلم يعرف
فقال لابيه وكان حاضراً ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن قال بلى يا أمير
المؤمنين ولكن فارقني مذ مدة فنسيه فقال له قم فتقرب الى الله بدمه فقام
ابو عبيد الله فعثر ووقع وارتعد فقال العباس بن محمد عم المهدي يا أمير المؤمنين
إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره فأمر المهدى بعض
من كان حاضراً بقتله فضربت عنقه واستمر ابوه على حاله من الخدمة الا أنه
ظهر عليه الانكسار وتمر قلبه وتمر أيضاً قلب المهدى منه فدخل بعض
الايام على المهدى ليعرض عليه كتباً قد وردت من بعض الاطراف فتقدم
المهدى باخلاء المجلس فخرج كل من به الا الربيع فلم يعرض ابو عبيد الله
شيئاً من تلك الكتب وطلب أن يخرج الربيع فقال له المهدي يا ربيع اخرج
فتنحى الربيع قليلا فقال المهدى الم آمرك بالخروج قال يا امير المؤمنين
كيف أخرج وأنت وحدك وليس معك سلاح وعندك رجل من أهل
الشأم اسمه معاوية وقد قتلت بالامس ولده وأوغرت صدره فكيف أدعك
معه على هذه الحال وأخرج فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى الا انه قال
يا ربيع انى اثق بأبى عبيد الله فى كل حال وقال لابى عبيد الله الوزير اعرض
ما تريد فليس دون الربيع سر ثم قال بعد ذلك المهدى للربيع انى استحيي من
ابى عبيد الله بسبب قتل ولده فاحجبه عني فحجب عنه وانقطع بداره واضمحل

أمره وتهيأ للربيع ما اراده من ازالة نعمته ومات ابو عبيد الله معاوية بن يسار فى سنة سبعين ومائة

﴿وزارة ابى عبد الله يعقوب بن داود للمهدي﴾

هو من الموالى قال الصولىّ كان داود ابوه واخوته كتابا لنصر بن سيار امير خراسان. كان يعقوب بن داود يتشيع وكان فى ابتداء امره مائلا الى بنى عبد الله بن الحسن بن الحسن وجرت له خطوب فى ذلك ثم إن المهدى خاف من بنى الحسن أن يحدثوا أمراً لا يتدارك فطلب رجلا ممن له أنس ببنى الحسن ليستعين به على أمرهم فدله الربيع على يعقوب بن داود لصداقة كانت بين الربيع وبينه وليتفقا على ازالة دولة ابى عبيد الله معاوية الوزير فاستحضره المهدى وخاطبه فرأى أكمل الناس عقلا وأفضلهم سيرة فشعف به واستخلصه لنفسه ثم استوزره وفوض الامور اليه

وقيل ان السبب فى وزارته غيرهذا وهو أن يعقوب بن داود قرر للربيع مائة الف دينار إن حصلت له الوزارة فجعل الربيع يثنى عليه فى الخلوات عند المهدى فطلب المهدى أن يراه فلما حضر بين يديه رأى أكمل الناس خلقاً وفضلا ثم قال له يا أمير المؤمنين هاهنا أمور لا تنتهى الى علمك فان وليتني عرضتها عليك بذلت جهدى فى نصيحتك فقرّبه وأدناه فصار يعرض عليه من المصالح والمهمات والنصائح الجليلة مالم يكن يعرض عليه من قبل فاستخصه وكتب كتابا بأنه أخوه فى الله تعالى واستوزره وفوّض اليه الامور كلها وسلم اليه الدواوين وقدمه على جميع الناس حتى قال بشار يهجوه (بسيط)

بنى أمية هبوا طال نومكم ... ان الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خلافة الله بين الناى والعود

وذلك لان المهدي اشتغل باللهو واللعب وسماع الاغانى وفوض الامور الى يعقوب بن داود وكان أصحاب المهدى يشربون عنده النبيذ وقيل ما كان هو يشرب معهم فنهاه يعقوب بن داود عن ذلك ووعظه وقال أبعد الصلوات فى المسجد تفعل هذا فلم يلتفت اليه وفى ذلك يقول الشاعر للمهدي

(طويل)

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا　　　واقبل على صهباء طيبة النشر

ثم ان السعاة ما زالوا يسعون بيعقوب بن داود الى المهدى حتى نكبه وجعله فى المطبق وهو حبس التجليد فلم يزل على ذلك مدة أيام المهدى ومدة أيام الهادى حتى أخرجه الرشيد

﴿ شرح السبب فى القبض عليه وكيفية ما جرى ﴾

حدّث يعقوب بن داود قال استدعانى المهدى يوما فدخلت عليه وهو فى مجلس فى وسط بستان ورؤس الشجر مع أرض ذلك المجلس وقدامتلأت رؤس الشجر من الازهار المتنوعة وقد فرش المجلس بفرش مورّدة وبين يديه جارية حسناء لم أر أحسن وجهاً منها فقال لى يا يعقوب كيف ترى هذا المجلس قلت فى غاية الحسن فهنأ الله امير المؤمنين قال فهو لك وجميع ما فيه ومائة الف درهم وهذه الجارية ليتم سرورك فدعوت له قال ولى اليك حاجة أريد أن تضمن لى قضاءها قلت يا أمير المؤمنين انا عبدك الطائع لجميع ما تأمر به فدفع الىّ رجلا علوياً وقال أحب ان تكفينى أمره فانى خائف أن يخرج علىّ قال فقلت السمع والطاعة قال تحلف لى فحلفت له بالله ان افعل ما تريد ثم نقل جميع ما كان فى المجلس الى منزلى والجارية أيضاً فمن شدة سرورى بالجارية جعلتها فى موضع قريب من مجلسى ليس بيني وبينها سوى ستر رقيق

قال وادخلت العلوى الىّ وخاطبته فرأيتـه أتم الناس عقلا فقال لى يا يعقوب تلق الله بدمى وانا ابن علىّ بن ابى طالب وابن فاطمة رضى الله عنها وليس لى اليك ذنب قال فقلت لا والله خذ هذا المال وانج بنفسك قال والجارية تسمع كل ذلك فأرسلت الى المهدى دسيساً أعلمه بالقصة فأرسل المهدى وشحن الدروب بالرجال حتى حصل العلوى وجعله فى بيت قريب من مجلسه ثم استدعانى فحضرت فقال يا يعقوب ما فعلت بالعلوى قلت قد أراح الله منه امير المؤمنين قال مات قلت نعم قال بالله قلت اى والله قال فضع يدك على رأسى واحلف به قال يعقوب فوضعت يدى على رأسه وحلفت به فقال لبعض الخدم اخرج الينا من فى هـذا البيت قال فأخرج العلوى فلما رأيته امتنع الكلام علىّ وتحيرت فى أمرى فقال المهدى يا يعقوب قد حل لى دمك احملوه الى المطبق قال يعقوب فدليت بحبل فى بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء وكان يأتيني فى كل يوم ما أتقوت به فمكثت مدة لا أدرى كم هى وذهب بصرى ففى بعض الايام دلى لى حبل وقيل اصعد قد جاء الفرج فصعدت وقد طال شعرى وأظافيرى فأدخلت الحمام وأصلحوا شأنى والبسونى ثياباً ثم قادونى الى مجلس وقيـل لى سلم على امير المؤمنين فقلت السلام عليك يا امير المؤمنين فقيل لي على اى امراء المسلمين سلمت قلت على امير المؤمنين المهدى فسمعت قائلا من صدر المجلس يقول رحم الله المهدى ثم قيـل لي سلم على امير المؤمـنين فقلت السلام عليك يا امير المؤمنين فقيل لي على اى امراء المؤمنين سلمت فقلت على امير المؤمـنين الهادي فسمعت قائلا يقول من صـدر المجلس رحم الله الهادي ثم قيـل لي سلم فسلمت فقيل لي على من سلمت قلت على امير المؤمنين هارون الرشـيد فقال وعليك السـلام يا يعقوب ورحمة الله وبركاته أعزز علىّ بمـا نالك فجملت المهدى

فى حل ودعوت للرشيد وشكرته على خلاصى ثم قال ما تريد يا يعقوب قلت يا أمير المؤمنين ما بقى فى مستمتع ولا بلاغ واريد المجاورة بمكة فامر لى بما يصلحني ثم توجه يعقوب الي مكة وجاور بها ولم تطل أيامه حتى مات هناك سنة ست وثمانين ومائة

﴿ وزارة الفيض بن ابى صالح للمهدى ﴾

هو من أهل نيسابور وكانوا نصارى فانتقلوا الى بنى العباس واسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخياً مفضالا متخرقاً فى ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه حتى قال فيه بعض الشعراء

(طويل)

أبا جعفر جئناك نسئل نائلا فأعوزنا من دون نائلك البشر
فما برقت بالوعد منك غمامة يرجى بها من سيب نائلك القطر
فلو كنت تعطينا المنى وزيادة لنغصها منك التجبر والكبر

قالوا كان يحى بن خالد بن برمك اذا استعظم احد كرمه وجوده قال لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى * وفى الفيض يقول ابو الاسود الحمانى الشاعر يمدحه

(طويل)

ولائمة لامتك يا فيض فى الندى فقلت لها لن يقدح اللوم فى البحر
أرادت لتثنى الفيض عن سنن الندى ومن ذا الذى يثنى السحاب عن القطر
مواقع جود الفيض فى كل بلدة مواقع ماء المزن فى البلد القفر
كأن وفود الفيض لما تحملوا الى الفيض وافوا عنده ليلة القدر

قالوا كان الفيض بن أبى صالح متوجهاً فى بعض الايام الى بعض أغراضه فصادفه صديق له فسأله الفيض الى أين يذهب فقال ان وكيل

السيدة أم جعفر زبيدة قد حبس فلاناً على بقيـة ضمان مبلغها مائة ألف دينار وفلان يعنى المحبوس صديقى وصديقك أيضاً وأنا متوجه الى الوكيل المذكور لأشفع فيـه فهل لك أن تصل جناحى وتساعدنى على هـذه المكرمة فقال الفيض إى والله ثم مضى معه فحضر عنـد وكيل أم جعفر زبيـدة وشفعا فى الرجل المحبوس فقال الوكيل الامر فى هذا اليها وما أستطيع ان أفرج عنه الا بقولها ولكنى أخاطبها وأحسن لها الافراج عنـه ثم كتب اليها شيئاً فخرج الجواب انه لا بد من استيفاء هذا المال منـه ولا سبيل الى قبول شفاعة فى هذا الباب فاعتذر الوكيل اليهما وأراهما الخط فقال الرجل للفيض قم حتى نمضى فقـد فعلنا ما يجب علينا فقـال الفيض لا والله ما فعلنا ما يجب علينا فكأننا ما جئنا الى هنا الا لنؤكد حبس صاحبنا قال الرجل فما نصنع قال الفيض حيث قد تعذر علينا خلاصه من هذه الجهة نؤدى عنه هذا المـال من خاصنا ونخرجه أنت نصفه وأنا نصـفه فأجاب الرجل الى ذلك فقالا للوكيل كم لك عليه قال مائة ألف دينار قالا هى علينا وهذا خطنا بها فادفع الينا صاحبنا قال هذا أيضاً لا أقدر ان أفعله حتى أعلمها بالحال قالا فاعلمها فكتب اليها الوكيل يخبرها بما قال الفيض وبصورة الحال فخرج الخادم وقال لا يكون الفيض أكرم منا قد وهبناه المـائة الالف فادفع اليهم صاحبهم فأخـذاه وخرجا * وكان الفيض قد وصف للمهدى لما عزم على يعقوب بن داود فلما قبض عليه احضر الفيض واستوزره وفوض الامور اليه * ومات المهـدى وهو وزيره فلما ولى الهادى لم يستوزره وبقى الفيض الى اول أيام الرشيد ثم مات وذلك فى سنة ثلاث وسبعين ومائة * انقضت ايام المهدى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه موسى الهادى ﴾

بويع له بالخلافة فى سنة تسع وستين ومائة

كان الهادى متيقظاً غيوراً كريماً شهماً ايداً شديدالبطش جرئ القلب مجتمع الحس ذا إقدام وعزم وحزم * حدث عبد الله بن مالك وكان يتولى شرطة المهدى قال كان المهدى يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومغنيه وحبسهم صيانة له عنهم فكنت افعل ما يأمرنى به المهدى وكان الهادى يرسل الىّ فى التخفيف عنهم فلا أفعل فلما مات المهدى وولى الهادي أيقنت بالتلف فاستحضرنى يوماً فدخلت عليه وهو جالس على كرسىّ والسيف والنطع بين يديه فسلمت فقال لا سلم الله عليك أتذكر يوم بعثت اليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى وكذلك فعلت فى فلان وفلان وعدد ندماءه فلم تلتفت الى قولى قلت نعم أفتأذن فى ذكر الحجة قال نعم قلت ناشدتك الله لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدى وأمرتنى بما أمر فبعث الىّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله وتركت قولك أكان يسرك ذلك قال لا قلت فكذلك انا لك وكذلك كنت لأبيك فاستدنانى فقبلت يده ثم أمرلى بالخلع وقال ولّيتك ما كنت تتولاه فامض راشداً فمضيت منكراً فى امرى وأمره وقلت حدث يشرب والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماؤه ووزراؤه وكتابه وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبون على رأيه ويحسنون له هلاكى قال فانى لجالس وعندى بنية لى والكانون بين يدى وقدامى رقاق وكامخ وأنا اشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وآكل واطعم الصغيرة واذا بوقع حوافر الخيل فظننت ان الدنيا قد زلزلت فقلت هذا ما كنت اخافه واذا الباب قد فتح واذا الخدم قد دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته فلما رأيته وثبت فقبلت يده ورجله وحافر فرسه فقال لى يا عبد الله انى فكرت فى امرك

فقلت ربما سبق الى ذهنك انى اذا شربت وحولى اعداؤك ازالوا حسن رأيي فيك فيقلقك ذلك فصرت الى منزلك لأؤنسك واعلمك ان ما كان عندى من الحقد عليك قد زال جميعه فهات واطعمنى مما كنت تأكل لتعلم انى قد تحرمت بطعامك فيزول خوفك فادنيت اليه من ذلك الرقاق والكامخ فأكل ثم قال هاتوا ما صحبناه لعبد الله فدخل اربع مائة بغل موقرة دراهم وغيرها فقال هذه لك فاستعن بها على امرك واحفظ هذه البغال عندك لعلى احتاج اليها لبعض اسفارى ثم انصرف

ومن كلامه ما قاله لابراهيم بن مسلم بن قتيبة وقد مات له ولد فجاء الهادى يعزيه وكان عنده بمنزلة عظيمة فقال له يا ابراهيم سرك ابنك وهو عدو وفتنة وحزنك وهو صلوة ورحمة فقال ابراهيم يا امير المؤمنين ما بقى منى جزء فيه حزن الا وقد امتلأ عزاء * فى ايامه خرج صاحب فخ وهو الحسين بن علىّ بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام

﴿ شرح كيفية الوقعة بفخ ﴾

كان الحسين بن علىّ من رجال بنى هاشم وسادتهم وفضلائهم وكان قد عزم على الخروج واتفق معه جماعة من أعيان اهل بيته ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل علىّ عليه السلام فثار آل أبى طالب بسبب ذلك واجتمع اليهم ناس كثيرون وقصدوا دار الامارة فتحصن منهم عاملها فكسروا السجون وأخرجوا من بها وبويع الحسين بن علىّ عليه السلام ثم نمى أمرهم فأرسل اليهم محمد بن سليمان وقالوا سليمان بن المنصور فى عسكر فالتقوا بموضع يقال له فخ بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتالا شديداً ثم قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنه وحمل رأسه الى موسى الهادى فلما وضع

الرأس بين يديه قال لمن أحضره كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت إن أقل ماأجزيكم به حرمانكم ولم يطلق لهم شيئاً وكان الحسين بن علىّ رضى الله عنه صاحب فخ شجاعا كريماً قدم على المهدى فاعطاه اربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداذ والكوفة وخرج من الكوفة لايملك ما يلبسه الا فروا ماتحته قميص رضى الله عنه وسلم عليه

ولم تطل مدة الهادى فيقال ان أمه الخيزران أمرت جواريها بقتله فجلسوا على وجهه حتى مات وسبب ذلك قد اختلف فيه فقيل ان الخيزران كانت متبسطة فى دولة المهدى تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض والمواكب تروح وتغدو الى بابها فلما ولى الهادى وكان شديد الغيرة كره ذلك وقال لها ماهذه المواكب التى تبلغنى انها تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك او بيت يصونك والله والا أنا نفى من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لأضربن عنقه ولاقبضن ماله ثم قال لأصحابه أيما خير أنا وأمى أم انتم وأمهاتكم قالوا بل أنت وأمك قال فايكم يحب أن تحدث الرجال بخبر أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت أم فلان قالوا لانحب ذلك قال فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ثم بعث لها طعاما مسموما فلم تأكل منه ثم قتلته

وقيل بل السبب أن الهادى عزم على خلع أخيه هرون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فخافت الخيزران على هرون وكانت تحبه ففعلت بالهادى مافعلت ومات الهادى فى سنة سبعين ومائة والليلة التى مات فيها هى ليلة مات فيها خليفة وجلس خليفة وولد خليفة وقد كانوا يحدثون أنه سيكون ليلة كذلك

فالخليفة الذى مات فيها هو الهادى والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد والذى ولد فيها هو المأمون

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر الربيع بن يونس وقد سبق شرح طرف من سيرته ونسبه * ثم استوزر بعده ابراهيم بن دكوان الحرانىّ

﴿ وزارة ابراهيم بن دكوان الحرانىّ للهادى ﴾

كان ابراهيم قد اتصل بالهادى فى أيام حداثته كان يدخل اليه مع معلم كان يعلم الهادى نخف ابراهيم على قلب الهادى وألفه وصار لا يصبر عنه ثم سعى به الى المهدى فكره لابنه صحبته فنهاه عنه فما انتهى فتهدّده بالقتل والهادى لا يباعده فاشتدت به السعايات الى المهدى فارسل ابنه الهادى أن أرسل الىّ ابراهيم الحرانىّ والا خلعتك من الخلافة فارسله اليه صحبة بعض خدمه مرفها فوصل اليه والمهدى يريد الركوب الى الصيد فلما رآه قال يا ابراهيم والله لأقتلنك والله لأقتلنك والله لأقتلنك ثم قال احفظوه حتى أعود من الصيد فاقبل على الدعاء والتضرع فاتفق أن المهدى أكل الطعام المسموم كما تقدم شرحه فمات من ساعته وتخلص الحرانىّ وجلس الهادى على سرير الخلافة ثم بعد ذلك بمديدة استوزر الحرانىّ ولم تطل الايام حتى مات الهادى * انقضت أيام الهادى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده اخوه هارون الرشيد ﴾

(خلافة هارون الرشيد * بويع بالخلافة فى سنة سبعين ومائة)

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم كان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته الا سنين قليلة * قالوا وكان يصلى

فى كل يوم مائة ركعة وحج ماشياً ولم يحج خليفة ماشياً غيره وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة وكان يشتبه فى أفعاله بالمنصور إلا فى بذل المال فانه لم ير خليفة أسمح منه بالمال وكان لايضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء فى الدين وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه

قال الاصمعى صنع الرشيد طعاما وزخرف مجالسه وأحضر ابا العتاهية وقال له صف لنا مانحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال ابو العتاهية

(كامل)

عش مابدا لك سالما　　فى ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد أحسنت ثم ماذا فقال

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور

فقال حسن ثم ماذا فقال

فاذا النفوس تقعقعت　　فى ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا　　ما كنت الا فى غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته فقال الرشيد دعه فانه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه* وكان الرشيد يتواضع للعلماء * قال ابو معاوية الضرير وكان من علماء الناس أكلت مع الرشيد يوما فصب على يدى الماء رجل فقال لى يا أبا معاوية أتدرى من صب الماء على يدك فقلت لا يا أمير المؤمنين قال انا فقلت ياأمير المؤمنين انت تفعل هذا اجلالا للعلم قال نعم * فى أيامه خرج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن

﴿ شرح كيفية الحال فى خروج يحيي بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علىّ بن ابى طالب عليه السلام ﴾

كان يحيي بن عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه النفس الزكية وابراهيم قتيل باخمرى فمضى الى الديلم فاعتقدوا فيه استحقاق الامامة وبايعوه واجتمع اليه الناس من الامصار وقويت شوكته فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيي فى خمسين الفا وولاه جرجان وطبرستان والرى وغير ذلك فتوجه يحيي بالجنود فلطف بيحيي بن عبد الله وحذره وخوفه ورغبه فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم فأجابه الرشيد الى ذلك وسر به وكتب له أمانا بليغاً بخطه وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء ومشايخ بنى هاشم وسير الآمان مع هدايا وتحف فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد فى أول الامر بكل ماأحب ثم حبسه عنده واستفتى الفقهاء فى نقض الآمان فمنهم من أفتى بصحته فحاجه ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ثم قتله بعد ظهور آية له عظيمة

﴿ شرح الآية التى ظهرت في قضية يحيى بن عبد الله ﴾

حضر رجل من آل الزبير بن العوام عند الرشيد وسعى بيحيى وقال إنه بعد الامان فعل وصنع ودعا الناس الى نفسه فأحضره الرشيد من محبسه وجمع بينه وبين الزبيرى وسأله عن ذلك فانكر فوافقه الزبيرى فقال له يحيى ان كنت صادقا فاحلف فقال الزبيرى والله الطالب الغالب وأراد أن تمم اليمين فقال له يحيى دع هذه اليمين فان الله تعالى اذا مجده العبد لم يعجل عقوبته ولكن احلف له بيمين البراءة وهى يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه برىء من حول الله وقوته ودخل فى حول نفسه وقوتها ان كان كذا وكذا

فلما سمع الزبيرى هذه اليمين ارتاع لها وقال ماهذه اليمين الغريبة وامتنع من الحلف بها فقال له الرشيد ما معنى امتناعك ان كنت صادقا فيما تقول فما خوفك من هذه اليمين فحلف بها فما خرج من المجلس حتى ضرب برجله ومات

وقيل ماانقضى النهار حتى مات فحملوه الى القبر وحطوه فيه وأرادوا أن يطموا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينطم القبر فعلموا أنها آية سماوية فسقفوا القبر وراحوا والى ذلك أشار أبو فراس ابن حمدان فى ميميته بقوله (بسيط)

ياجاهدا فى مساويهم يكتمها غدر الرشيد بيحيي كيف ينكتم
ذاق الزبيرى غب الحنث وانكشفت عن ابن فاطمة الأقوال والتهم

ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قتل يحيى فى الحبس شر قتلة

وكانت دولة الرشيد من احسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً واوسعها رقعة مملكة جبي الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد وكان يصل كل واحد منهم اجزل صلة ويرفعه الى أعلى درجة وكان فاضلا شاعراً راوية للاخبار والآثار والاشعار صحيح الذوق والتمييز مهيباً عند الخاصة والعامة

قبض على موسى بن جعفر عليهما السلام واحضره فى قبة الى بغداذ فحبسه بدار السندى بن شاهك ثم قتل واظهر أنه مات حتف أنفه

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به الى الرشيد

وقال له ان الناس يحملون الى موسى خمس أموالهم ويعتقدون إمامته وانه على عزم الخروج عليك وكثر فى القول فوقع ذلك عندالرشيد بموقع أهمه وأقلقه ثم أعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد فلم يستمتع به وما وصل المال من البلاد الا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها

وأما الرشيد فانه حج فى تلك السنة فلما ورد المدينة قبض على موسى ابن جعفر عليهما السلام وحمله فى قبة الى بغداذ فحبسه عندالسندى بن شاهك وكان الرشيد بالرقة فأمر بقتله فقتل قتلا خفياً ثم ادخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه اظهاراً أنه مات حتف أنفه صلوات الله عليه وسلامه

ومات الرشيد بطوس وكان خرج الى خراسان لمحاربة رافع بن الليث ابن نصر بن سيار وكان هذا رافع قد خرج وخلع الطاعة وتغلب على سمرقند وقتل عاملها وملكها وقويت شوكته فخرج الرشيد بنفسه اليه فمات بطوس فى سنة ثلاث وتسعين ومائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه قبل الخلافة يحيي بن خالد بن برمك وظهرت دولة بنى برمك مذ حينئذ

﴿ شرح أحوال الدولة البرمكية وذكر مبدإها ومآلها ﴾

كانوا قديماً على دين المجوس ثم أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامهم وقد ذكرنا وزارة جدهم خالد بن برمك فى أيام المنصور ونذكر هاهنا وزارة الباقين وقبل الخوض فى ذلك فهذه كلمات تعرف منها نبذة من أحوال هذه الدولة

اعلم أن هذه الدولة كانت غرة فى جبهة الدهر . وتاجاً على مفرق

العصر . ضربت بمكارمها الامثال . وشدت اليها الرحال . ونيطت بها الآمال . وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها . ومنحتها أوفر اسعادها . فكان يحيي وبنوه كالنجوم زاهره . والبحور زاخره . والسيول دافقة والغيوث ماطره . أسواق الآداب عندهم نافقه . ومراتب ذوى الحرمات عندهم عاليه . والدنيا فى أيامهم عامره . وأبهة المملكة ظاهره . وهم ملجأ اللهف ومعتصم الطريد ولهم يقول ابو نواس (طويل)

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد

﴿ ذكر وزارة يحيي بن خالد للرشيد ﴾

لما جلس الرشيد على سرير المملكة استوزر يحيي بن خالد بن برمك وكان كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة فنهض يحيي بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وجبى الاموال وعمر الاطراف وأظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة وكان كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الاراء حسن التدبير ضابطاً لما تحت يده قوياً على الامور جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ممدحاً بكل لسان حليماً عفيفاً وقوراً مهيباً وله يقول القائل

لا ترانى مصافحا كف يحيي انني ان فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحيي لسخت نفسه ببذل النوال

ومن آراء يحيي السديدة ما قاله للهادى وقد عزم على أن يخلع أخاه هارون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر بن الهادى وكان يحيي كاتب الرشيد وهو يترجى أن يتولى هارون الخلافة فيصير هو وزير الدولة فخلا الهادى بيحيي ووهب له عشرين الف دينار وحادثه فى خلع هارون اخيه والمبايعة لجعفر ابنه فقال له يحيي يا امير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكث

الأيمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته فترك الهادى مدة ثم غلب عليه حب الولد فأحضر يحيى مرة ثانية وفاوضه فى ذلك فقال له يحيى يا أمير المؤمنين لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ أفترى كانت خلافته تصح وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة اليه قال لا قال يحيى فدع هذا الامر حتى تأتيه عفواً ولو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع انت له لئلا تخرج الخلافة من بنى ابيك فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده

ومن مكارمه * قيل إن الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات فرأى انساناً واقفاً وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكى فاخذه الحرس فأتى به الى الرشيد وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به فقال له الرشيد اما سمعت تحريمى لرثائهم لأفعلن بك ولأصنعن فقال يا أمير المؤمنين ان أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال قل قال انى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وارقهم حالا فقال لى يوماً أريد ان تضيفنى فى دارك يوماً فقلت يا مولانا انا دون ذلك ودارى لا تصلح لهذا قال لا بد من ذلك قلت فان كان لا بد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال كم امهلك قلت سنة قال كثير قلت فشهوراً قال نعم فمضيت وشرعت فى اصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة فلما تهيأت

الاسباب أعلمت الوزير بذلك فقال نحن غداً عندك فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواص أتباعه فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل وقال يا فلان أنا جائع فعجل لى بشىء فقال لى الفضل ابنه الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر فدخلت وأحضرت منها شيأ فأكل الوزير ومن معه . ثم قام يتمشى فى الدار وقال يا فلان فرجنا فى دارك فقلت يا مولانا هذه هى دارى ليس لي غيرها قال بلى لك غيرها قلت والله ما أملك سواها فقال هاتوا بناء فلما حضر قال له افتح فى هذا الحائط بابا فمضى ليفتح فقلت يا مولانا كيف يجوز ان يفتح باب الى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار قال لا بأس فى ذلك ثم فتح الباب فقام الوزير وابناؤه فدخلوا فيه وأنا معهم فخرجوا منه الى بستان حسن كثير الاشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع فقال هذا المنزل وجميع ما فيه لك فقبلت يده ودعوت له وتحققت القصة فاذا هو من يوم حادثنى فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى الاملاك المجاورة لى وعمرها داراً حسنة ونقل اليها من كل شىء وأنا لا أعلم . وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران . فقال لابنه جعفر يا بنىّ هذا منزل وعيال فالمادة من أين تكون له قال جعفر قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها وسأكتب له بذلك كتابا. فالتفت الى ابنه الفضل وقال له يا بنى فمن الآن الى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق فقال الفضل علىّ عشرة آلاف دينار أحملها اليه فقال فعجلا له ما قلتما فكتب لى جعفر بالضيعة وحمل الفضل الي المال فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك

معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه الى اليوم فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم الا انتهزتها مكافأة لهم على إحسانهم ولن أقدر على مكافأته فان كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك فرق الرشيد لذلك وأطلقه وأذن لجميع الناس فى رثائهم

قيل ان هرون الرشيد حج ومعه يحيي بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر فلما وصلوا الى مدينة الرسول صلوات الله عليه جلس الرشيد ومعه يحيي فأعطيا الناس وجلس الامين ومعه الفضل بن يحيي فأعطيا الناس وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الامثال وكانوا يسمونه عام الأعطيات الثلاث وأثرى الناس بسبب ذلك وفى ذلك يقول الشاعر (طويل)

أتانا بنو الآمال من آل برمك ... فياطيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا ... وأخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة اشرقت ... بيحيي وبالفضل بن يحيي وجعفر
فتظلم بغداذ وتجلو لنا الدجى ... بمكة ما تمحو ثلاثة أقمر
فما خلقت الا لجود أكفهم ... وأقدامهم الا لأعواد منبر
اذا راض يحيي الامر ذلت صعابه ... وناهيك من راع له ومدبر

كان يحيي يقول ما خاطبنى أحد الا هبته حتى يتكلم فاذا تكلم كان بين اثنتين إما ان تزيد هيبته أو تضمحل * وكان يقول المواعيد شباك الكرام يصيدون بها محامد الاحرار * كان يحيي اذا ركب يعد صررا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المتعرضين له

﴿ سيرة ولد الفضل بن يحيي ﴾

كان الفضـل من كرام الدنيا وأجواد اهل عصره وكان قد أرضعته أمّ هرون الرشيد وأرضعت أمه الرشيد وفى ذلك يقول مروان بن أبي حفصة

(طويل)

كفى لك فخراً أن أكرم حرة غذتك بثدى والخليفة واحد
لقد زنت يحي فى المشاهد كلها كما زان يحي خالداً فى المشاهد

ولاه الرشيد خراسان فخرج اليه أبو الهول الشاعر مادحا معتذراً من شعر كان هجاه به فأنشده (طويل)

سرى نحوه من غضبة الفضل عارض له لجة فيها البوارق والرعد
وكيف ينام الليل ملق فراشه على مدرج يعتاده الأسـد الورد
ومالى الى الفضل بن يحي بن خالد من الجرم ما يخشى على مثله الحقـد
فجد بالرضى لا أبتغى منـك غيره ورأيك فيما كنت عودتنى بعـد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضاى واحسانى وهما مقرونان فان أردتهما معاً والا فدعهما معاً ثم وصله ورضى عنه

حدث اسحق بن ابراهيم الموصلى قال كنت قد ربيت جارية حسنة الوجه وثقفتها وعلمتها حتى برعت ثم أهديتها الى الفضـل بن يحي فقال لى يا اسحق ان رسول صاحب مصر قد ورد الى يسألنى حاجة أقترحها عليـه فدع هذه الجارية عندك فاننى سأطلبها وأعلمه أنى أريدها فانه سوف يحضر اليك ويساومك فيها فلا تأخـذ فيها أقل من خمسين الف دينار قال اسحق فمضيت بالجارية الى منزلى فجاء الىّ رسول صاحب مصر وسألنى عن الجارية فأخرجتها اليه فبذل فيها عشرة آلاف دينار فامتنعت فصعد الى عشرين الف دينار فامتنعت فصعد الى ثلاثين الفاً فما ملكت نفسى حتى قلت له بعتـك

وسلمت الجارية اليه وقبضت منه المال ثم انى أتيت من الغد الى الفضل بن يحيي فقال لى يا اسحق بكم بعت الجارية قلت بثلاثين الف دينار قال ألم أقل لك لا تأخذ منه أقل من خمسين الفاً قلت فداك أبي وأمى والله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين الفاً فتبسم. ثم قال ان رسول صاحب الروم قد سألنى أيضاً حاجة وسأقترح عليه هذه الجارية وأدله عليك فخذ جاريتك وانصرف الى منزلك فاذا ساومك فيها فلا تأخذ منه أقل من خمسين الف دينار فاخذت الجارية وانصرفت الى منزلى فاتانى رسول صاحب الروم وساومنى فى الجارية فطلبت خمسين الفاً فقال هذا كثير ولكن تأخذ منى ثلاثين الفاً فوالله ماملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين الفاً حتى قلت له قد بعتك ثم قبضت المال منه وسلمت الجارية اليه. ومضيت من الغد الى الفضل بن يحيي. فقال ماصنعت وبكم بعت الجارية يا إسحاق قلت بثلاثين الفا قال سبحان الله ما أوصيتك أن لا تأخذ فيها أقل من خمسين الفاً قلت جعلت فداك والله إنى لما سمعت قوله ثلاثين الفا استرخت جميع اعضائى فضحك وقال خذ جاريتك واذهب الى منزلك. ففى غد يجيء اليك رسول صاحب خراسان فقو نفسك ولا تأخذ منه أقل من خمسين الفاً. قال اسحاق فأخذت الجارية ومضيت الى منزلى فجاءنى رسول صاحب خراسان وساومنى فيها. فطلبت خمسين الفاً فقال لى هذا كثير ولكن تأخذ ثلاثين الفا فقويت نفسى وامتنعت فصعد معى الى أربعين الف دينار فكاد عقلى يذهب من الفرح ولم أتمالك أن قلت له بعتك فاحضر المال وأقبضنيه وسلمت الجارية اليه ومضيت من الغد الى الفضل فقال لى يااسحاق بكم بعت الجارية قلت باربعين الفا ووالله لما سمعتها منه كاد عقلى يذهب وقد حصل عندي جعلت فداك مائة الف دينار ولم يبق لى أمل. فاحسن الله

جزاءك . فأمر بالجارية فأخرجت الىّ . وقال يا اسحاق خذ جاريتك وانصرف قال اسحاق فقلت هذه الجارية والله أعظم الناس بركة فأعتقتها وتزوجتها فولدت لى أولادى

قيل إن محمد بن ابراهيم الامام بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس حضر يوما عند الفضل بن يحيي ومعه سفط فيه جوهر وقال له ان حاصلى قد قصر عما احتاج اليه وقد علانى دين مبلغه الف الف درهم وانى أستحى أن أعلم أحداً بذلك وآنف أن أسئل أحداً من التجار أن يقرضنى ذلك وان كان معى رهن يفى بالقيمة وانت أبقاك الله لك تجار يعاملونك وانا اسئلك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن فقال له الفضل السمع والطاعة ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم فأقام عنده. ثم ان الفضل أخذ السفط منه وهو مختوم بختمه وأرسل معه الف الف درهم ونفذ الدراهم والسفط الى منزله وأخذ خط وكيله بقبضه. وأقام محمد فى دار الفضل الى آخر النهار ثم انصرف الى داره فوجد السفط ومعه الف الف درهم فسر بذلك سروراً عظيما فلما كان من الغد بكر الى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر الى دار الرشيد فمضى محمد الى دار الرشيد فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى الى دار ابيه فمضى محمد اليه فحين علم به خرج بباب آخر ومضى الى منزله فمضى محمد اليه واجتمع به وشكره على فعله وقال له انى بكرت اليك لاشكرك على احسانك فقال له الفضل انى فكرت فى امرك فرأيت أن هذه الالف الف التى حملتها أمس اليك تقضى بها دينك ثم تحتاج فتقترض فبعد قليل يعلوك مثلها فبكرت اليوم الى امير المؤمنين وعرضت عليه حالك وأخذت لك مائة الف

الف درهم أخرى . ولما حضرت الى امير المؤمنين خرجت انا بباب آخر وكذلك فعلت لما حضرت الى باب ابى لانى ما كنت أوثر أن القاك حتى يحمل المال الى منزلك وقد حمل . فقال له محمد بأي شيء أجازيك على هذا الاحسان ماعندى شيء أجازيك به الا انى التزم بالايمان الموكدة وبالطلاق والعتاق والحج أنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك . قالوا وحلف محمد أيمانا مؤكدة وكتب بها خطه وأشهد بها عليه أنه لايقف بباب غير الفضل بن يحيي . فلما ذهبت دولة البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم احتاج محمد فقالوا لهلو ركبت الى الفضل بن الربيع فلم يفعل والتزم باليمين فلم يركب الى احد ولم يقف على باب احد حتى مات

﴿ سيرة جعفر بن يحيي البرمكى ﴾

كان جعفر بن يحيي فصيحاً لبيباً ذكيا فطنا كريماً حليما وكان الرشيد يأنس به اكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل قال الرشيد يوماً ليحيي يا أبى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحيي لان الفضل يخلفنى قال فضم الى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيي ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل اليه أمر دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير ايضا

قال الرشيد يوما ليحيي قد أحببت أن انقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيي الى الفضل قد أمر امير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه . فقال جعفر لله

در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع في البلاغة ذرعه

قيل ان جعفر بن يحيي البرمكي جلس يوما للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيأ المجلس ولبسوا ثياب المصبغة وكانوا اذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر • ثم ان جعفر بن يحيي تقدم الى الحاجب أن لا يأذن لاحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح ثم جلسوا يشربون ودارت الكأسات وخفقت العيدان • وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل • فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيي ليخاطبه في حوائج له فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيي بالاذن له وأن لا يدخل غيره فأذن الحاجب له فدخل عبد الملك بن صالح العباسي على جعفر بن يحيي • فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيي • فانبسط عبد الملك وقال لا بأس عليكم أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيي ويمازحه • وقال أسقونا من شرابكم فسقوه رطلا وقال ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ثم باسطهم ومازحهم وما زال حتى انبسط جعفر ابن يحيي وزال انقباضه وحياؤه • ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له ما

حاجتك . قال جئت أصلحك الله فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفةفيها . أولها أن علىّ ديناً مبلغه الف الف درهم أريدقضاءه . وثانيها اريدولاية لابنى يشرف بها قدره . وثالثها أريدأن تزوج ولدى بابنة الخليفةفانها بنت عمه وهو كفؤلها . فقال له جعفر بن يحيي قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المال ففى هذه الساعة يحمل الى منزلك . وأما الولاية فقدوليت ابنك مصر . وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا امير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف فى أمان الله . فراح عبد الملك الى منزله فرأى المال قدسبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ماجرى وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد

وقيل ان جعفر بن يحيي كان بينه وبين صاحب مصر عداوة ووحشة وكان كل منهما مجانباً للآخر . فزوّر بعض الناس كتاباً عن لسان جعفر بن يحيي الى صاحب مصر مضمونه ان حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا وقد آثر التفرج فى الديار المصرية فأريد أن تحسن الالتفات اليه وبالغ فى الوصية . ثم أخذ الكتاب ومضى الى مصر وعرضه على صاحبها . فلماوقف عليه تعجب منه وفرح به إلا أنه حصل عنده ارتياب وشك فى الكتاب فأكرم الرجل وانزله فى دار حسنة وأقام له ما يحتاج اليه وأخذ الكتاب منه وأرسله الى وكيله ببغداذ وقال له قد وصل شخص من أصحاب الوزير بهذا الكتاب وقد ارتبت به فأريد ان تتفحص لى عن حقيقة الحال فى ذلك وهل هذا خط الوزير أم لا وأرسل كتاب الوزير صحبة مكتوبه الى وكيله . فجاء

الوكيل الي وكيل الوزير وحدثه بالقصة وأراه الكتاب فأخذه وكيل الوزير ودخل الى الوزير وعرفه الحال. فلما وقف جعفر بن يحيي على الكتاب علم أنه مزور عليه وكان عنده جماعة من ندمائه ونوابه فرمى الكتاب عليهم وقال لهم أهذا خطى فتأملوه وانكروه كلهم وقالوا هذا مزوّر على الوزير فعرفهم صورة الحال وان الذى زور هذا الكتاب موجود بمصر عند صاحبها وانه ينتظر عود الجواب بتحقيق حاله وقال لهم ما ترون وكيف ينبغى أن نفعل فى هذا . فقال بعضهم ينبغى أن يقتل هذا الرجل حتى تنحسم هذه المادة ولا يرجع احد يتجرى على مثل هذا الفعل . وقال آخر ينبغى أن تقطع يمينه التى زور بها هذا الخط . وقال آخر ينبغي ان يوجع ضربا ويطلق حال سبيله. وكان أحسنهم محضرا من قال ينبغى أن تكون عقوبته على هذا الفعل حرمانه وان يعرف صاحب مصر بحاله ليحرمه فيكفيه من العقوبة انه قد قطع هذه المسافة البعيدة من بغداذ الى مصر ثم يرجع خائبًا. فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر - سبحان الله أليس فيكم رجل رشيد قد علمتم ما كان بيني وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة وأن كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح فقد قيض الله لنا رجلا فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوة فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الاساءة ثم أخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب الى صاحب مصر سبحان الله كيف حصل لك الشك فى خطى هذا خط يدى والرجل من أعز أصحابى وأريد أن تحسن اليه وتعيده الىّ سريعاً فانى مشتاق اليه محتاج الى حضوره فلما وصل الكتاب وفى ظاهره خط الوزير الى صاحب مصر كاد يطير من الفرح وأحسن الى الرجل غاية الاحسان وواصله بمال كبير وتحف جميلة ثم ان الرجل رجع الى بغداذ وهو

أحسن الناس حالا لحضر الى مجلس جعفر بن يحيي • فلما دخل سلم عليه ووقع يقبل الارض ويبكى فقال له جعفر من أنت يا أخى قال يا مولانا انا عبدك وصنيعتك المزوّر الكذاب المتجرّى فعرفه جعفر وبش به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له كم وصل اليك منه فقال مائة الف دينار فاستقلها جعفر وقال لازمنا حتى نضاعفها لك فلازمه مدة فكسب معه مثلها • وما زالت دولة البرامكة فى علو وارتفاع وتزايد حتى انحرفت عنهم الدنيا

﴿ أمارة تدل على انحراف دولتهم ﴾

حدث بختيشوع الطبيب قال دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيي بن خالد فقال جزى الله يحيي خيراً تصدى للامور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة ثم دخلت اليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال استبد يحيي بالامور دونى فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها الا اسمها قال فعلمت انه سينكبهم ثم نكبهم عقيب ذلك

﴿ شرح السبب فى نكبة البرامكة وكيفية الحال فى ذلك ﴾

اختلف أصحاب السير والتواريخ فى السبب فى ذلك • فقيل ان الرشيد ما كان يصبر عن أخته عباسة ولا عن جعفر بن يحيي فقال له أزوجكها حتى يحل لك النظر اليها ثم لا تقربها فكانا يجتمعان وهما شابان ثم يقوم الرشيد عنهما ويخلوان بأنفسهما فجامعها جعفر فحبلت منه وولدت ولدين وكتمت الامر فى ذلك حتى علم الرشيد فكان ذلك سبب نكبة البرامكة

وقيل كان سبب ذلك ان الرشيد كلف جعفر بن يحيي قتل رجل من آل أبي طالب فتحرج جعفر من ذلك وأطلق الطالبيّ وسعى الى الرشيد بجعفر فقال له ما فعل الطالبيّ قال هو فى الحبس قال الرشيد بحياتى فقطن جعفر فقال لا وحياتك ولكن أطلقته لانى علمت أنه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد نعم ما فعلت فلما قام جعفر قال الرشيد قتلنى الله ان لم أقتلك ثم نكبهم

وقيل ان أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع ما زالوا يسعون بهم الى الرشيد ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للاموال حتى أوغروا صدره فأوقع بهم

وقيل ان جعفراً والفضل ابنى يحيي بن خالد ظهر منهما من الادلال ما لا تحتمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك

وقيل ان يحيي بن خالد رئى وهو بمكة يطوف حول البيت ويقول اللهمّ ان كان رضاك فى أن تسلبنى نعمتك عندى وتسلبنى أهلى ومالى وولدى فاسلبنى الا الفضل ولدى ثم ولى فلما مشى قليلا عاد وقال يا رب انه سمج بمثلى ان يستثنى عليك اللهم والفضل فنكبهم الرشيد بعد قليل

﴿ شرح مقتل جعفر بن يحيي والقبض على أهله ﴾

كان الرشيد قد حج فلما عاد من الحج سار من الحيرة الى الأنبار فى السفن وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى وتحف الرشيد وهداياه تأتيه وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الأعمى يغنيه فلما أظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضاً لجعفر وقال اذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجعنى فوافاه مسرور بغير اذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه

(وافر)

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

فلما دخل مسرور قال له جعفر بن يحيى لقد سررتنى بمجيئك وسؤتنى بدخولك علىّ بغير اذن فقال الذى جئت له أعظم أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك فوقع على رجليه فقبلهما وقال له عاود أمير المؤمنين فان الشراب قد حمله على ذلك وقال دعنى أدخل دارى فأوصى فقال الدخول لا سبيل اليه وأما الوصية فأوص بما بدا لك فأوصى ثم حمله الى منزل الرشيد وعدل به الى قبة وضرب عنقه وأتى برأسه على ترس الى الرشيد وبدنه فى نطع ووجه الرشيد فقبض على أبيه واخوته وأهله وأصحابه وحبسهم بالرقة واستأصل شأفتهم

ومن طريف ما وقع فى ذلك ما رواه العمرانى المؤرخ * قال حدث فلان قال دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت فيها أربع مائة الف دينار ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارىّ لاحراق جثة جعفر بن يحيى فعجبت من ذلك

ثم استوزر الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع وكان حاجبه

« وزارة أبى العباس الفضل بن الربيع »

قد مضى ذكر أبيه وأما الفضل فكان حاجباً للمنصور والمهدى والهادى والرشيد فلما نكب الرشيد البرامكة استوزره بعدهم

كان الفضل بن الربيع شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم ولما ولىّ الوزارة تهوّس بالادب وجمع اليه أهل العلم فحصل منه ما أراد فى مدة يسيرة وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين اليه فمن شعره فى آل الربيع

(كامل)

عباس عباس اذا اضطرم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وما زال الفضل بن الربيع على وزارته الى أن مات الرشيد بطوس . فجمع الفضل العسكر وما فيه ورجع الى بغداذ . وسيرد باقى سيرته فى أيام الامين * انقضت أيام الرشيد

﴿ ثم ملك بعده ابنه الامين محمد بن زبيدة ﴾

أمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور وليس فى خلفاء بنى العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه . كان الأمين كثير اللهو واللعب منقطعاً الى ذلك مشتغلا به عن تدبير مملكته . قال ابن الاثير المؤرخ الجزرى لم نجد للامين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره . وقال غيره كان الامين فصيحاً بليغاً كريماً وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه ويعرض بهجو المأمون أخيه (رمل)

لم تلده أمة تعرف فى السوق التجارا

لا ولا حد ولا خا ن ولا فى الخزى جارا

يعرض بالمأمون لان الرشيد كان قد حده فى جارية وجد معها اللهم أو فى خمر

كان الرشيد قد بايع للامين بولاية العهد وللمأمون بعده وكتب الكتب بذلك وأشهد فيها الشهود وأرسل نسخها الى الامصار فعلقت نسخة من تلك النسخ على الكعبة وأكد ذلك بكل ما اليه السبيل . فلما مات بطوس كان المأمون فى خراسان ومعه جماعة من أكابر القواد ووزيره الفضل بن سهل وكان الامين ببغداذ . وكان الفضل بن الربيع وزير الرشيد مع الرشيد بطوس . فلما مات الرشيد جمع الفضل جميع ما فى العسكر . وكان الرشيد قد أوصى به

للمأمون . وتوجه الفضل الى بغداذ فاستوزره الامين ثم اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المجان . فأشار الفضل بن سهل وزير المأمون على المأمون باظهار الورع والدين وحسن السيرة فأظهر المأمون حسن السيرة واستمال القواد واهل خراسان . وكان كلما اعتمد الامين حركة ناقصة اعتمد المأمون حركة شديدة ثم نشأت العداوة بينهما وحسن الفضل بن الربيع وغيره له أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ويبايع لابنه موسى فخلعه وبايع لابنه موسى وسماه الناطق بالحق وبسبب ذلك كانت الفتنة ببغداذ بين الامين والمأمون وكان فى آخرها قتل الأمين

﴿ شرح الفتنة بين الأمين والمأمون ﴾

كان الفضل بن الربيع وزير الأمين قد خاف المأمون لما فعله عند موت الرشيد بطوس من احضار جميع ما كان فى عسكره الى الأمين بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون فخاف الفضل بن الربيع من المأمون أنه ان ولى الخلافة كافاه على فعله . فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى واتفق مع الفضل جماعة على ذلك . فمال الامين الى أقوالهم . ثم انه استشار عقلاء أصحابه فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق وقالوا له لا تجرئ القواد على النكث للايمان وعلى الخلع فيخلعوك فلم يلتفت اليهم ومال الى رأى الفضل بن الربيع وشرع فى خدع المأمون باستدعائه الى بغداذ فلم ينخدع وكتب يعتذر . وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما حتى رق المأمون وعزم على الاجابة الى خلع نفسه ومبايعة موسى بن الامين . فخلا به وزيره الفضل بن سهل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة وقال هى فى عهدتى . فامتنع المأمون ونهض الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس وضبط له الثغور والامور

.واشتدت العداوة بين الاخوين الامين والمأمون وقطعت الدروب بينهما من بغداذ الى خراسان وفتشت الكتب وصعب الامر. وقطع الامين خطبة المأمون ببغداذ وقبض على وكلائه. وكذلك فعل المأمون بخراسان ونمى الشر بينهما . وكان بقدر ما عند المأمون من التيقظ والضبط عند الامين من الاهمال والتفريط والغفول. فمما يحكى من تفريط الامين وجهله أنه كان قد أرسل الى حرب أخيه رجلا من أصحاب ابيه يقال له عليّ بن عيسى بن ماهان وأرسل معه خمسين الفاً فيقال انه ما رئى قبل ذلك ببغداذ عسكر أكثف منه وحمل معه السلاح الكثير والاموال الوافرة وخرج معه مشيعاً مودعاً. وكان أول بعث بعثه الى أخيه . فمضى عليّ بن عيسى بن ماهان فى ذلك العسكر الكثيف .وكان شيخاً من شيوخ الدولة جليلا مهيباً فالتقى بطاهر بن الحسين ظاهر الرى وعسكر طاهر حدود أربعة الف فارس فاقتتلوا قتالا شديداً كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل عليّ بن عيسى وجيء برأسه الى طاهر فكتب طاهر الى المأمون كتاباً نسخته . أما بعد فهذا كتابى الى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ورأس عليّ بن عيسى بين يدى وخاتمه فى يدى وجنده تحت أمرى والسلام

وأرسل الكتاب على البريد فوصل الى المأمون فى ثلاثة أيام وبينهما مسيرة مائتين وخمسين فرسخاً . ثم ان نعى عليّ بن عيسى ورد الى الامين وهو يصطاد السمك فقال للذى أخبره بذلك دعنى فان كوثراً قد اصطاد سمكتين وانا الى الآن ما اصطدت شيئاً . وكان كوثر خادما خصيا له وكان يحبه. ولقد كانت أمه زبيدة أسدّ رأيا منه فان عليّ بن عيسى لما أرسله الامين الى خراسان بالجيش حضر الى باب زبيدة ليودعها . فقالت له يا عليّ ان امير المؤمنين وان كان ولدى واليه انتهت شفقتى فانى على عبد الله تعنى المأمون منعطفة مشفقة

لما يحدث عليه من مكروه وأذى. وانما ولدى ملك نافس أخاه فى سلطانه فاعرف لعبد الله حق ولادته واخوته ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيراً له. ولا تقتسره اقتسار العبيد. ولا توهنه بقيد اوغل. ولا تمنع عنه جارية أو خادما. ولا تعنف عليه فى السير. ولا تساوه فى المسير. ولا تركب قبله. وخذ بركابه اذا ركب. وان شتمك فاحتمل منه ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت اذا صار اليك فقيده بهذا القيد. فقال لها سأفعل ما أمرت به. وكان الناس يجزمون بنصرة على بن عيسى استعظاما له ولعسكره واستصغاراً لمن يلتقيه من جند المأمون. فقدر الله خلاف ما جزموا به. وكان من الامر ما كان

وكانت تلك الايام أيام فتن وحروب فمما جرى من ذلك ان الحسين بن علىّ بن عيسى بن ماهان كان أحد الامراء شغب على الامين وخلعه وحبسه وبايع للمأمون وتبعه ناس من العسكر فاجتمع ناس آخرون من العسكر وقالوا ان كان الحسين بن علىّ بن عيسى يريد أن يأخذ وجهاً عند المأمون بما فعل فلنأخذنّ نحن وجهاً عند خليفتنا الامين بفكه وتخليصه واجلاسه على السرير فاقتتل الفريقان فغلب أصحاب الامين فدخلوا عليه محبسه وأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة وقاتلوا حسيناً وغلبوا عليه وأحضروه أسيراً الى الامين. فعاتبه فاعتذر اليه وعفا عنه. ثم خلع عليه وولاه العسكر وأمره بمحاربة المأمون. فخرج وهرب. فأرسل الامين الجند خلفه فلحقوه وقتلوه وحملوا رأسه الى الامين. فمازال الشر ينمى والاختلاف يزيد حتى أرسل المأمون هرثمة وطاهر بن الحسين وهما من أعيان أمرائه بعسكر كثيف لمحاصرة بغداذ ومحاربة الامين. فحاصرا بغداذ مدة وقاتلا بعساكرهما قتالا شديداً وجرت بين القبيلتين وقائع كثيرة كان فى آخرها الغلبة لعسكر المأمون وقتل

الامين وحمل رأسه الى أخيه المأمون بخراسان وذلك فى سنة ثمان وتسعين ومائة

وأما حال الوزارة فى أيامه فانه لم يستوزر غير الفضل بن الربيع وزير أبيه وقد سبق شرح طرف من سيرته عند ذكر وزارته للرشيد انقضت أيام الامين

﴿ثم ملك بعده اخوه عبدالله المأمون﴾

بويع له البيعة العامة ببغداذ فى سنة ثمان وتسعين ومائة* كان المأمون من أفاضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم وحلمائهم وكان فطناً شديداً كريما

حدث عنه أنه لما كان بدمشق أضاق إضاقة شديدة وقل المال عنده فشكى ذلك الى أخيه المعتصم. وكان له بيده أعمال فقال المعتصم يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد اسبوع فوصل فى تلك الايام من الاعمال التى كان المعتصم يتولاها ثلاثون الف الف الف درهم الالف مكررة ثلاث مرات. فقال ليحيى بن أكثم اخرج بنا لننظر الى هذا المال فخرج وخرج الناس. وكان قد زين الحمل وزخرف فنظر المأمون منه الى شىء حسن كثير فاستعظم الناس ذلك واستبشروا به. فقال المأمون ان انصرافنا الى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم فأمر كاتبه أن يوقع لهذا بألف الف ولذاك بمثلها ولآخر بأكثر منها حتى فرّق أربعة وعشرين الف الف الف درهم والالف مكررة ثلاث مرات ورجله فى الركاب. ثم حول الباقى على عارض الجيش برسم مصالح الجند* واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال وله اختراعات كثيرة فى مملكته

منها أنه هو أول من فحص منهم عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها الى العربية وشهرها وحل إقليدس ونظر فى علوم الاوائل وتكلم فى

الطب وقرّب اهل الحكمة

ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالخمسين. وكانت المقاسمة المعهودة النصف

ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن. وفى أيامه نشأت هذه المقالة ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره. ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها. فلما ولى المعتصم تكلم فيها وضرب أحمد بن حنبل وسيرد خبر ذلك فى موضعه

ومن اختراعاته نقل الدولة من بنى العباس الى بنى علىّ عليه السلام وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة وقالوا هو لباس أهل الجنة

﴿شرح الحال فى ذلك﴾

كان المأمون قد فكر فى حال الخلافة بعده وأراد أن يجعلها فى رجل يصلح لها لتبرأ ذمته كذا زعم. فذكر أنه اعتبر أحوال أعيان البيتين البيت العباسى والبيت العلوىّ فلم ير فيهما أصلح ولا أفضل ولا أورع ولا أدين من علىّ بن موسى الرضى عليهما السلام فعهد اليه وكتب بذلك كتاباً بخطه وألزم الرضى عليه السلام بذلك فامتنع ثم أجاب ووضع خطه فى ظاهر كتاب المأمون بما معناه. انى قد أجبت امتثالا للأمر وان كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك وشهد عليهما بذلك الشهود

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الامر والمحسن له فبايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون وسمى الرضى من آل محمد صلوات الله عليه

وأمر المأمون الناس بخلع لباس السواد ولبس الخضرة وكان هذا فى

خراسان فلما سمع العباسيون ببغداذ ما فعل المأمون من نقل الخلافة عن البيت العباسى الى البيت العلوى وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الخضرة انكروا ذلك وخلعوا المأمون من الخلافة غضباً من فعله وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدى .وكان فاضلا شاعراً فصيحاً أديباً مغنياً حاذقا واليه أشار ابو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله (بسيط)

منكم علية أم منهم وكان لكم ... شيخ المغنين ابراهيم أم لهم

وكانت تلك الايام ايام فتن ووقائع وحروب فلما بلغ المأمون ذلك قام وقعد فقتل الفضل بن سهل ومات بعده علىّ بن موسى من أكل عنب . فقيل ان المأمون رأى انكار الناس ببغداد لما فعله من نقل الخلافة الى بنى علىّ وانهم نسبوا ذلك الى الفضل بن سهل ورأى الفتنة قائمة دسّ جماعة على الفضل ابن سهل فقتلوه فى الحمام ثم اخذهم وقدمهم ليضرب اعناقهم فقالوا له انت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا فقال لهم انا اقتلكم باقراركم . واما ما ادعيتموه علىّ من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة . ثم ضرب أعناقهم وحمل رؤسهم الى الحسن بن سهل وكتب يعزيه ويوليه مكانه وانضمّ الى ذلك أمور أخرى سنذكرها عند ذكر وزارة الفضل ثم دسّ الى علىّ بن موسى الرضى عليه السلام سما فى عنب وكان يحب العنب فأكل منه واستكثر فمات من ساعته . ثم كتب الى بنى العباس ببغداذ يقول لهم ان الذى أنكرتموه من أمر علىّ بن موسى قد زال وان الرجل مات فأجابوه أغلظ جواب . وكان الفضل بن سهل قد استولى على المأمون ومت أمتاناً كثيرة بقيامه فى أمره واجتهاده فى أخذ الخلافة له فكان قد قطع الاخبار عنه ومتى علم ان أحداً قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه . فامتنع الناس من كلام المأمون فانطوت الاخبار

عنه . فلما ثارت الفتنة ببغداذ وخلع المأمون وبويع ابراهيم بن المهدى وأنكر العباسيون على المأمون فعله كتم الفضل بن سهل ذلك عن المأمون مدة . فدخل عليه علىّ بن موسى الرضى عليهما السلام وقال له يا أمير المؤمنين ان الناس ببغداذ قد انكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد وقد خلعوك وبايعوا عمك ابراهيم بن المهدى وأحضر اليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك . فلما سألهم المأمون أمسكوا وقالوا نخاف من الفضل فان كنت تؤمننا من شره أخبرناك فآمنهم وكتب لهم خطه فأخبروه بصورة الحال وعرفوه خيانة الفضل وتعمية الأمور عليه وسترد الاخبار عنه وقالوا له الرأى أن تسير بنفسك الى بغداذ وتستدرك أمرك والا خرجت الخلافة من يدك . فكان بعد هذا بقليل قتل الفضل وموت الرضى على ما تقدم شرحه

ثم جد المأمون فى المسير الى بغداذ فوصلها وقد هرب ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع . فلما دخل البلد تلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود الى السواد واجتمعت به زينب بنت سليمان بن علىّ ابن عبد الله بن العباس . وكانت فى طبقة المنصور . وكان بنو العباس يعظمونها . واليها ينسب الزينبيون فقالت له يا أمير المؤمنين ما الذى دعاك الى نقل الخلافة من بيتك الى بيت علىّ . قال يا عمة انى رأيت علياً حين ولى الخلافة أحسن الى بنى العباس . فولى عبد الله البصرة . وعبيد الله اليمن . وقثم سمرقند . ومارأيت أحداً من أهل بيتى حين أفضى الامر اليهم كافوه على فعله فى ولده فأحببت أن أكافيه على إحسانه . فقالت له يا أمير المؤمنين انك على بر بنى علىّ والامر فيك أقدر منك على برهم والامر فيهم ثم سألته تغيير لباس الخضرة فاجابها الى ذلك وأمر الناس بتغييره والعود الى لباس السواد . ثم ان

المأمون عفا عن عمه ابراهيم بن المهدى ولم يؤاخذه وأحسن اليه وصار من ندمائه وكذلك فعل مع الفضل بن الربيع وكان حليما * كان يقول لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا اليّ بالذنوب

فى أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة. وبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين. وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداذ وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب يقرأ عليه العلم. وكان روى عن أبيه عليه السلام علما جماً فمكث بمكة مدة. وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه فلم يحمد سيرتهما وأرسل المأمون اليهم عسكراً فكانت الغلبة له وظفر به المأمون وعفا عنه

وفى أيامه خرج أبو السرايا وقويت شوكته ودعا الى بعض أهل البيت فقاتله الحسن بن سهل فكانت الغلبة للجيش المأمونى وقتل أبو السرايا * ثم صفا الملك بعد ذلك للمأمون وسكنت الفتن وقام المأمون بأعباء الخلافة وتدبير المملكة قيام حزماء الملوك وفضلائهم وفى آخرها خرج الى الثغر بطرسوس فمات به. وذلك فى سنة ثمانى عشرة ومائتين وفيه يقول بعض الشعراء

(خفيف)

ما رأينا النجوم أغنت عن المأ   مون فى ظل ملكه المحروس
غادروه بعرصتى طرسوس   مثلما غادروا أباه بطوس

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه بنو سهل وكانت دولتهم فى جبهة الدهر غره. وفى مفرق العصر دره. وكانت مختصرة الدولة البرمكية وهم صنائع البرامكة فالوزير

الاول للمأمون منهم الفضل بن سهل

﴿ وزارة ذى الرئاستين الفضل بن سهل للمأمون ﴾

سمى ذا الرئاستين لجمعه بين السيف والقلم . قالوا كان الفضل بن سهل من أولاد ملوك الفرس المجوس وكان قهرماناً ليحيي بن خالد وكان ابوه سهل مجوسيا فاسلم فى أيام الرشيد . قالوا لما رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون فى صباه ونظر فى طالعه وكان خبيراً بعلم النجوم فدلته النجوم على أن يصير خليفة فلزم ناحيته وخدمه ودبر أموره حتى أفضت الخلافة اليه فاستوزره

كان الفضل سخياً كريماً يجارى البرامكة فى جوده شديد العقوبة سهل الانعطاف حليما بليغاً عالما بآداب الملوك بصيراً بالحيل جيد الحدس محصلا للاموال وكان يقال له الوزير الأمير

كان مسلم بن الوليد الشاعر نديما للفضل بن سهل قبل وزارته . وكان قد أنشده قوله (سريع)

وقائل ليست له همة	كلا ولكن ليس لى مال
لاجدة ينهض عزمى بها	والناس سؤال وبخال
فاصبر على الدهر الى دولة	يرفع فيها حالك الحال

فلما علت حال الفضل وتولى الوزارة قصده مسلم بن الوليد . فلما رآه سر به وقال له هذه الدولة التى يرفع فيها حالك الحال وأمر له بثلاثين الف درهم وولاه بريد جرجان فاستفاد من ثم مالا طائلا * قالوا كانت همة ذى الرئاستين عالية جداً من قبل أن يعظم أمره قال له مؤدب المأمون يوما فى أيام الرشيد ان المأمون لجميل الرأى فيك وانى لا استبعد أن يحصل لك من جهته الف الف درهم فاغتاظ الفضل من ذلك وقال له ألك علىّ حقد ألى اليك إساءة

فقال له المؤدب لا والله ماقلت هذا الا محبة لك فقال أتقول لى إنك تحصل معه الف الف درهم والله ما صحبته لا كتسب منه مالا قل أو جل ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب . قال فوالله ما طالت المدة حتى بلغ ما أمل . وقتل الفضل بن سهل على الصورة التى تقدم شرحها . وذلك فى سنة اثنين ومائتين وفيه يقول الشاعر (متقارب)

لفضل بن سهل يد يقصر عنها المثل
فباطنها للندى وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى وسطوتها للاجل

﴿ وزارة أخيه الحسن بن سهل للمأمون ﴾

استوزره المأمون بعد أخيه الفضل ومال اليه وتلافاه جبراً لمصابه بقتل أخيه وتزوج ابنته بوران وانحدر فى أهله وأصحابه وعساكره وأمرائه الى فم الصلح بواسطة . فقام الحسن بن سهل فى انزالهم قياما عظيما وبذل من الاموال ونثر من الدرر مايفوت حد الكثرة حتى انه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل فى وسط كل واحدة منها رقعة بضيعة من ضياعه ونثرها فمن وقعت فى يده بطيخة منها فتحها وتسلم الضيعة التى فيها . وكانت دعوة عظيمة تجاوز حد التجمل والكثرة حتى إن المأمون نسبه فى ذلك الى السرف . وقالوا جملة ما أخرج على دعوة فم الصلح خمسون الف الف درهم

كان الحسن بن سهل قد فرش للمأمون حصيراً منسوجا من الذهب ونثر عليه الف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول (بسيط)

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

قالوا قدم رجل الى باب الحسن بن سهل يلتمس صلته وعارفته فاشتغل عنه مديدة فكتب اليه (بسيط)

المال والعقل مما يستعان به على المقام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم انى منهما عطل اذا تأملتنى يا ابن الدهاقين
أما تدلك أثوابى على عدمي والوجه انى رئيس فى المجانين
والله يعلم ماللملك من رجل سواك يصلح للدنيا وللدين

فأمر له بعشرة آلاف درهم ووقع فى رقعته (كامل)

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أنظرتنا لم يقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تسل ونكون نحن كأننا لم نسئل

وكان الحسن بن سهل أعظم الناس منزلة عند المأمون . وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته فكان اذاحضر عنده طاوله فى الحديث . وكلما أراد الانصراف منعه فانقطع زمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملازمة فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون ويستخلف أحد كتابه كأحمد بن ابى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ثم عرضت له سوداء كان أصلها جزعه على أخيه فانقطع بداره ليتطيب واحتجب عن الناس الا أنه اعلى الخلق مكانة واستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد فكان أحمد فى كل وقت يقصد خدمة الحسن بن سهل واذا حضر الحسن دار المأمون كان أعلى الناس مكانة ولما انقطع الحسن ابن سهل بمنزله هجاه بعض الشعراء بقوله (وافر)

تولت دولة الحسن بن سهل ولم أبلل لهاتى من نداها
فلا تجزع على مافات منها وابكى الله عينى من بكاها

ومات الحسن بن سهل فى سنة ست وثلاثين ومائتين فى أيام المتوكل

﴿ وزارة أحمد بن أبي خالد الاحول للمأمون ﴾

هو من الموالى . كان أحمد جليل القدر من عقلاء الرجال . وكان كاتباً شديداً فصيحاً لبيباً بصيراً بالامور . قال له المأمون ان الحسن بن سهل قد لزم منزله وانني أريد أن استوزرك فتنصل احمد من الوزارة وقال ياامير المؤمنين أعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني لها عدوي فما بعد الغايات الا الآفات فاستحسن المأمون جوابه وقال لابد من ذلك واستوزره

كان المأمون لما ولى طاهر بن الحسين خراسان استشار فيه احمد بن ابي خالد . فصوّب احمد الرأى فى توليه طاهر . فقال المأمون لاحمد انى أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة . فقال أحمد الدرك فى ذلك عليّ فولاه المأمون . فلما كان بعد مدة أنكر المأمون عليه أموراً . وكتب اليه كتابا يتهدّده فيه . فكتب طاهر جواباً أغلظ فيه للمأمون . ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع . فبلغ ذلك المأمون . فقال لاحمد بن ابي خالد انت الذى أشار بتولية طاهر وضمنت مايصدر منه وقد ترى ماصدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة فوالله لئن لم تتلطف لهذا الامر وتصلحه كما أفسدته والا ضربت عنقك . فقال احمد ياامير المؤمنين طب نفساً فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه . ثم ان احمد بن خالد أهدى لطاهر هدايا فيها كواميخ مسمومة . وكان طاهر يحب الكامخ فاكل منها فمات من ساعته * وقيل ان احمد بن خالد لما تولى طاهر خراسان حسب هذا الحساب فوهبه خادما وناوله سما . وقال له متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض مايحب من المآكل . فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم فى كامخ فاكل منه فمات فى ساعته »

. ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعد أيام فكان ذلك مما عظم به امر احمد بن ابي خالد. ومات احمد حتف انفه سنة عشرة ومائتين

﴿ وزارة احمد بن يوسف بن القسم للمأمون ﴾

كان من الموالى. وكان كاتباً فاضلا اديباً شاعراً فطناً بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين * قالوا لما مات احمد بن ابي خالد استشار المأمون الحسن ابن سهل فيمن يوليه الوزارة. فاشار عليه بأحمد بن يوسف وأبى عباد بن يحيى وقال هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين . فقال له اختر لى احدهما فاختار له احمد بن يوسف فقوّض المأمون اليه وزارته * استشار المأمون احمد بن يوسف فى رجل فوصفه احمد بن يوسف وذكر محاسنه فقال له المأمون يا احمد لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك فقال احمد لانى لك كما قال الشاعر (وافر)

كفى ثمناً بما أسديت أنى ... صدقتك فى الصديق وفى عدائى
وانى حين تندبنى لامر ... يكون هواك أغلب من هوائى

وله أشعار حسنة فمنها (كامل)

قلبى يحبك يامنى ... قلبى ويبغض من يحبك
لاكون فرداً فى هوا ... ك فليت شعرى كيف قلبك

وأهدى يوم نوروز الى المأمون هدية قيمتها الف الف درهم وكتب معها (طويل)

على العبد حق فهو لابد فاعله ... وان عظم المولى وجلت فواضله
ألم ترنا نهدى الى الله ماله ... وان كان عنه ذا غنى فهو قابله

فقال المأمون عاقل أهدى حسناً * وكان سبب موته أنه دخل يوماً الى

المأمون والمأمون يتبخر فأخرج المأمون المجمرة من تحته وقال اجعلوها تحت أحمد تكرمة له فنقل أعداؤه الى المأمون أنه قال ما هذا البخل بالبخور . هلاَّ أمر لي بخور مستأنف . فاغتاظ المأمون لذلك . وقال ينسبني الى البخل وقد علم أن نفقتي في كل يوم ستة الف دينار . وانما أردت إكرامه بما كان تحت ثيابي ثم دخل عليه وهو يتبخر مرة أخرى فقال المأمون اجعلوا تحته في مجمرة قطع عنبر وضموا عليه شيأ يمنع البخار أن يخرج . ففعلوا ذلك به فصبر عليه حتى غلبه الامر فصاح الموت الموت فكشفوا عنه وقد غشي عليه فانصرف الى منزله فمكث فيه شهوراً عليلا من ضيق النفس حتى مات بهذه العلة * وقيل بل مات كمداً لبادرة بدرت منه فاطرحه المأمون لاجلها

﴿ وزارة أبي عباد ثابت بن يحيي بن يسار الرازي للمأمون ﴾

كان أبو عباد كاتباً حاذقاً بالحساب سريع الحركات أهوج محمقاً . قالوا كان المأمون ينشد اذا رآه مقبلا قول دعبل فيه (كامل)

وكأنه من دير هزقل مفلت حرب يجر سلاسل الاقياد

قيل للمأمون ان دعبلا الشاعر هجاك . فقال من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجوني . ومعنى هذا الكلام من أقدم على هجاء أبي عباد مع هوجه وجنونه وحدته كيف لا يقدم على هجائي مع حلمي ومحبتي للصفح

وكان أبو عباد شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش . فدخل اليه الغالبي الشاعر وأنشده (كامل)

لما أنخنا بالوزير ركابنا مستعصمين بجوده أعطانا

ثبتت رحا ملك الامام بثابت وأفاض فينا العدل والاحسانا

يقرى الوفود طلاقة وسماحة ... والناكثين مهنداً وسنانا

من لم يزل للناس غيثاً ممرعاً ... متخرقاً فى جوده معوانا

فلما وصل الى قوله فى جوده وقف وأرتج عليه وصار يكرر فى جوده فى جوده مراراً حتى ضجر أبو عباد وغلبت عليه السوداء فقال يا شيخ فقل قرنانا أو صفعانا وخلصنا فضحك جميع من كان بالمجلس وذهب غيظه هو أيضاً فضحك مع الناس وأتم الغالبيّ قافيته بقوله معوانا ثم وصله

«وزارة أبي عبد الله محمد بن يزداد بن سويد للمأمون وهو آخر وزرائه»

هم من خراسان. كانوا مجوساً ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم. وكان قد مات أبوه وهو صغير فأسلمته أمه الى بعض كتاب العجم فنفذ نفاذاً محموداً وتعلم آداباً كثيرة من آداب الفرس. ثم واظب على ملازمة الديوان بمرو. فحضر صاحب الديوان فى يوم مطير وتخلف جميع الكتاب والنواب عن الحضور. وكان سويد جد محمد حاضراً. فاحتاج صاحب الديوان الى عمل حسبة فلم يكن عنده بالديوان كاتب فتولى هو عملها بنفسه وشرع فيها فكتب بعضها. ثم غلبه نعاس وحانت منه التفاتة فرأى سويداً فسلم الحسبة اليه وقال له احتفظ بها حتى أنتبه. ثم نام صاحب الديوان فتصفح سويد الحسبة وتممها وبيضها فى نسخة حسنة بخط مليح وضبط صحيح وانتبه صاحب الديوان وطلب منه الحسبة فدفعها اليه فوجدها مفروغا منها على أتمّ قاعدة وأحسن وجه. فقال يا صبيّ من عمل هذه الحسبة قال أنا قال أفتحسن الكتابة قال نعم. فأمره بلزوم سلته التى كان فيها حسابه وأصول أعماله وما يجب أن يحتفظ به وقرر له معيشة. وتنقل فى الخدمات حتى حصل أموالا جليلة وارتفع قدره. ثم تأدب محمد وبرع فى كل شيء فاستوزره المأمون وفوض اليه جميع الأمور

وكان محمد شاعراً فصيحاً فمن شعره (وافر)

لقد فتنت بعقلها فتون ... وخانت فى الهوى من لا يخون
وتزعم أننى أهوى سواها ... فكيف وما تخطها العيون
أيا من حبها فى القلب منى ... مكان الروح مستتر كمين
ويا من تدعي انى خؤن ... وهذا فى هواها لا يكون
خذى عهدى على عينى وطرفى ... وحسبك ضامناً انى أمين

ومات المأمون وهو وزيره * انقضت أيام المأمون ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده أخوه المعتصم أبو اسحاق محمد ﴾

بويع يوم وفاة المأمون وقد تقدم ذكر السنة * كان المعتصم سديد الرأى شديد المنة يحمل الف رطل ويمشى بها خطوات . وكان موصوفا بالشجاعة وسمى المثمن من أحد عشر وجهاً . هو الثامن من ولد العباس . والثامن من الخلفاء . وتولى الخلافة وعمره ثمانى عشرة سنة . وكانت خلافته ثمانى سنين . وثمانية أشهر . وتوفى وله ثمان واربعون سنة . وولد فى شعبان وهو الشهر الثامن . وخلف ثمانية ذكور . وثمانى بنات . وغزا ثمانى غزوات . وخلف ثمانية الف الف درهم * كانت أيام المعتصم أيام فتوح وحروب هو الذى فتح عمورية

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان السبب فى غزو المعتصم عمورية أن ملك الروم خرج الى بلاد المسلمين فنهب حصناً من حصونهم يقال له زبطرة وقتل من به من الرجال وسبى الذرية والنساء . فيقال إنه كان فى جملة السبي امرأة هاشمية فسمعت وهى تقول وامعتصماه . فبلغ المعتصم مافعله ملك الروم بالمسلمين فاستعظمه

وكبر عليه وبلغه ماقالت الهاشمية فقال وهو فى مجلسه لبيك لبيك ونهض من ساعته وصاح فى قصره الرحيل الرحيل ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاده ثم برز وأمر العساكر بالتبريز وتجهز تجهزاً لم تجهز بمثله خليفة . فلما اجتمعت عساكره وفرغ من تجهيزه وعزم على المسير أحضر القضاة والشهود فأشهدهم انه قد وقف املاكه وأمواله على ثلاثة أثلاث . ثلث لله تعالى . وثلث لولده وأقاربه . وثلث لمواليه . ثم سار فظفر ببعض اهل الروم فسأله عن أحصن مدنهم وأعظمها وأعزها عندهم فقال له الرومى إن عمورية هى عين بلادهم فتوجه المعتصم اليها وجمع عساكره عليها وحاصرها ثم فتحها ودخل اليها وقتل فيها وفى بلادهم وسبى وأسر وبالغ فى ذلك حتى هدم عمورية وعفى آثارها وأخذ باباً من أبوابها وهو باب حديد عظيم الحجم فاحضره الى بغداذ وهو الآن على أحد أبواب دار الخلافة يسمى باب العامة * وكان قد صحبه ابو تمام الطائى فمدحه بقصيدته البائية التى أولها

(بسيط)

السيف اصدق انباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

وفيها يقول للمعتصم

خليفة الله جازى الله سعيك عن   جرثومة الدين والاسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها   تنال الا على جسر من التعب

ومن جملتها مايشير به الى مبالغة المعتصم فى قتالهم واستئصاله إياهم

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على   بان بأهل ولم تغرب على عزب

ومن جملتها مايدل على شدة ما كان عنده من الحقد عليهم وهو قوله

ما ربع مية معموراً يطيف به   غيلان أبهى ربى من ربعك الخرب

ولا الخدود وان ادمين من خجل   أشهى الى ناظرى من خدك الترب

وكانت وقعة عمورية فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين * والمعتصم هو الذى بنى سر من رأى

﴿ شرح السبب فى بناء سامرا وكيفية الحال فى ذلك ﴾

كانت بغداذ دار الملك وبها سرير الخلافة من بعد المنصور الا أن هارون الرشيد أحب الرقة بالشأم فأقام بها ومع ذلك فكانت الرقة له كالمنتزه وقصوره وخزائنه ونساؤه وأولاده ببغداذ بقصر الخلد ومن ولى بعده من الخلفاء كان سرير ملكهم ببغداذ

فلما كانت أيام المعتصم خاف من بها من العسكر ولم يثق بهم فقال اطلبوا الى موضعاً أخرج اليه وأبنى فيه مدينة وأعسكر به فان رابنى من عساكر بغداذ حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على أن آتيهم فى البر وفى الماء فوقع اختياره على سامرا فبناها وخرج اليها

وقيل إن المعتصم استكثر من المماليك فضاقت بهم بغداذ وتأذى بهم الناس وزاحموهم فى دورهم وتعرضوا بالنساء فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة. فركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم يا أبا اسحاق فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم وقال له مالك يا شيخ فقال لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شر جار جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا والله لنقاتلنك بسهام السحر يعنى الدعاء. والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم ير راكباً إلا فى يوم مثل ذلك اليوم فركب وصلى بالناس العيد وسار الى موضع سامرا فبناها وكان ذلك فى سنة احدى وعشرين ومائتين

ولما مرض المعتصم مرضته التى مات فيها نزل فى سفينة ومعه زنام الزامر وكان أوحد وقته فجعل يجتاز على قصوره وبساتينه بشاطئ دجلة ويقول لزنام ازمر (سريع)

يا منزلا لم تبل أطلاله حاشى لاطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكننى بكيت عيشى فيك إذ ولى
والعيش أحلى ما بكاه الفتى لا بد للمحزون أن يسلى

ولما احتضر جعل يقول ذهبت الحيل ليست حيلة ثم مات وذلك فى سنة سبع وعشرين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه كاتبه قبل الخلافة الفضل بن مروان . كان من البردان وكان عامياً لا علم عنده ولا معرفة وكان ردىء السيرة جهولا بالامور وفيه يقول بعض شعراء عصره (طويل)

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادهم التقييد والاسر والقتل

الثلاثة هم الفضل بن يحيى بن خالد والفضل بن سهل والفضل بن الربيع . وكان الفضل بن مروان قد تمكن من المعتصم وحسده الناس على منزلته عنده ثم نكبه وأخذ جميع أمواله وعفّ عن نفسه فبقى مدة يتنقل فى الخدمات حتى مات فى أيام المستعين

﴿ وزارة أحمد بن عمار بن شاذى للمعتصم ﴾

ثم وزر له أحمد بن عمار . كان رجلا موسراً من أهل المذار فانتقل الى البصرة واشترى بها أملاكا وكثر ماله . وكان طحانا ثم أصعد الى بغداد واتسع

بها حاله فقالوا كان يخرج فى الصدقة كل يوم مائة دينار . وكان الفضل بن مروان قد وصفه بالأمانة عند المعتصم فلما نكب الفضل لم يقع نظر المعتصم على غير أحمد بن عمار فاستوزره . وكان جاهلا بآداب الوزارة وفيه يقول بعض شعراء عصره (سريع)

سبحان ربى الخالق البارئ   صرت وزيراً يا ابن عمار
وكنت طحاناً على بغلة   بغير دكان ولا دار
كفرت بالمقدار إن لم تكن   قد جزت فى ذا كل مقدار

فمكث مدة فى وزارة المعتصم حتى ورد كتاب من بعض العمال يذكر فيه خصب الناحية وكثرة الكلاء . فسأل المعتصم أحمد بن عمار عن الكلاء فلم يدر ما يقول فدعا محمد بن عبد الملك الزيات . وكان أحد خواصه وأتباعه فسأله عن الكلاء فقال أول النبات يسمى بقلا فاذا طال قليلا فهو الكلاء فاذا يبس وجف فهو الحشيش فقال المعتصم لأحمد بن عمار انظر انت فى الدواوين وهذا يعرض علىّ الكتب ثم استوزره وصرف ابن عمار صرفاً جميلا

﴿ وزارة محمد بن عبد الملك الزيات للمعتصم ﴾

كان أبوه تاجراً فى أيام المأمون موسراً ونشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم وكان ذكياً فبرع فى كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك حتى كانت أيام المعتصم فاستوزره على ما تقدم شرحه . فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه . وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً الى الخلق . ومات المعتصم وهو وزيره . وكان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال وأحاله به على ابن الزيات فمنعه وأشار على المعتصم أن لا يعطيه شيئاً فقبل

المعتصم قوله ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك فكتب بخطه كتاباً وحلف فيه بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولى الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة

فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ذكر حديث ابن الزيات فأراد أن يعاجله فخاف أن لا يجد مثله. فقال للحاجب أدخل الىّ عشرة من الكتاب فلما دخلوا عليه اختبرهم فما كان فيهم من أرضاه. فقال للحاجب أدخل من الملك محتاج اليه محمد بن الزيات فأدخله فوقف بين يديه خائفاً فقال لخادم أحضر الىّ المكتوب الفلانى فأحضر له الكتاب الذى كان كتبه وحلف فيه ليقتلنّ ابن الزيات فدفعه الى ابن الزيات وقال اقرأه . فلما قرأه قال يا أمير المؤمنين انا عبد ان عاقبته فأنت حاكم فيه وان كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك فقال الواثق والله ما أبقيتك الا خوفا من خلو الدولة من مثلك وسأكفر عن يمينى فانى أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً . ثم كفر عن يمينه واستوزره وقدمه وفوض الأمور اليه .وكان ابن الزيات شاعراً مجيداً فمن شعره يرثى المعتصم ويمدح الواثق

(منسرح)

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالماء والطين
اذهب فنعم المعين أنت على الدنيا ونعم المعين للدين
لا يجبر الله أمة فقدت مثلك الا بمثل هارون

ثم ان محمد بن عبد الملك الزيات مكث فى وزارة الواثق مدة خلافته لم يستوزر غيره حتى مات الواثق وولى أخوه المتوكل فقبض عليه وقتله

قيل ان ابن الزيات عمل تنوراً من حديد ومساميره الى داخل ليعذب

به من يريد عذابه فكان هو أول من جعل فيه * وقيل له ذق ما كنت تذيق الناس * انقضت أيام المعتصم ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه هارون الواثق بويع سنة سبع وعشرين ومائتين ﴾

كان الواثق من أفاضل خلفائهم . وكان فاضلا لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً وكان يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته . ولما ولى الخلافة أحسن الى بنى عمه الطالبيين وبرهم . ولم يقع فى أيامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر . ومات الواثق فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لم يستوزر الواثق سوى محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه . وقد سبق طرف من حاله ومات الواثق وهو وزيره * انقضت أيام الواثق

﴿ ثم ملك بعده أخوه جعفر المتوكل ﴾

كان المتوكل شديد الانحراف عن آل علىّ عليه السلام . وفعل من حرث قبر الحسين عليه السلام ما فعل . وأبى الله الا أن يتم نوره . وقال من يعتذر له إنه كان كأخيه وكالمأمون فى الميل الى بنى علىّ عليه السلام وانما كان حوله جماعة منحرفون عن أهل البيت عليهم السلام فكانوا دائماً يحملونه على الوقيعة فيهم * والاول أصح ولا ريب أنه كان شديد الانحراف عن هذه الطائفة ولذلك قتله ابنه غيرة وحمية

﴿ شرح مقتله على سبيل الاختصار ﴾

كانت بينه وبين ابنه المنتصر مباينة وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه فاتفق المنتصر مع جماعة من الامراء على قتله وقتل الفتح بن خاقان . وكان أكبر أمرائه وأفضلهم فهجموا عليه وهو يشرب فخبطوه بالسيوف فقتلوه

وقتلوا الفتح معه. وأشاعوا أن الفتح قتله فقتلناه به. وجلس ابنه على السرير بعده. وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر محمد بن عبد الملك الزيات أياماً ثم نكبه وقبض عليه وقتله كما تقدم شرحه * ثم استكتب رجلا من كتابه يقال له أبو الوزير من غير أن يسميه بالوزارة فكتب له مديدة يسيرة ثم نكبه وأخذ منه مائتى الف دينار واستوزر الجرجرائى

﴿ وزارة أبى جعفر محمد بن الفضل الجرجرائى للمتوكل ﴾

كان شيخاً ظريفاً حسن الأدب عالماً بالغناء مشتهراً به نخف على قلب المتوكل فاستوزره مديدة ثم كثرت السعايات به فعزله المتوكل وقال قد ضجرت من المشايخ أريد حدثاً أستوزره فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى بن خاقان

﴿ وزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان ﴾

كان عبيد الله حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء الا أنه كان مخلطاً . وكان مجدوداً فكانت سعادته تغطى عيوبه. وكان كريماً حسن الأخلاق وكان كرمه أيضاً يستر كثيراً من عيوبه . وكان فيه تعفف * قيل ان صاحب مصر حمل اليه مائتى الف دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية. فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك. ثم فتح الاسفاط وأخذ منها منديلا لطيفاً وضعه تحت نخده وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر

وكانت سيرة عبيد الله هينة والجند يحبونه. فلما جرت الفتنة عند قتل المتوكل خاف عبيد الله فاجتمع الجند على بابه وقالوا له أنت أحسنت الينا فى

حال وزارتك وأقل ما يجب لك علينا أن نحتفظ بك ونحرسك فى مثل هذه الفتنة ولازموا بابه وحفظوه. ومات المتوكل وهو وزيره * انقضت أيام المتوكل ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه محمد المنتصر بويع فى صبيحة الليلة التى قتل أبوه بها ﴾

كان المنتصر شهماً فاتكا سفا كا للدم. لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده * قالوا لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة جلس على بساط لم ير الناس مثله وعليه كتابة عجيبة بالفارسية فنظر اليها المنتصر واستحسنها وقال لمن حضر هل تعرفون معناها فأحجموا وقالوا لا نعرف فاستحضر رجلا عجمياً غريباً وأمره بقراءتها فأحجم الرجل فقال له المنتصر قل وما عليك بأس فليس لك ذنب فقال الرجل على هذا البساط مكتوب أنا شيرويه ابن كسرى قتلت أبى فلم اتمتع بالملك بعده الا ستة أشهر فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه مغضبا فلم تتم ستة اشهر حتى مات وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه أحمد بن الخصيب

﴿ وزارة احمد بن الخصيب للمنتصر ﴾

كان احمد مقصراً فى صناعته مطعونا عليه فى عقله. وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ماأراد فعرض له رجل من أرباب الحوائج وألح عليه حتى ضايقه وضغط رجله بالركاب فاحتد احمد وأخرج رجله من الركاب وركله بها فى صدره فقال فيه بعض الشعراء

(كامل)

قل للخليفة يا ابن عم محمد اشكل وزيرك انه ركال
قدنال من أعراضنا بلسانه ولرجله عند الصدور مجال

ومات المنتصر واحمد بن الخصيب وزيره * انقضت أيام المنتصر

﴿ ثم ملك بعده المستعين هو احمد بن محمد بن المعتصم ﴾

لما مات المنتصر اجتمع الامراء واكابر المماليك وقالوا متى ولينا أحداً من ولد المتوكل طالبنا بدمه وأهلكنا فأجمعوا على مبايعة المستعين وقالوا هو ابن بن مولانا المعتصم فاذا بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم فبايعوه فى سنة ثمان وأربعين ومائتين . وكانت تلك أيام فتن وحروب وخروج خوارج فمن خرج فيها قتيل شاهى ابو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب عليهم السلام

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان يحيى بن عمر قتيل شاهى قدم من خراسان فى أيام المتوكل وهو فى ضائقة وعليه دين فكلم بعض أكابر أصحاب المتوكل فى ذلك فأغلظ له وحبسه بسامرا. ثم كفله أهله فأطلق وانحدر الى بغداذ فأقام بها مدة على حال غير مرضية من الفقر .وكان رضى الله عنه دينا خيرا عمالا حسن السيرة فرجع الى سامراً مرة ثانية وكلم بعض أمراء المتوكل فى حاله فأغلظ له وقال لاى حال يعطى مثلك فرجع الى بغداذ وانحدر منها الى الكوفة ودعا الناس الى الرضى من آل محمد فتبعه ناس من أهل الكوفة من ذوى البصائر فى التشيع وناس من الاعراب ووثب فى الكوفة وأخذ ماق بيت المال ففرقه على أصحابه وأخرج من فى السجون وطرد عن الكوفة عاملها وكثرت جموعه

فارسل اليه أمير بغداذ وهو محمد بن عبد الله بن طاهر عسكراً فالتقوا بشاهى وهى قرية قريبة من الكوفة فكانت الغلبة لعسكر بن طاهر وانكشف الغبار ويحيى بن عمر قتيل فحمل رأسه الى محمد بن عبد الله بن طاهر ببغداذ فجلس محمد بن عبد الله بن طاهر للهناء بذلك فدخل عليه الناس أفواجا يهنئونه وفى جملتهم رجل من ولد جعفر بن أبى طالب عليهم السلام فقال له أيها الامير انك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حياً لعزى به فأطرق محمد بن عبد الله ساعة ثم نهض وصرف الناس * ورثاه الشعراء فممن رثاه بن الرومى بجيميته التى أولها (طويل)

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج　　طريقان شتى مستقيم واعوج

منها

سلام وريحان وروح ورحمة　　عليك وممدود من الظل سجسج

ولا برح القاع الذى أنت جاره　　يرف عليه الاقحوان المفلج

وهى قصيدة ساعرة تناول فيها بنى العباس باشياء تركناها تحرجا وكانت وقعة شاهى فى سنة خمسين ومائتين * وخرج عليه غيره من الطالبيين فكانت الغلبة فى جميع تلك الحروب له

واعلم أن المستعين كان مستضعفاً فى رأيه وعقله وتدبيره وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ولم يكن فيه من الخصال المحمودة الا أنه كان كريماً وهوبا وخلع فى سنة اثنين وخمسين ومائتين ثم قتل بعد ذلك

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما ولى المستعين أقر أحمد بن الخصيب على وزارته شهرين ثم استوزر

بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد

« وزارة ابى صالح محمد بن يزداد »

كان عنده أدب وفضل . وكانت توقيعاته وأجوبته من أحسن التوقيعات والاجوبة

ومن توقيعاته الى رجل ليس عليك بأس ما لم يكن منك بأس

قالوا ولما تولى ابو صالح بن يزداد الوزارة للمستعين ضبط الاموال فصعب ذلك على أمراء الدولة وكان قد ضيق عليهـم فتهددوه بالقتل فهرب ثم اختلفت الاحوال واستكتب المستعين تارة محمد بن الفضل الجرجراى وشجاع بن القسم لكن لم يتسم أحد منهما بالوزارة ولم تطل تلك الايام وكانت ذات فتن وحروب واختلاف كثير ؞ انقضت أيام المستعين ووزرائه

« ثم ملك بعده المعتز بالله هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل »

بويع بالخلافة سنة اثنتين وخمسين ومائتين عقيب خلع المستعين . وكان المعتز جميل الشخص حسن الصورة ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس الا أن الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفـة فى يدهم كالاسير ان شاؤا أبقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه

لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة . وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال انا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا له فكم تقول انه يعيش وكم يملك قال مهما أراد الاتراك فلم يبق فى المجلس الا من ضحك

وفى أيام المعتز ظهر يعقوب بن الليث الصفار واستولى على فارس وجمع

جموعا كثيرة ولم يقدر المعتز على مقاومته ثم ان الاتراك ثاروا بالمعتز وطلبوا منه مالا فاعتذر اليهم وقال ليس فى الخزائن شئ فاتفقوا على خلعه وقتله فحضروا الى بابه وأرسلوا اليه وقالوا له اخرج الينا فاعتذر بأنه شرب دواء فهجموا عليه وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فكان يرفع رجلا ويضع أخرى بشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ثم جعلوه فى بيت وسدوا بابه حتى مات بعد ان أشهدوا عليه انه خلع نفسه وذلك فى سنة خمس وخمسين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه ابو الفضل جعفر بن محمود الاسكافى

﴿ وزارة الاسكافى للمعتز ﴾

لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكان المعتز يكرهه وكانوا ينسبونه الى التشيع ومال اليه بعض الاتراك وكرهه البعض الآخر وثارت بسببه فتنة فعزله المعتز

﴿ وزارة ابى موسى عيسى بن فرخان شاه للمعتز ﴾

كان كريما . قيل عنه انه كان قبل الوزارة يتولى بعض الدواوين فعزل عنه وله به استحقاق مبلغه الف دينار فتلطف بالذى تولى بعده حتى كتب له واحاله بذلك على بعض النواب فلما حصل المال كتب ذلك النائب الى عيسى بن فرخان شاه يعلمه أن المال قد حصل ويستأذنه فى حمله اليه وكان صديقا له فكتب اليه ان فلانا الشاعر لازمنى مدة وما حصل له من جهتى شىء فادفع هذا المال اليه فدفع المال الى الشاعر فأخذه وانصرف * وجرت بسببه أيضا فتنة بين الاتراك فعزله المعتز

﴿ وزارة ابي جعفر احمد بن اسرائيل الانبارى للمعتز ﴾

كان أحد الكتاب الحذاق الاذكياء. قالوا كان يحفظ وجوه المال جميعها دخلا وخرجا على ذهنه وقالوا انه ضاعت مرة حسبة من الديوان فأوردها من خاطره فلما وجدت الحسبة كانت كما قال من غير زيادة ولا نقيصة. ثم ان الاتراك وثبوا على احمد بن اسرائيل فأخذوه وضربوه واستصفوا أمواله وشفع فيه المعتز وأمه الى متقدم الاتراك وهو صالح بن وصيف فلم يلتفت اليهما وحبسه وضربه بعد ذلك فى أيام المهتدى حتى مات

ولما فعل صالح بن وصيف بأحمد بن اسرائيل ما فعل استحضر جعفر ابن محمود الاسكافى واستوزره للمعتز ثانية وقد سبق ذكره ولما تولى الوزارة فى المرة الثانية قال بعض الشعراء (منسرح)

يانفس لا تولعى بتفنيد وعللى القلب بالمواعيد

وانتظرى قد رأيت ما ساقه الـله الى جعفر بن محمود

انقضت أيام المعتز ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده المهتدى بالله هو أبو عبد الله محمد بن الواثق ﴾

كان المهتدى من أحسن الخلفاء مذهباً وأجملهم طريقة وسيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة. كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول انى أستحيي أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس. وكان يجلس للمظالم فيحكم حكما يرتضيه الناس. وكان يتقلل فى مأكوله وملبوسه

حدث بعض الهاشميين قال كنت عند المهتدى فى بعض ليالى رمضان فقمت لأنصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدي بنا المغرب. ثم أمر باحضار الطعام فأحضر طبق خلاف وعليه رغفان وفى إناء ملح وفى إناء

خل فأكل وأكلت أكلا مقصراً ظناً منى انه يحضر طعام أجود من ذلك فلما رأى أكلى كذلك قال أما كنت صائماً قلت بلى قال أفلست تريد الصوم غداً قلت وكيف لا وهو شهر رمضان فقال كل واستوف عشاءك فليس هاهنا غير ما ترى فعجبت وقلت لم ذلك يا أمير المؤمنين وقد أسبغ الله عليك نعمه ووسع رزقه فقال ان الامر كما تقول والحمد لله ولكنى كرهت أن يكون فى بنى أمية مثل عمر بن العزيز وأن لا يكون فى بنى العباس مثله

وكان المهتدى قد اطرح الملاهى وحرم الغناء والشراب ومنع أصحابه من الظلم والتعدى

فى أيام المهتدى خرج صاحب الزنج وسيرد خبره فى أيام المعتمد ان شاء الله تعالى

كان المهتدى قتل بعض الموالى فشغب عليه الاتراك وهاجوا وأخذوه أسيراً وعذبوه ليخلع نفسه فلم يفعل فخلعوه ثم ومات. وذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقر جعفر بن محمود الاسكافى على وزارته. ثم عزله واستوزر سليمان بن وهب

﴿ وزارة سليمان بن وهب بن سعيد للمهتدى ﴾

هم من قرية من أعمال واسط . وكانت لهم تناية وكانوا نصارى ثم أسلموا وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال الى ما آلت

كان أبو أيوب سليمان بن وهب أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم

حدث ابنه عبيد الله قال حدثنى أبى قال كان مبدأ سعادتى أنى كنت وأنا صبي بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون وكنا جماعة من الصبيان بين يديه اذا راح فى الليل الى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنوبة لمهم عساه يعرض فى الليل . قال فكانت ليلة نوبتى فخرج خادم وقال هاهنا أحد من نواب محمد بن يزداد فقال الحجاب له نعم ها هو ذا فأدخلنى الى المأمون . فقال لى اعمل نسخة فى المعنى الفلانى ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه . قال فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته وأحضرته اليه . فلما رآنى قال كتبت النسخة . قلت بل كتبت الكتاب . فقال بيضته . قلت نعم فزاد فى نظره الىّ كالمتعجب منى . فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه الىّ . وقال ما أحسن ما كتبت ياصبي ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر وخط عليهما بقلمه فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب وكان قد ظن أنى أبطله وأكتب غيره . فلما قرأه لم يعرف موضع المحو فاستحسنه وقال ياصبىّ لا أدرى من أى شيء أعجب أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك بارك الله فيك . فقبلت يده وخرجت . وكان ذلك أول علو منزلتى وصار المأمون لا يجرى مهم إلا قال هاتوا سليمان بن وهب * ولما جرت له هذه القضية كتب اليه بعض الشعراء (بسيط)

أبوك كلفك الشأو البعيد كما ... قدماً تكلفه وهب أبو حسن

فلست تحمد ان أدركت غايته ... ولست تعذر مسبوقا فلاتهن

قالوا كان سليمان بن وهب يتعشق ابراهيم بن ميمون . وكان ابراهيم بن

ميمون يتعشق مغنية اسمها خلاص فاجتمعوا كلهم على شراب فسكر ابراهيم فأكب سليمان بن وهب يلثمه ويترشفه وخلاص تنظر اليه فلما صحا ابراهيم عرفته خلاص ما فعل به سليمان وقالت له كيف يصفو قلبي لك وأنت يصنع بك مثل هذا فانقطع ابراهيم عن سليمان وغضب عليه فكتب سليمان ابن وهب اليه (مجتث)

قل للذى ليس يرجى   لعاشقيه خلاص
أإن لثمتك سرا   فأبصرتنى خلاص
هجرتنى وأتتنى   شتيمة وانتقاص
وسر ذاك أناسا   لهم علينا اختراص
وساعدتهم وشاة   على أذانا حراص
فهاك فاقتص منى   ان الجروح قصاص

حدث أحمد بن المدبر قال كنا فى حبس الواثق أنا وسليمان ابن وهب وأحمد بن اسرائيل مطالبين بالاموال . فقال لنا سليمان بن وهب يوماً قد رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى يموت الواثق بعد شهر فاستغاث أحمد بن اسرائيل وقال له والله لا تزال حتى تسفك دماؤنا وخاف أشد خوف ان يشيع هذا الحديث عنا . قال ابن المدبر فعددت من ذلك اليوم ثلاثين يوماً فلما كان يوم ثلاثين قال لى أحمد بن اسرائيل أين مصداق القول وصحة المنام . وكان قد حضر التاريخ وحسب ونحن لا نعلم فقال له سليمان بن وهب الرؤيا تصدق وتكذب . فلما كانت العشاء الآخرة طرق الباب علينا طرقاً شديداً وصائح يصيح البشارة البشارة مات الواثق فاخرجوا أين شئتم فضحك احمد بن اسرائيل وقال قوموا فقد تحققت الرؤيا وجاء الفرج فقال سليمان بن وهب

كيف نقدر أن نمشى مشاة ومنازلنا بعيدة ولكن نبعث فنحضر دواب نركبها فاغتاظ أحمد بن اسرائيل وقويت السوداء عليه . وكان شكس الاخلاق وقال له ويحك يا سليمان تنتظر مجىء فرسك حتى يتولى خليفة آخر فيقال له فى الحبس جماعة من الكتاب فيقول يتركون على حالهم حتى ننظر فى أمورهم فنلبث فى المحبوس زيادة على هذا ويكون سبب ذلك توجهك راكباً الى منزلك يا فاعل يا صانع فضحكنا وخرجنا مشاة فى الليل وأجمع رأينا على ان نستتر عند بعض أصحابنا حتى يتحقق الاخبار فوالله لقد رأينا فى طريقنا رجلين يقول أحدهما للآخر ان هذا الخليفة الجديد قد عرف أحوال المحبسين من الكتاب وأصحاب الجرائم فقال لا يفرج عن احد حتى أنظر فى حاله فتخفينا الى ان من الله تعالى فى أسرع وقت وله الحمد ومن شعره

(منسرح)

نوائب الدهر أدبتنى | وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلواً وذقت مراً | كذاك عيش الفتى ضروب
ما مرّ بؤس ولا نعيم | الا ولى منهما نصيب

وكان بنو وهب من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم . وكانت دولتهم ناضرة وايامهم مشرقة والادب فى زمانهم قائم المواسم . والكرم واضح المعالم . وخلع المهتدى وهو وزيره * انقضت أيام المهتدى بالله ووزرائه

* ثم ملك بعده المعتمد على الله هو أبو العباس أحمد بن المتوكل *

(بويع سنة ست وخمسين ومائتين)

كان المعتمد مستضعفاً وكان اخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على اموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع . كان هو وأخوه الموفق طلحة

كالشريكين فى الخلافة . للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بامرة المؤمنين . ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء . وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته * وفى تلك الايام كانت وقائع صاحب الزنج

﴿ شرح حال صاحب الزنج ونسبه وما آل امره عليه ﴾

ظهر في تلك الايام رجل يقال له على بن محمد بن احمد بن عيسى بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبي طالب عليهم السلام . فأما نسبه فليس عند النسابين بصحيح وهم يعدونه من الادعياء . واما حاله فانه كان رجلا فاضلا فصيحاً بليغاً لبيباً . استمال قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها فاجتمع اليه منهم خلق كثيرون وناس آخرون من غيرهم وعظم شأنه وقويت شوكته . وكان في مبدإ حاله فقيراً لا يملك سوى ثلاثة اسياف حتى انه أهدى له فرس فلم يكن له لجام ولا سرج يركبه بهما فركبه بحبل فاتفقت له حروب وغزوات نصر فيها فأثرى بسببها وعظم حاله ونهبه وانبث عسكره السودان فى البلاد العراقية والبحرين وهجر ونهد اليه الموفق طلحة بعساكر كثيفة فالتقيا بين البصرة وواسط ودامت الحرب بينهما سنين كثيرة وبنوا مداين هناك وأقام كلّ من الفريقين يرابط الفريق الآخر . وفى آخر الامر كانت الغلبة للجيش العباسى فأبادوهم قتلا وأسراً وقتل صاحب الزنج وانتهبت مدينته . وكان قد بناها وسماها المختارة وحمل رأسه الى بغداذ . وكان يوماً مشهوداً * وقيل ان عدد القتلى فى تلك الوقائع كان الفى الف وخمس مائة الف انسان . ومات المعتمد سنة تسع وسبعين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

قد تقدم أن أخاه الموفق كان هو المستولى على الخلافة فكان يعزل الوزراء ويوليهم

﴿ وزارة أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان للمعتمد ﴾

لما ولى الخلافة المعتمد اتفقت الآراء على عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأحضر واستوزر على كره شديد منه وتقصّ وتنصل . وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والاعمال ضابطاً للاموال وقد تقدم ذكره فى خلافة المتوكل

﴿ وزارة الحسن بن مخلد للمعتمد ﴾

وزر له لما مات عبيد الله بن يحيى استوزر المعتمد الحسن بن مخلد . وكان كاتباً لاخيه الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . كان الحسن ابن مخلد من دير قنى ويقال ان أباه كان معبرانياً نخرج من ابنه ماخرج . وكان الحسن أحد كتاب الدنيا . قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال الممالك ومحمولاتها بتواريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويحقق مافيه بحيث لو سئل فى الغد على أى شىء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور * قال الحسن بن مخلد . كنت مرة واقفاً بين يدى الموفق ابن المتوكل فرأيته يلمس ثوبه بيده وقال لى ياحسن قد أعجبني هذا الثوب كم عندنا فى الخزائن منه فأخرجت فى الحال من خفى دستوراً فيه جمل مافى الخزائن من الامتعة والثياب مفصلة فوجدت فيها من جنس ذلك الثوب ستة الف ثوب فقال لى ياحسن نحن عراة اكتب الى البلاد فى استعمال ثلاثين الف ثوب من جنسه وحملها فى اسرع مدة

ثم عزله المعتمد واستوزر سليمان بن وهب وقد سبق وصف طرف من حاله . وشرعت من تلك الايام دولة بنى وهب تتبع

﴿ وزارة ابى الصقر اسماعيل بن بلبل ﴾

استوزره الموفق لاخيه المعتمد. وكان أبو الصقر كريماً مطعاما متجملا بلغ من الوزارة مبلغاً عظيما . وجمع له السيف والقلم فنظر فى أمر العساكر أيضا وسمى الوزير الشكور كان فى صباه على طريقة غير مرضية فبلغ مابلغ ومدحه الشعراء كالبحترىّ وابن الرومىّ وغيرهما وهجوه . وكان أبو الصقر ينتسب الى بنى شيبان ورأيت نسبه مرفوعا الى شيبان بخط بعض النساب وقوم غمزوه وقالوا هو دعى . وكان ابن الرومىّ قد مدحه بقصيدة نونية طويلة أولها (بسيط)

اجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان
غصون بان عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان

فسمى الناس هذه القصيدة دار البطيخ لكثرة مافيها من ذكر الفواكه وكان الموضع الذى تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ ٭ ومن جملة هذه القصيدة

قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفا ... كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله ٭ قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم كلا ٭ ظن أن بن الرومىّ قد هجاه بهذا باطناً وانه عرض بأنه دعى واشتبه على ابى الصقر الامر فاستحكم ظنه وأعرض عنه . وتوصل بن الرومى الى إفهامه صورة الحال فلم يقبل فى ذلك قول قائل وقيل له ياسبحان الله فانظر الى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع مامدح احد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بان ابن الرومي هجاه وحرمه فهجاه بن الروميّ وأفحش فى هجائه فمما هجاه به

قوله (خفيف)

عجب الناس من أبي الصقر اذو   لى بعد الاجارة الديوانا
ان للحظ كيمياء اذا ما   مس كلبا أصاره انسانا

وقوله (سريع)

مهلا أبا الصقر فكم طائر   خر صريعاً بعد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفؤها   فصانها الله بتطليق
لا قدست نعمى تسربلتها   كم حجة فيها لزنديق

ومن غريب قوله فيه (بسيط)

ما بال فرخ أبوه بلبل رجع   يكنى أبا الصقر يا أهل الدواوين
عروه من كنية ليست تليق به   يدعي أبا الصقر من كان ابن شاهين

وقبض عليه المعتمد وحبسه وعاقبه ثم قتله فى محبسه واستصفى أمواله ٭ واعلم ان هؤلاء وزراء المعتمد كالحسن بن مخلد . وسليمان بن وهب . وأبي الصقر ابن بلبل تولوا الوزارة وعزلوا مراراً مرتين وثلاثة

﴿ وزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد القطربلي للمعتمد ﴾

استوزره الموفق لأخيه المعتمد . وكان أحمد كاتباً بليغاً فاضلا عارفا بما يلزم مثله معرفته مجيداً فى النظم والنثر . وصف احمد امرأة كاتبة . فقال كأن خطها حسن صورتها وكأن مدادها سواد شعرها وكأن قرطاسها أديم وجهها وكأن قلمها بعض أناملها . وكأن بيانها سحر مقلتها . وكأن سكينها غنج لحظها وكأن مقطها قلب عاشقها ٭ ومكث احمد بن شيرزاد فى وزارته نحواً من شهر ثم مرض ومات . وذلك فى سنة ست وستين ومائتين

﴿ وزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب للمعتمد ﴾

كان عبيد الله بن سليمان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب . وكان بارعا في صناعته حاذقا ماهرا لبيباً جليلا . ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها فقال له عبيد الله بن سليمان مثلك يا أمير المؤمنين تهون المصائب عليه لانك تجد من كل مفقود عوضا ولا يجد أحد منك عوضا . وكأن الشاعر عناك بقوله (بسيط)

يبكى علينا ولا نبكى على أحد　　لنحن أغلظ أكباداً من الابل

وفى عبيد الله بن سليمان يقول الشاعر (بسيط)

اذا أبو قاسم جادت يداه لنا　　لم يحمد الاجوادن البحر والمطر
وان مضى رأيه أو حد عزمته　　تأخر الماضيان السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته　　تضاءل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذراً من حد صولته　　لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر
ينال بالظن مايعيي العيان له　　والشاهدان عليه العين والاثر

ومات عبيد الله فى سنة ثمان وثمانين ومائتين * انقضت أيام المعتمد ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده المعتضد بن أخيه ﴾

هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل * بويع سنة تسع وسبعين ومائتين

كان المعتضد شهماً عاقلا فاضلا محمدت سيرته . ولى والدنيا خراب والثغور مهملة فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته وكثرت الاموال وضبطت الثغور وكان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد حاسما لمواد أطماع عسا كره عن أذى الرعية محسناً الى بنى عمه من آل أبى طالب . وكانت أيامه أيام فتوق

وخوارج كثيرين منهم عمرو بن الليث الصفار . كان قد عظم شأنه وفخم أمره واستولى على أكثر بلاد العجم . وكان يقول لو شئت أن أعقد على نهر بلخ جسرا من ذهب لفعلت . وكان مطبخه يحمل على ستمائة جمل فآلت عاقبته الى القيد والاسر والذل . فقام المعتضد فى إصلاح المتشعب من مملكته والعدل فى رعيته حتى مات وفى الخزائن بضعة عشر الف الف دينار الالف مكررة مرتين . ومات سنة تسع وثمانين ومائتين

﴿ شرح الوزارة فى أيامه ﴾

أقرّ عبيد الله بن سليمان على وزارته . وقد مضى نبذة من أخباره . فلما مات عبيد الله عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفى أموالهم فحضر القسم بن عبيد الله واستعان ببدر المعتضدىّ وكتب خطاً بألفى الف دينار فاستوزره المعتضد

﴿ وزارة القسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ﴾

كان القسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء . وكان شهماً فاضلا لبيباً محصلا كريماً مهيباً جباراً . وكان يطعن فى دينه وهو الذى قتل ابن الرومىّ بالسم . وكان ابن الرومىّ منقطعاً اليهم يمدحهم وكانوا يقصرون فى حقه فى بعض الاوقات فهجاهم وكان هجاء . وفى بنى وهب يقول ابن المعتز

(طويل)

لآل سليمان بن وهب صنائع ... لدىّ ومعروف الىّ تقدما
هم ذللوا لى الدهر بعد شماسه ... وهم غسلوا من ثوب والدى الدما

وفى هجائهم يقول بعض الشعراء (بسيط)

اذا رأيت بنى وهب بمنزلة ... لم تدر أيهم الانثى من الذكر

قيص أثناهم ينقد من قبل　　وقمص ذكرانهم تنقد من دبر

ومات المعتضد وهو وزيره * انقضت أيام المعتضد ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه المكتفى بالله ﴾

هو * أبو محمد علىّ بن المعتضد . بويع فى سنة تسع وثمانين ومائتين كان المكتفى من أفاضل الخلفاء هو الذى بنى المسجد الجامع بالرحبة ببغداذ * وفى أيام المكتفى ظهر القرامطة وهم قوم من الخوارج خرجوا وقطعوا الدّرب على الحاج واستأصلوا شأفتهم وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة وسرح المكتفى اليهم جيوشاً كثيرة فأوقع بهم وقتل بعض زعمائهم

والمكتفي هو الذى بنى التاج بالدار الشاطئية ببغداذ . وكانت وفاة المكتفى سنة خمس وتسعين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما مات المعتضد كان المكتفى بالرقة فقام الوزير القسم بن عبيد الله بأخذ البيعة للمكتفي القيام المرضى . وكتب اليه يعلمه ذلك . ووجه اليه بالبردة والقضيب . فجاء المكتفى الى بغداذ وأقرّه على الوزارة ولقبه ألقاباً وجل أمر القسم فى أيام المكتفى وعظم شأنه . فلما أدركته الوفاة أشار على المكتفى بالعباس ابن الحسن فاستوزره

﴿ وزارة العباس بن الحسن ﴾

قال الصولىّ من أعجب ما شاهدت من تقلب الدنيا وتصاريف الامور انى رأيت العباس بن الحسن في أول الاربعاء قبل أن يموت الوزير القسم ابن عبيد الله وقد حضر الى داره وقبل يد ولده . ثم فى آخر اليوم المذكور مات القسم وخلع المكتفى على العباس بن الحسن واستوزره . فجاء ولد الوزير

القسم بن عبيد الله فقبل يده

كان العباس بن الحسن ذا دهاء ومكر وأدب وافر . وكان ضعيفاً في الحساب ولم تكن سيرته محمودة . وكان عاكفاً على لذاته والامور مهملة . وكان يقول لنوابه بالأعمال أنا أوقع اليكم وانتم افعلوا ما فيه المصلحة . ولم تزل الامور تضطرب في أيامه حتى وثب عليه الحسين بن حمدان وجماعة من الجند فقتلوه وذلك في أيام المقتدر * انقضت ايام المكتفي ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده المقتدر بالله ﴾

هو ابو الفضل جعفر بن المعتضد * بويع له بالخلافة في سنة خمس وتسعين ومائتين وعمره ثلاث عشرة سنة

وكان المقتدر سمحاً كريماً كثير الانفاق . ردّ رسوم الخلافة من التجمل وسعة الادرارات . والمعاش وكثرة الخلع والصلات . كان في داره احد عشر الف خادم خصي من الروم والسودان وكانت خزانة الجوهر في أيامه مترعة بالجواهر النفيسة . فمن جملتها الفص الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة الف دينار والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل الى غير ذلك من الجواهر النفيسة ففرّقه جميعه وأتلفه في أيسر مدة * في أيامه قتل الحلاج

(شرح الحال في ذلك)

كان الحلاج واسمه الحسين بن منصور ويكنى أبا المغيث . أصله مجوسي من أهل فارس ونشأ بواسط وقيل بتستر وخالط الصوفية وتلمذ لسهل التستريّ . ثم قدم بغداذ ولقي أبا القسم الجنيدي . وكان الحلاج مخلطاً يلبس الصوف والمسوح تارة . والثياب المصبغة تارة . والعمامة الكبيرة والدرّاعة تارة . والقباء وزيّ الجند تارة . وطاف بالبلاد ثم قدم في آخر الامر بغداذ وبنى بها داراً

. واختلفت أراء الناس واعتقاداتهم فيه وظهر منه تخليط وتنقل من مذهب الى مذهب واستهوى العامة بمخاريق كان يعتمدها . منها انه كان يحفر فى بعض قوارع الطرقات موضعا ويضع فيه زقا فيه ماء ثم يحفر فى موضع آخر ويضع فيه طعاما . ثم يمر بذلك الموضع ومعه أصحابه فيحتاجون هناك الى ماء يشربونه ويتوضؤن به فيأتى هو الى ذلك الموضع الذى قد حفره وينبش فيه بعكاز فيخرج الماء فيشربون ويتوضؤن ثم يفعل كذلك فى الموضع الآخر عند جوعهم فيخرج الطعام من بطن الارض . يوهمهم أن ذلك من كرامات الاولياء وكذلك كان يصنع بالفواكه يدخرها ويحفظها ويخرجها فى غير وقتها فشعف الناس به . وتكلم بكلام الصوفة . وكان يخلطه بما لا يجوز ذكره من الحلول المحض وله أشعار فمنها (هزج)

حبيبى غير منسوب الى شىء من الحيف
سقانى مثلما يشر ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين فى الصيف

وكثر شعف الناس به وميلهم اليه حتى كانت العامة تستشفى ببوله . وكان يقول لاصحابه أنتم موسى وعيسى ومحمد وآدم انتقلت أرواحهم اليكم فلما نمى هذا الفساد منه تقدم المقتدر الى وزيره حامد بن العباس باحضاره ومناظرته فأحضره الوزير وجمع له القضاة والأئمة ونوظر فاعترف بأشياء أوجبت قتله فضرب الف سوط على أن يموت فما مات فقطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وقال لاصحابه عند قتله لا يهولنكم هذا فانى أعود اليكم بعد شهر * قالوا وأنشد قبل قتله (وافر)

طلبت المستقرّ بكل أرض فلم أر لى بأرض مستقرّا
أطعت مطامعى فاستعبدتنى ولو أنى قنعت لكنت حرّا

وذلك فى سنة تسع وثلاثمائة وقبره ببغداذ بالجانب الغربى قريب من مشهد معروف بالكرخىّ رضى الله عنه * وفى تلك الايام اقتلع القرامطة الحجر الأسود ومكث فى أيديهم أكثر من عشرين سنة حتى رد على يد الشريف يحيى بن الحسين بن أحمد بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام . واعلم ان دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الاموال واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قتل * وفى تلك الايام نبعت الدولة الفاطمية بالمغرب

﴿ شرح حال الدولة العلوية وابتدائها وانتهائها على سبيل الاختصار ﴾

هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها وطالت مدتها فكان ابتداؤها حين ظهر المهدى بالمغرب فى سنة ست وتسعين ومائتين وانتهاؤها فى سنة سبع وستين وخمس مائة . وكادت هذه الدولة أن تملك ملكا عاماً وان تدين الامم لها . واليها أشار الرضى الموسوىّ قدس الله روحه بقوله (خفيف)

ما مقامى على الهوان وعندى مقول قاطع وأنف حمىّ
وإباء محلّق بى عن الضيم كما زاغ طائر وحشىّ
أحمل الضيم فى بلاد الاعادى وبمصر الخليفة العلوىّ
من أبوه أبى ومولاه مولا ى اذا ضامنى البعيد القصىّ
لفّ عرقى بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلىّ

ان ذلى بذلك الجو عزّ وأوامى بذلك الربع رى

《شرح ابتداء هذه الدولة》

أول خلفائهم المهدىّ بالله وهو أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن اسمعيل الثالث ابن أحمد بن اسمعيل الثانى ابن محمد بن اسمعيل الاعرج بن جعفر الصادق عليهم السلام. وقد روى نسبهم على صورة أخرى وفيه اختلاف كثير. والصحيح انهم علويون اسماعيليون صحيحو الاتصال. وهذه الصورة التى أوردتها هاهنا هى المعول عليها وبها خطوط مشايخ النسابين

وكان المهدى من رجال بنى هاشم فى عصره * قيل انه ولد ببغداذ سنة ستين ومائتين. وقيل ولد بسلمية. ثم وصل الى مصر فى زى التجار وأظهر امره بالمغرب ودعا الناس الى نفسه فمالوا اليه وتبعه خلق كثيرون وسلموا عليه بالخلافة وقويت شوكته وعظم حاله. ثم انفصل الى ارض القيروان وبنى مدينة سماها المهدية واستقر بها وملك افريقية وبلاد المغرب وتلك النواحى جميعها. ثم ملك الاسكندرية وجبى خراجها وخراج بعض الصعيد. وتوفى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ثم تسلم الخلافة منه واحد بعد واحد حتى انتهت النوبة الى العاضد آخر خلفائهم. وهو أبو محمد عبد الله بن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله

(شرح انتهائها)

بويع العاضد فى سنة خمس وخمسين وخمس مائة وهو طفل. فقام بأمر دولته الامراء والوزراء حتى توجه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين يوسف بن أيوب الى مصر لما ظهر من اختلال احوال الدولة لصغر الخليفة واختلاف آراء وزرائه وامرائه. وسار صلاح الدين مع عمه اسد الدين شيركوه

كارها فلم تطل مدة اسد الدين شيركوه فمات فاستولى صلاح الدين على المملكة واستوزره العاضد وخلع عليه خلع الوزارة فى سنة اربع وستين وخمس مائة. وتمكن صلاح الدين من الدولة وقدم عليه اهله فأقطعهم الاقطاعات السنية وأزال ايدى أصحاب العاضد وتفرد بالحكم ومرض العاضد وتطاولت امراضه. ثم مات فى سنة سبع وستين وخمس مائة واحجم الناس فيمن يدعى له بالخلافة على المنابر

فلما كان يوم الجمعة صعد رجل اعجمى الى المنبر وخطب وذكر الخليفة المستضئ فلم ينكر أحدعليه واستمر الحال فى مصر بالخطبة للعباسيين وانقرضت دولة الفاطميين منها واستقل صلاح الدين يوسف بن أيوب بملك مصر من غير منازع وحبس من كان تخلف من أقارب العاضد وقبض على الخزائن والاموال .ومن جملتها الجبل الياقوت وزنه ستة عشر مثقالا. قال ابن الأثير المؤرخ أنا رأيته ووزنته ومن جملتها نصاب زمرد طوله أربع أصابع فى عرض عقد .ووجدوا طبلا بالقرب من موضع العاضد فظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد فضرب به إنسان فضرط ثم ضرب به آخر فجرى له كما جرى لصاحبه فصار كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم من يده فكسره واذا الطبل قد عمل لاجل القولنج فندموا على كسره..وكان ذلك فى أيام الخليفة المستضئ من بنى العباس فوردت البشائر اليه بفتح مصر وباقامة الخطبة له بها فأظهر السرور ببغداد وهناه الشعراء وأرسل المستضئ تقاليد السلطنة الى صلاح الدين بالتفويض والتحكيم فسبحان من يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

﴿ رجعنا الى تتمة خلافة المقتدر ﴾

وخلع المقتدر وبويع عبد الله بن المعتز فمكث يوماً واحداً فى الخلافة

ثم استظهر المقتدر عليه فأخذه وقتله ولم يعد عبد الله بن المعتز فى الخلفاء لقصر الزمان الذى تولى فيه * وجرت بين المقتدر وبين مؤنس المظفر أمير الجيوش منافرة أدت الى حرب قتل فيها المقتدر وقطع رأسه وحمل الى بين يدى مؤنس المظفر ومكثت جثته مرمية على قارعة الطريق فيقال انه اجتاز به رجل شوكىّ فرأى سوءته بادية فألقى عليها حزمة شوك فغطاها بها. وذلك فى سنة عشرين وثلاثمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما جلس المقتدر على سرير الخلافة اقر العباس بن الحسن وزير أخيه المكتفى على وزارته فلما قتل العباس بن الحسن وجرت الفتنة بين المقتدر وبين عبد الله بن المعتز واستظهر المقتدر أحضر ابن الفرات واستوزره

﴿ وزارة ابن الفرات ﴾

قال الصولى هم من صريفين من أعمال دجيل قال وبنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرماً ونبلا ووفاء ومروءة . وكان هذا أبو الحسن علىّ بن الفرات من أجل الناس وأعظمهم كرماً وجوداً . وكانت أيامه مواسم للناس وكان المقتدر لما جرت له الفتنة وخلع وبويع ابن المعتز ثم استظهر المقتدر عليه واستقرت الخلافة للمقتدر راسل الى أبى الحسن علىّ بن الفرات فأحضره واستوزره وخلع عليه فنهض بتسكين الفتنة أحسن نهوض ودبر الدولة فى يوم واحد وقرر القواعد واستمال الناس ولم يبت تلك الليلة الا والأمور مستقيمة للمقتدر وأحوال دولته قد تمهدت * وفى ذلك يقول بعض شعراء الدولة المقتدرية (متقارب)

ودبرت فى ساعة دولة تميل بغيرك فى أشهر

وتولى ابن الفرات الوزارة ثلاث دفعات للمقتدر قالوا كان اذا ولى ابن الفرات الوزارة يغلو الشمع والثلج والكاغد لكثرة استعماله لذلك لانه ما كان يشرب أحد كائناً من كان فى داره فى الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد المغرب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية صغيراً كان أو كبيراً وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخل واحتاج الى شيء من الكاغد أخذ حاجته منها

حدث عنه أنه قال مارأيت أحداً ببابى من أرباب الحوائج الا كان اهتمامى بالاحسان اليه أشد من اهتمامه قال. وكان قبل الوزارة يجعل لجلسائه وندمائه مخاد يتكئون عليها فلما ولى الوزارة لم يحضر الفراشون للندماء والجلساء تلك المخاد فأنكر ذلك عليهم وأمر باحضار المخاد وقال لا يرانى الله يرتفع شأنى بحط منزلة أصحابى. ولما جرت فتنة ابن المعتز واستظهر المقتدر واستوزر أبا الحسن بن الفرات أحضرت الى ابن الفرات رقاع من جماعة أرباب الدولة تنطق بميلهم الى ابن المعتز وانحرافهم عن المقتدر فأشار عليه بعض الحاضرين بان يفتحها ويطالعها ليعرف بها العدو من الصديق فأمر ابن الفرات باحضار الكانون وفيه نار فلما أحضر جعل تلك الرقاع فيه بمحضر من الناس ولم يقف على شئ منها وقال للحاضرين هذه رقاع أرباب الدولة فلو وقفنا عليها تغيرت نياتنا لهم ونياتهم لنا فان عاقبناهم أهلكنا رجال الدولة. وكان فى ذلك أتم الوهن على المملكة وان تركناهم كنا قد تركناهم ونياتهم متغيرة. وكذلك نياتنا فلا ننتفع بهم وما زال ابن الفرات ينتقل فى الوزارة الى المرة الثالثة فقبض عليه وقتل وذلك فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة

﴿ وزارة الخاقانى ﴾

هو أبو علي محمد بن عبيد الله بن يحيي بن خاقان . لما قبض المقتدر على ابن الفرات في المرة الاولى أحضره . وكان خائفاً من ابن الفرات فطيب قلبه واستوزره وخلع عليه خلع الوزارة

كان الخاقانيّ سيء السيرة والتدبير كثير التولية والعزل . قيل انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدر واحد واحد حتى اجتمعوا جميعهم في بعض الطريق فقالوا كيف نصنع فقال احدهم إن أردتم النصفة فينبغي أن نحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الاخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم في عدة أعمال وهجاه الشعراء . فمما قيل فيه (خفيف)

للدواوين مذ وليت عويل ولمال الخراج سقم طويل
يتلقى الخطوب حين ألمت منك رأى غث وعقل ضئيل
ان سمنتم من الخيانة والجو ر فللأرتفاع جسم نحيل

ومما قيل فيه (وافر)

وزير لايمل من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا أهل الرشا صاروا اليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه

وقبض المقتدر عليه وحبسه واستوزر عليّ بن عيسى بن الجراح

﴿ وزارة على بن عيسى للمقتدر ﴾

كان على بن عيسى شيخاً من شيوخ الكتاب فاضلا دينا ورعا متزهدا متورعاً . قال الصوليّ وما أعلم انه وزر لبني العباس وزير يشبه عليّ بن عيسى

فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته ومبراته * قالوا كان دخل على بن عيسى من ضياعه فى كل سنة نيفا وثمانين الف دينار ينفق نصفها على الفقراء والضعفاء ونصفها على نفسه وعلى عياله وأصحابه ونهض بأمور الوزارة وضبط الدواوين والاعمال وقرر القواعد وكانت أيامه أحسن أيام وزير * قالوا ما كان يعاب علىّ بن عيسى بشىء أكثر من قولهم إنه كان ينظر كثيراً فى جزئيات الامور فربما شغلته عن الكليات ولما ولى الوزارة فشت صدقاته ومبراته ووقف وقوفا كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديوانا سماه ديوان البر . جعل حاصله لاصلاح الثغور وللحرمين الشريفين . وكان يجلس لرد المظالم من الفجر الى العصر واقتصر على أقلّ الطعام وأخشن الملبوس . وولى الوزارة للمقتدر مراراً كان هو وابو الحسن على بن الفرات يتناوبان الوزارة مرة هذا ومرة ذاك

﴿ وزارة حامد بن العباس ﴾

كان حامد يتولى دائماً أعمال السواد ولم يكن له خبرة بأعمال الحضرة وكان كريماً مفضالا متجملا جميل الحاشية رئيساً فى نفسه غزير المروءة قاسى القلب فى استخراج المال قليل التثبت سريع الطيش والحدة الا أن كرمه كان يغطى على ذلك

. حدث عنه أنه دخل مرة الى دار المقتدر فطلب منه بعض خواص الخليفة شعيراً لدوابه فأخذ الدواة ووقع له بمائة كر . فقال له آخر من الخواص أنا أيضاً محتاج الى عليق لدوابى فوقع له بمائة كر وما زال يطلب منه واحد واحد من خواص الخليفة وهو يوقع حتى فرق الف كر فى ساعة واحدة . ولما عرف المقتدر قلة فهم حامد وقلة خبرته بأمور الوزارة أخرج اليه علىّ بن

عيسى بن الجراح من الحبس وضمه اليه وجعله كالنائب له فكان علىّ بن عيسى لخبرته هو الاصل. فكل مايعقده ينعقد وكل مايحله ينحل . وكان اسم الوزارة لحامد وحقيقتها لعلى بن عيسى حتى قال بعض الشعراء (كامل)

قل لابن عيسى قولة　　يرضى بها ابن مجاهد
أنت الوزير وانما　　سخروا بلحية حامد
جعلوه عندك سترة　　لصلاح أمر فاسد
مهما شككت فقل له　　كم واحداً فى واحد

وكان حامد يلبس السواد ويجلس فى دست الوزارة وعلىّ بن عيسى يجلس بين يديه كالنائب وليس عليه سواد ولا شيء من زىّ الوزراء الا أنه هو الوزير على الحقيقة* فقال بعض الشعراء (منسرح)

أعجب من كل مارأينا　　أن وزيرين فى بلاد
هذا سواد بلا وزير　　وذا وزير بلا سواد

ثم عزل حامد واستوزر المقتدر بعده على بن الفرات وسلمه اليه فقتله سراً

﴿ وزارة ابى القسم عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ﴾

لم تطل أيامه . ولم تكن له سيرة تؤثر وتسطر . واختلت الامور عليه فصودر وعزل . ثم توفى فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة

﴿ وزارة أبى العباس أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب للمقتدر ﴾

كان صالح الأدب جيد العقل مليح الخط بليغاً يذاكر بجميل الاخبار والاشعار . كان السبب فى ولايته أمراً عجيباً وهو أن أبا العباس المذكور كان يلاطف أصحاب المقتدر ويتودد اليهم ويهاديهم وكانوا يحبونه ويتعصبون له

دائماً ويصفونه عند المقتدر فاتفق أن حصل فتق من الفتوق ببعض الجهات فجهز المقتدر جيشاً وأرسله صحبة بعض أمرائه الى تلك الجهة . ثم كان المقتدر شديد التطلع الى أخبار هذا الجيش فأرسل ابن الخصيب طيوراً صحبة بعض ثقاته مع الجيش . وقال لصاحبه سرح كل يوم طيوراً وعليها الاخبار ساعة فساعة . فكانت ترد الاخبار على الطيور الى أحمد بن عبيد الله بن الخصيب فيعرضها على المقتدر ساعة بعد ساعة حتى ان المقتدر لم يفته من أمر الجيش شيء فتعجب المقتدر من ذلك . وقال من أين يعلم أحمد بن الخصيب أخبار هذا الجيش فعرف الصورة . وقيل له من تسمو همته الى مثل هذا وليس له تعلق بهذه القضية فكيف يكون جده واجتهاده اذا صار وزيراً فاستوزره

قالوا وكان ابو العباس أحمد بن عبيد الله بن الخصيب عفيفاً متورعا عن مال السلطان والرعية مجانباً للخيانة محافظا على الامانة ثم ضعف أمره وانحرفت عنه السيدة أم المقتدر . وكان كاتبها قبل الوزارة فعزل وقبضت أمواله . وذلك فى سنة أربع عشرة وثلاثمائة

﴿ وزارة أبى علىّ محمد بن على بن مقلة للمقتدر ﴾

هو صاحب الخط الحسن المشهور الذى تضرب بحسنه الامثال . وهو أول من استخرج هذا الخط ونقله من الوضع الكوفىّ الى هذا الوضع وتبعه بعده ابن البواب . كان فى ابتداء أمره يخدم فى بعض الدواوين فى كل شهر بستة دنانير . ثم انه تعلق بأبى الحسن بن الفرات الوزير واختص به . وكان ابن الفرات كالبحر سماحا وجوداً فرفع من قدره وأعلى من شأنه فكث بين يديه يعرض عليه رقاعا فى مهمات الناس وينتفع بسبب ذلك . وكان ابن الفرات يأمره بالتحصيل من هذه الجهة إيثاراً لنفعه فما زال على ذلك حتى علت حاله

وكثر ماله . ولما ولى ابن الفرات الوزارة الثانية تمكن ابن مقلة فى دولته ونبعت حاله وعرض جاهه . ثم ان الشيطان نزغ بينه وبين أبي الحسن عليّ ابن الفرات فاستوحش كل منهما من صاحبه فكفر ابن مقلة إحسان ابن الفرات ودخل فى جملة أعدائه والسعاة عليه حتى جرت النكبة على ابن الفرات فلما رجع ابن الفرات الى الوزارة قبض عليه وصادره على مائة الف دينار أدتها عنه زوجته. وكانت ذات مال طائل وكانت لابن مقلة يد طولى فى الكتابة والانشاء وكانت توقيعاته غير مذمومة فى فنها وله شعر فمنه

(سريع)

جرنى الدهر على صرفه ... فلم أخر عند التصاريف
ألفت يوميه ويا ربما ... يؤلف شيء غير مألوف

حدث ابو عبد الله أحمد بن اسماعيل المعروف بزنجى كاتب ابن الفرات قال لما نكب ابن مقلة وحبس لم أدخل اليه فى محبسه ولا كاتبته ولا توجعت له على ما بيني وبينه من المودة والصداقة خوفا من ابن الفرات . فلما طالت به المحنة كتب اليّ رقعة فيها (طويل)

ترى حرمت كتب الاخلاء بينهم ... أبن لى أم القرطاس أصبح غاليا
فما كان لو سائلتنا كيف حالنا ... وقد دهمتنا نكبة هى ما هيا
صديقك من راعاك فى كل شدة ... وكلا تراه فى الرخاء مراعيا
فهبك عدوى لا صديقى فاننى ... رأيت الاعادى يرحمون الاعاديا

ومن شعره ما كتب به الى ولده وقد مرض (كامل)

لقاك ربك صحة وسلامة ... ووقاك بى من طارق الاهواء
ذكرت شكاتك لى وكأسى في يدى ... فمزجتها دمعى مكان الماء

ومن شعره (خفيف)

لست ذا ذلة اذا غضنى الدهـــر ولا شامخا اذا واتانى
أنا نار في مرتقى نفس الحا سد ماء جار مع الاخوان

استوزره المقتدر وخلع عليه خلع الوزارة فى سنة ست عشرة و
واستقل بأعباء الوزارة أمراً ونهيا وبذل فيها ما مبلغه خمس مائة الف
ثم عزل وقبض عليه ثم أعيد . وما زال تتقلب به الاحوال حتى استوزره
الراضى . ثم جرت خطوب أوجبت أن الراضى حبسه بداره وضيق عليه
وسعى به أعداؤه الى الراضى وخوفوه من غائلته فقطع يده اليمنى ومكث فى
الحبس مدة مقطوع اليد . وكان ينوح على يده ويقول يد كتبت بها كذا وكذا
مصحفاً وكذا وكذا حديثاً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
ووقعت الى شرق الارض وغربها تقطع كما تقطع أيدى اللصوص

ومن شعره يشير الى قطع يده (خفيف)

ما مللت الحياة لكن توثقـــت بأيمانهم فبانت يمينى
ثم أحسنت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتى بانت يمينى فبينى

وفى ذلك يقول بعض الشعراء (طويل)

لئن قطعوا احدى يديه مخافة لاقلامه لا للسيوف الصوارم
فما قطعوا رأيا اذا ما أجاله رأيت الردى بين اللها والغلاصم

ولما قطع الراضى يد ابن مقلة كتب باليسار مثلما كان يكتب باليمين .
ثم شد على يده المقطوعة قلما وكتب بها فلم يفرق بين خطه قبل قطعها وبعده
ومن الاتفاقات العجيبة انه تولى الوزارة ثلاث دفعات وسافر ثلاث

دفعات ودفن ثلاث دفعات دفن بدار الخليفة لما قتل بها . وذلك بعد قطع يده بمديدة . ثم سأل أهله تسليمه اليهم فنبش وسلم اليهم فدفنوه . ثم طلبته زوجته فنبشته ودفنته بدارها

﴿وزارة ابى القسم سليمان بن الحسن بن مخلد للمقتدر﴾

لم يكن له سيرة تؤثر وتروى ولم يكن من ذوى الالب . وانما نال ما نال بالجد والبخت

قيل انه دخل مرة على القسم بن عبيد الله وزير المعتضد والمكتفى فرحب به الوزير وأقبل عليه بوجهه وأكرمه اكراماً خارجاً عن العادة لأمثاله فسئل الوزير عن سبب ذلك . فقال رأيت فى منامى كأنّ على رأسى قلنسوة . وقد أخذها هذا وجعلها على رأسه ولا بد أن هذا الفتى يلى الوزارة فكان كما قال ولم تحمد سيرته فى وزارته

وكان المقتدر لما عزل ابن مقلة استشار علىّ بن عيسى بن الجراح فيمن يستوزره فأشار عليه بهذا فاستوزره فى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة ثم قبض عليه واستوزر الكلوذانى

﴿وزارة أبى القسم عبيد الله بن محمد الكلوذانى للمقتدر﴾

لم تطل أيامه ولم يتمكن مما أراد وكثرت المصادرات فى أيامه وشغب الجند عليه وشتموه ورجموه وهو فى السفينة . فحلف انه لا يدخل بعد ذلك فى الوزارة وانقطع بداره وأغلق بابه فكانت وزارته مدة شهرين

﴿وزارة الحسين بن القسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب للمقتدر﴾

كان يقال له أبو الجمال قيل انه أعرق الناس فى الوزارة . هو وزير المقتدر . وأبوه القاسم وزير المعتضد والمكتفى . وجده عبيد الله وزير المعتضد

وأبو جده سليمان بن وهب وزير المهتدى وفى ذلك يقول الشاعر له

(رمل)

يا وزير بن وزير بن وزير بن وزير
نسقاً كالدر اذ نظم فى عقد النحور

لم يكن الحسين بن القسم بارعا فى صناعته ولا شكرت سيرته فى وزارته ولم تطل له المدة حتى عجز واختلت الاحوال عليه مدحه عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر بقوله

(خفيف)

ان اكن مهديا لك الشعر انى ... لابن بيت تهدى له الاشعار
غير أنى أراك من أهل بيت ... ما على المرء أن يسودوه عار

وهجاه جحظة بقوله

(وافر)

اذا كان الوزير أبا الجمال ... ومحتسب البلاد الدانيالى
فعد عن البلاد فعن قليل ... ترى الايام فى صور الليالى
تقضت بهجة الدنيا وولت ... وآذن كل شىء بارتحال

ولما ظهر للمقتدر نقصه وعجزه قبض عليه وصادره . ثم بقى الى أيام الراضى وأبعد عن العراق . فلما تولى ابن مقلة الوزارة تقدم بقتله وأرسل اليه من قطع رأسه وحمل رأسه الى دار الخلافة فى سفط فجعل السفط فى الخزانة . وكانت لهم عادة بمثل ذلك

فحدث أنه لما وقعت الفتنة ببغداذ فى أيام المتقى أخرج من الخزانة سفط فيه يد مقطوعة ورأس مقطوع وعلى اليد رقعة ملصقة عليها مكتوب هذه اليد يد ابى علىّ بن مقلة وهذا الرأس رأس الحسين بن القسم وهذه اليد هى التى وقعت بقطع هذا الرأس فعجب الناس من ذلك

﴿وزارة أبى الفضل جعفر بن الفرات﴾

لم تطل أيامه ولم تكن له سيرة مأثورة وقتل المقتدر وهو وزيره فاستتر انقضت أيام المقتدر ووزرائه

﴿ثم ملك بعده أخوه القاهر﴾

هو أبو منصور محمد بن المعتضد * بويع سنة عشرين وثلاثمائة

وكان مهيبا مقداما على سفك الدماء أهوج محبا لجمع الاموال ردىء السياسة صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر وصادر أم المقتدر فعلقها برجل واحدة منكسة الرأس وعذبها بصنوف عظيمة من الضرب والاهانة واستخرج منها مائة وثلاثين الف دينار وبقيت بعد ذلك أياما قليلة وماتت حزنا على ولدها ومما جرى عليها من العذاب

وفى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة خلع القاهر

وكان سبب ذلك أن وزيره ابن مقلة كان قد استتر خوفاً منه فكان يفسد عليه قلوب الجند ويحذرهم منه وحسن لهم أن هجموا عليه وخلعوه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه. ثم حبس فى دار السلطنة ومكث فى الحبس مدة. ثم أخرج منه عند تقلب الاحوال وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنه فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس وقصد بذلك التشنيع على المستكفى فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمس مائة درهم * ولم يجر فى أيامه من الحوادث المشهورة ما يؤثر

﴿شرح حال الوزارة فى أيامه﴾

استوزر ابن مقلة وزير أخيه. وهى الوزارة الثانية وقد تقدم شرح طرف من سيرته فلا حاجة الى اعادته * ثم استوزر محمد بن القسم بن عبيد الله بن

سليمان بن وهب ولم يتمكن من الوزارة ولا طالت أيامه. ثم قبض عليه ونكبه واتفق أن عرض له قولنج فمات بعقب ذلك * انقضت أيام القاهر ووزرائه

فى تلك الايام نبعت الدولة البويهية

(شرح حال دولة آل بويه وابتدائها وانتهائها)

أما نسبهم فيرتفع من بويه الى واحد واحد من ملوك الفرس حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل عليه السلام وكذلك الى آدم أبى البشر وليسوا من الديلم وانما سموا بالديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم

أما ابتداؤها فانها دولة نبعت بما لم يكن فى حساب الناس ولم يخطر بعضه ببال أحد فدوخت الامم وأذلت العالم واستولت على الخلافة. فعزلت الخلفاء وولتهم. واستوزرت الوزراء وصرفتهم. وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق. وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق. هذا بعد الضيق والفقر والذل والمسكنة ومعاناة الحاجة والاضطهاد فان جدهم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم. وكان بويه صياد السمك وقد كان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول كنت أحتطب الحطب على رأسى

فكان من مبدإ دولتهم ما حدث به شهريار بن رستم الديلمى. قال كان أبو شجاع بويه فى مبدإ أمره صديقاً لى فدخلت عليه يوماً وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد وهم عماد الدولة أبو الحسن علىّ وركن الدولة أبو علىّ الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد. وقد اشتد حزن أبى شجاع بويه على زوجته فعزيته وسكنت قلقه ونقلته الى منزلى وحضرت له طعاماً وجمعت اليه أولاده الثلاثة فبينا هم عندى اذ مر بالباب شخص يقول

المنجم المعزم . مفسر المنامات . كاتب الرق والطلسمات . فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له قد رأيت البارحة رؤيا فقسرها لى . رأيت كأنى أبول ويخرج من ذكرى نار عظيم ثم انها استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفرجت فصارت ثلاث شعب وتولد من تلك الشعب عدة شعب فأضاءت الدنيا بتلك النيران . فقال المنجم هذا منام عظيم ولا افسره إلا بخلعة وفرس فقال له بويه والله ما أملك إلا الثياب التى على جسدى وان أعطيتك إياها بقيت عرياناً قال المنجم فعشرة دنانير فقال له بويه والله ما أملك دينارين فكيف عشرة ثم انه أعطاه شيئاً يسيراً . فقال المنجم اعلم انه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الارض ومن عليها ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب المتفرقة فقال له بويه أما تستحي تسخر بنا أنا رجل فقير مطر وأولادى هؤلاء فقراء مساكين فمن أين هم والملك فقال له المنجم فأخبرنى عن وقت ولادة واحد واحد من أولادك فأخبره بويه بذلك فجعل ينظر فى أصطرلابه وتقاويمه . ثم نهض المنجم وقبل يد عماد الدولة أبى الحسن علىّ وقال هذا والله الذى يملك البلاد ثم يملك هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبى علىّ الحسن فاغتاظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده اصفعوه فقد أفرط فى السخرية بنا فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم لا بأس بهذا اذا ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف

وأما ترقى أولاد أبى شجاع بويه فانهم دخلوا فى زى الاجناد وانضافوا الى العساكر وما زالوا ينتقلون فى خدمة ملوك العجم من واحد الى واحد ومن حال الى حال حتى ارتفع حال عماد الدولة وتولى الكرج ولاه إياها

مرداويج. ثم تنقل منها الى غيرها حتى تملك قطعة من أعمال فارس. ثم عرضت مملكته حتى كتب الى الراضى الخليفة يسأله أن يقاطعه على أعمال فارس فى كل سنة بعد النفقات والاطلاقات بما يحمله الى دار الخلافة وهو ثمانى مائة الف الف درهم على أن يبعث الخليفة اليه بخلعة السلطنة والمنشور فبعث الراضى اليه بذلك على يد رسول ارسله اليه وأوصاه أن لا يسلم الخلعة والمنشور اليه حتى يقبض منه المال فلما وصل الرسول اليه غالطه وأخذ الخلعة منه فلبسها والمنشور فقرأه على رؤس الاشهاد وقويت نفسه بذلك ووعد الرسول بالمال ودافعه مدة. فمات الرسول عنده وتقلبت الاحوال بالخلافة فكسر المال واستبد بالامر * وكان عماد الدولة اول ملوكهم ثم ملك منهم واحد بعد واحد حتى انقضت دولتهم

وأما انتهاؤها ففى آخر أمرها ضعف حالها وما زال يتزايد ضعفها حتى انتهت نوبة الملك الى عز الدولة بن جلال الدولة أبى طاهر فجرى بينه وبين كاليجار حروب أفضت الى انه هرب منه وأقام بشيراز. ومات فى سنة احدى وأربعين وأربع مائة وعليه انقرض ملكهم

﴿ ثم ملك بعد القاهر ابن أخيه الراضى بالله ﴾

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد * بويع فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

كان شاعراً فصيحاً لبيباً ختم الخلفاء فى أشياء. منها أنه آخر خليفة دون له شعر. وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك. وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة. وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه العلماء. وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين

وفى أيامه سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عظم أمر مرداويج باصفهان وهو رجل خرج بتلك النواحي . وقيل انه يريد أن يأخذ بغداذ وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب فورد الخبر فى أيام الراضى بأن غلمان مرداويج اتفقوا عليه فقتلوه

وفى أيام الراضى ارتفع أمر ابى الحسن على بن بويه

وفى أيام الراضى ضعف أمر الخلافة العباسية . فكانت فارس فى يد على ابن بويه والرى واصفهان والجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه . والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان . ومصر والشأم فى يد محمد بن طغج . ثم فى أيدى الفاطميين . والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الاموى وخراسان والبلاد الشرقية فى يد نصر بن احمد السامانى * وكانت وفاة الراضى فى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه ابو على بن مقلة . وهى الوزارة الثالثة من وزارات ابن مقلة بذل فيها خمس مائة الف دينار حتى استوزره الراضى ثم شغب الجند وجرت فتنة أوجبت عزله فعزله الراضى واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح وقد مضى من أخبار ابن مقلة مافيه كفاية

﴿ وزارة عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح ﴾

لما قبض الراضى على بن مقلة أحضر على بن عيسى بن الجراح وأراده على الوزارة فأبى وامتنع وأظهر العجز فاستشاره فيمن يوليه فأشار بأخيه عبد الرحمن بن عيسى فأحضره وقلده الوزارة وركب والموكب بين يديه . ثم لم تطل أيامه واختلت الأمور عليه فاستعفى من الوزارة فقبض عليه ولم يكن

له سيرة تؤثر

﴿ وزارة ابى جعفر محمد بن القسم الكرخى للراضى بالله ﴾

لما قبض الراضى على عبد الرحمن بن عيسى استوزر أبا جعفر محمد بن القسم الكرخى . وكان قصيراً جداً فى غاية القصر فاحتاجوا انهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة اربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة . وتطير الناس من ذلك وقالوا هذا مؤذن بنقض الدولة . فكان الامر كما قالوا عليه . واختلفت الاحوال واضطربت الأمور لديه . فاستتر . قالوا لما أراد الاستتار قلع رأس مزملة وجلس فيها وأخرجت المزملة على أنها مزملة وهو فى وسطها وما زال مستترا حتى ظهر وصودر ثم خلص

﴿ وزارة سليمان بن الحسن بن مخلد للراضى بالله ﴾

لما عجز الكرخى عن النهوض باعباء الوزارة واستتر أحضر الراضى بالله سليمان بن الحسن بن مخلد واستوزره وخلع عليه خلع الوزارة . ثم انه عجز عن تدبير الأمور لتغلب أصحاب السيوف على المملكة . فلما رأى الخليفة الراضى عجز وزيره سليمان بن الحسن بن مخلد أرسل الى ابن رائق وهو اكبر الامراء فاستماله وسلم الامور اليه ورتبه أمير الامراء وكلفه تدبير المملكة فانضم اليه أمراء العسكر وصاروا حزباً واحداً وحضروا بين يدى الخليفة فاجلسهم فوق الوزير واستبد ابن رائق أمير الامراء بالامور وولى النظار والعمال ورفعت المطالعات اليه ورد الحكم فى جميع الأمور الى نظره ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير * ومن تلك الايام اضطهدت الخلافة العباسية وخرجت الامور منها واستولى الاعاجم والامراء وأرباب السيوف على الدولة وجبوا الاموال وكفوا يد الخليفة وقرروا له شيئاً يسيراً

وبلغة قاصرة ووهن من يومئذ أمر الخلافة

« وزارة ابي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات للراضي بالله »

لما استولى أمير الامراء ابن رائق على الامور أشار على الراضي بالله بأن يولي الوزارة للفضل بن جعفر بن الفرات ظناً منه أنه يجتذب له الاموال فأحضره الراضي وقلده الوزارة

حدث أبو الحسن بن ثابت بن سنان عن أبي الحسن عليّ بن هشام . قال لما تقلد الفضل بن جعفر بن الفرات الوزارة لقيت ابن مقلة . وكان معزولا مستتراً فقلت له يقبح بك ياسيدنا أن تتأخر عن لقاء هذا الوزير وتهنئته بوزارته . فقال ما آمنه ولا لي حاجة الى الاجتماع به . فقلت ينبغي أن تكتب اليه رقعة تعتذر فيها عن تأخرك وتهنئه تهنئة تقوم مقام حضورك فقال أخاف أن يجيبني بما يستدعي حضوري وأنشدني لنفسه

(متقارب)

وقائلة قد أضعت الصواب ... بتركك هذا الوزير الجديد
فقلت لها لاعداك السرور ... ولا كان قولك الا سديدا
أمثلي تطاوعه نفسه ... على أن يرى خاضعاً مستزيدا

كان رجلا متهوراً . وسيع الصدر . شريف النفس . عالي الهمة تنقل في الخدمات وتقلبت به الاحوال من عسر ويسر ومصادرة وعزل حتى أدى به سعة صدره وقوة نفسه وكبر همته الى جمع العساكر وركوب الاخطار . ثم تغلب على أعمال خورستان والبصرة فاستوزره الراضي ثم عزله وقلد الوزارة سليمان بن الحسن بن مخلد . وقد مر ذكره فلا حاجة الى اعادته وهو آخر وزرائه * انقضت أيام الراضي بالله ابن المقتدر ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده أخوه المتقى لله أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر بالله ﴾

بويع له سنة تسع وعشرين وثلاثمائة . ولم يكن له من السيرة ما يؤثر واضطربت عليه الامور . واستولى عليه رجل من أمراء الديلم يقال له توزون فهرب المتقى ومعه ابنه وأهله الى الموصل خوفاً على نفسه من حرب ببغداذ

وجرت فى تلك الايام حروب وفتن . ونهبت دار الخلافة وأخذ ما كان بها ثم ان توزون كتب الى المتقى يستميله وحلف له أيماناً غليظة أنه لا ينال مكروه من جهته فاغتر المتقي بذلك وانحدر من الموصل الى بغداذ ووصل الى السندية من نهر عيسى فخرج توزون الى تلقيه والناس كافة فلما رآه توزون قبل الارض وكان قد أوصى جماعة من أصحابه سراً أن يحتاطوا به فاحتاطوا به وأدخلوه الى خيمته ثم قبض عليه وسمل عينيه وخلعه وبايع المستكفى . ومات المتقى فى سنة خمسين وثلاثمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أقر سليمان بن الحسن بن مخلد على وزارته اربعة أشهر . ثم استوزر أبا الخير احمد بن محمد بن ميمون . ولم يكن له سوى الاسم من الوزارة ولم يكن له سيرة تؤثر . ثم جرت أمور أدت الى القبض عليه والى عزله

﴿ وزارة ابى عبد الله البريدىّ للمتقى ﴾

قد سبق حال تغلبه وقوة نفسه وجمعه للعساكر . ثم انه فى أيام المتقى وصل الى بغداذ ومعه جموع كثيرة فأظهر المتقى السرور به ثم استوزره وهو كاره لذلك . وجرت بينه وبين المتقى مراسلات أدت الى أنه أرهبه وأفزعه فحمل خمسمائة الف دينار . ووقعت حروب بين البريدىّ وأمراء العسكر فنهبوا داره وانهزم الى واسط . فكان وقوع اسم الوزارة عليه دون شهر

«وزارة أبي اسحاق محمد بن ابراهيم الاسكافي المعروف بالقراريطي للمتقي»

لم تطل أيامه فلبث في الوزارة حدود أربعين يوماً وكان سبب وزارته أنه حضر يوماً مجلس أمير الامراء وهو يصادر قوماً من الكتاب ويعسفهم وهم يلطون عليه فخلا القراريطي ببعض أصحاب أمير الامراء وقال له ان استوزرني الامير نهضت له بأضعاف هذا وجمعت له الاموال وما أحوجه الى هذا الصداع فاستوزره توزون بعد يومين ثم بعد أيام قبض عليه واستوزر الكرخي فلم تطل أيامه أيضاً ولبث فيها نحو خمسين يوما

«وزارة البريدي مرة ثانية»

استوزره المتقي وكاتبه بالاصعاد الى بغداذ فأصعد من واسط فاستوزر ومكث في الوزارة دون شهر ولم يستتب له أمر وجرت بينه وبين المتقي حروب وكانت تلك الايام أيام فتن * ولما تولى أبو عبد الله البريدي الوزارة هجاه أبو الفرج الاصفهاني مصنف كتاب الاغاني بقصيدة طويلة أولها

(خفيف)

يا سماء اسقطي ويا أرض ميدى قد تولى الوزارة ابن البريدى

(منها)

يا لقومي لحرّ صدري وعولى وغليلى وقلبي المعمود
حين سار الخميس يوم خميس بالبريدي في ثياب سود
قد حباه بها الامام اصطفاء واعتماداً منه لغير عميد
خلع تخلع العلى ولواء عقده حل عقدة المعقود

«وزارة أبي العباس احمد بن عبيد الله الاصفهاني للمتقي»

مكث في الوزارة حدود خمسين يوماً ولم يكن له علم ولا نظر في

الامور . وضعف أمر الوزارة والوزراء فى تلك الايام ضعفاً كثيراً

﴿ وزارة أبى الحسين علىّ بن أبى علىّ محمد بن مقلة للمتقى ﴾

استوزره المتقى ولم تطل أيامه وخلع المتقى وهو وزيره * انقضت أيام المتقى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده أبو القسم عبد الله المستكفى بن المكتفى بن المعتضد ﴾

بويع له سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة * ورد الخبر اليه بوصول معزّ الدولة بن بويه فخاف خوفاً شديداً واضطرب الناس وأهدى المستكفى الى معز الدولة ألطافاً وفاكهة . ووصل معز الدولة الى حضرة المستكفى فرد اليه إمارة الامراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقدله لواء . وهو أول ملوك بنى بويه فى الحضرة الخليفية . وهو الذى لقبه معز الدولة ولقب أخاه الآخر عماد الدولة وأمر أن تضرب القابهم على الدينار والدرهم . ونزلت الديلم دور الناس ببغداذ ولم يكن يعرف ذلك من قبل . ثم ان معز الدولة ركب يوما الى دار الخلافة وسلم على المستكفى وقبل الارض بين يديه وأمر المستكفى فطرح كرسىّ فجلس عليه معز الدولة ثم تقدم الى المستكفى رجلان من الديلم بمواطاة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه فظن المستكفى انهما يريدان تقبيل يده فمد يده فجذباها ونكساه من السرير ووضعا عمامته فى عنقه وسحباه ونهض معز الدولة وضربت البوقات والطبول واختلط الناس ودخل الديلم الى حرم الخليفة وحمل المستكفى الى دار معز الدولة فاعتقل بها وخلع من الخلافة ونهبت داره وسملت عيناه ولم يزل فى دار السلطنة معتقلا حتى توفى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة

﴿ شرح حالى الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه السامرى ابو الفرج محمد بن على . لم يكن له حكم ولا استبداد ولم تطل أيامه وقبض عليه وهجاه بعض الشعراء بقوله

(كامل)

الآن إن كفر المقتر رزقه ... قالوا كفرت نخف عقاب النار
أأكون رجلى مركبي وجنيبتى ... خفى على ذلّ بذاك وعار
والسرّ من رأىّ فى اصطبله ... مائتا عتيق فاره مختار
كلب حمار بالخيول وكاتب ... فطن يضيق به كراء حمار
أنا قد دهشت فعرفونى انتم ... هذا من الانصاف فى الاقدار

ثم اضطربت أحوال الخلافة ولم يبق لها رونق ولا وزارة وتملك البويهيون وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم وقرر للخلفاء شىء طفيف برسم إخراجاتهم * انقضت أيام المستكفى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده المطيع لله أبو القسم الفضل بن المقتدر ﴾

بويع سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة وكان أمره ضعيفا . فى ايامه رد الحجر الاسود الى مكانه وكانت القرامطة الخوارج قد أخذوه ثم ردوه وقالوا قد اخذناه بأمر ورددناه بأمر . وقوى الفالج على المطيع وثقل لسانه فدخل عليه سبكتكين حاجب معز الدولة فدعاه الى خلع نفسه ومبايعة ولده الطائع ففعل ذلك وعقد الامر لولده وخلع نفسه . ومات فى سنة اربع وستين وثلاثمائة

﴿ ثم ملك بعده ابنه عبد الكريم ابو بكر الطائع لامر الله ﴾

بويع له سنة ثلاث وستين وثلاثمائة

كان الطائع شديد المنة . كان قد استفحل عنده فى البستان كبش جبلى

وما جسر أحد أن يدنو منه نخرج الطائع اليه فحمل الكبش عليه فثبت له حتى مكن يديه من قرنيه ثم استدعى نجاراً وأمره بقطع قرنيه بالميشار فقطعهما النجار وهما فى يد الطائع

وفى أيامه قويت شوكة آل بويه ووصل عضد الدولة الى بغداذ وانتشر حكم البويهيين • ثم قبض البويهيون على الطائع فى سنة احدى وثمانين وثلاثمائة وبويع بعده للقادر * انقضت أيام الطائع لله

﴿ ثم ملك بعده القادر ابو العباس احمد بن اسحاق بن المقتدر ﴾

بويع له سنة احدى وثمانين وثلاثمائة

كان القادر من أفاضل خلفائهم حسن الطريقة والسمت كثير الخير والدين والمعروف والعبادة • تزوّج بنت بهاء الدولة بن عضد الدولة على صداق مبلغه مائة الف دينار * وفى أيامه تراجع وقار الدولة العباسية ونمى رونقها وأخذت أمورها فى القوة • ومكث القادر فى الخلافة مدة طويلة • ومات فى سنة أثنين وعشرين واربع مائة

﴿ ثم ملك بعده ابنه ابو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ﴾

بويع فى سنة أثنتين وعشرين واربع مائة

كان القائم من أفاضل خلفائهم وصلحائهم • وطالت مدته في الخلافة وزاد به وقار الدولة ونمت قوتها * وفى أيامه انقرضت دولة بنى بويه وظهرت دولة بنى سلجوق

﴿ شرح حال الدولة السلجوقية وابتدائها وانتهائها ﴾

هذه دولة قويت شوكتها وعرضت مملكتها ونفذت تقدماتها فى الحضرة الخليفية • واستولت على الخلافة • وخطب لها على المنابر • وضربت اسماء

« ذكر ابتداء حالهم »

هم قوم أصلهم من الترك الخزر وكانوا يخدمون مع ملوك الترك . ونشأ جدهم سلجوق وكانت أمارات النجابة لائحة عليه . ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته . فقربه ملك الترك واختص به ولقبه شباشى ومعناه فى لغتهم قائد الجيش . فنبغ سلجوق بعلو همته واستمال قلوب الرجال بكرمه وعقله وانقادت الاكابر اليه * فيقال ان زوجة ملك الترك قالت لزوجها انى أتوسم فى سلجوق تغلباً عليك والرأى عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس اليه فقال لها سوف أبصر ما أصنع فى أمره ثم احس سلجوق بشىء من ذلك العزم وظهر له التغير فجمع عشيرته ومن تبعه وحالفهم واستجلب من أطاعه وصار قائداً معظماً للغز ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين . فلما دخلها أظهر الاسلام ليكون المسلمون عوناً له وليمكنوه من المراعى والمساكن فنزل بالجند وشرع فى غزو من قاربه من أصناف الترك وكان لملك الترك إتاوة على تلك البلاد المتاخمة له فقطعها سلجوق وطرد نوابه ومات سلجوق وعمره مائة سنة . ثم نشأ أولاده فى القوة والنعمة والدولة فاستولوا على كل موضع استضعفوه من بلاد العجم . وما زال امرهم ينمى حتى ملك طغرلبك وهو أول سلاطينهم طائفة من بلاد العجم . وما زال امره يقوى حتى تغلب البساسيرى على بغداذ ونهبها وقتل من بها وأخرج الخليفة القائم فحبسه بقلعة الحديثة . وكانت فتنة البساسيرى فتنة عظيمة . فحينئذ كتب القائم الى طغرلبك السلطان يستدعيه الى بغداذ لينصره على البساسيرى فسار طغرلبك بعساكره الى بغداذ . فلما سمع البساسيرى بذلك انتقض عليه امره وفارق بغداذ ودخل طغرلبك الى بغداذ وأعاد

رونق الدولة الخليفيـة وخطب له بالسلطنة على منابر بغـداذ . وكان ذلك أول سلطنتهم بالحضرة * وأما انتهاؤها فانها مازالت أمورها تضـعف حتى انقرضت بالكلية فى أيام الناصر . وذلك فى سنة تسعين وخمس مائة فتعالى الله * ومات القائم فى سنة سبع وستين واربع مائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

وزر له فخر الدولة ابو نصر محمد بن محمد بن جهير

﴿ وزارة بن جهير ﴾

كان فخر الدولة من عقلاء الرجال ودهاتهم كان فى ابتـداء أمره فقيراً مدقعاً وترامت به الاسباب . فمن مبادئها أنه كان جالساً بالكرخ يوماً فعبر عليه غسال ممن يغسل بالحربات ومعه فصوص عتق قد استحالت ألوانها فاشتراها منه بثلاثة دنانير وجلا بعضها . فخرج أحدها ياقوتا أحمر . وخرج الآخر فيروزجا جيداً فصاغ لكل واحد منهما خاتماً من ذهب . ثم انه تقلبت به الامور حتى مضى فى رسالة الى ملك الروم فمد له الخاتمين فأعطاه عشرين الف دينار فكانت أصل غناه ونعمته ثم تفتل فى الخدمات حتى اتصل بابن مروان صاحب ديار بكر فخدمه مدة وأثرى عنده ثروة ضخمة فسمت همته الى وزارة الخليفة فأرسل سراً الى القائم وعرض عليـه نفسه وبذل له ثلاثين الف دينار فأرسـل القائم بعض خواصه فى رسالة الى ابن مروان . وكان غرضه من إرسال ذلك الرسول أن يجتمع بفخر الدولة سراً وقرّر معـه ما أراد . ثم لما أراد الرسول الرجوع الى بغداذ خرج فخر الدولة كأنه يودعه فانحدر معه الى بغداذ . وكان قبـل ذلك قد فرّق أمواله بالبلاد وأنفذ منها شيئاً الى بغداذ

فلما وصل الرسول الى بغداذ وصحبته فخر الدولة أرسل القائم اليه أصحابه يتلقونه. ثم خلع عليه خلع الوزارة ونهض فخر الدولة بأمور الوزارة أحسن نهوض. وكانت الاطراف المتاخمة للعراق عاصية على الخليفة. وكان ملوكها أصدقاء فخر الدولة فكاتبهم وراسلهم واستمالهم فدخلوا فى طاعة الخليفة. ثم عزل فخر الدولة عن الوزارة بسبب كدر جرى بينه وبين نظام الملك وزير السلطان. ثم أعيد فخر الدولة الى الوزارة ولما أعيد الى منصبه قال ابن الفضل الشاعر يمدحه (رجز)

قد رجع الحق الى نصابه — وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت الا السيف سلته يد — ثم أعادته الى قرابه

ولما عاد الى الوزارة فرح الناس به فرحاً شديداً فيقال ان سقاء ذبح ثوراً له لم يكن يملك غيره وتصدق بلحمه فأعطاه الوزير بغلا بآلته وأعطاه معه شيئاً من الذهب

ولما مات القائم قام الوزير فخر الدولة بأخذ البيعة للمقتدى أحسن قيام وكانت مدة وزارته للخليفتين القائم والمقتدى خمس عشرة سنة وشهرا. ومات بعد ذلك فى سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة

﴿وزارة رئيس الرؤساء علىّ بن الحسين بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة﴾

كان وزير القائم قبل ابن جهير. ومن أجله وقعت فتنة البساسيرى. وكان قبل الوزارة أحد المعدلين ببغداذ وممن له معرفة بالفقه وأنس بالعلم ورواية الحديث وجلّ أمره. وعظمت منزلته. ووقع بينه شر وبين البساسيرى ابى الحارث التركي. وكان أحد الامراء. فاقتضى الحال أن البساسيرى هرب ثم جمع الجموع وورد الى بغداذ واستولى عليها. ثم ظفر بابن المسلمة رئيس

الرؤساء فمثل به

فمن جملة ما فعل به أنه حبسه ثم أخرجه مقيداً وعليه جبة صوف وطنطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ واركب حماراً وطيف به فى المحال ووراءه من يضربه بجلد وينادى عليه ورئيس الرؤساء يقرأ (قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) وشهره فى البلد

فلما اجتاز بالكرخ نثر عليه أهل الكرخ المداسات الخلع وبصقوا فى وجهه ووقف بازاء دار الخلافة من الجانب الغربى . ثم أعيد وقد نصبت له خشبة فى باب خراسان فأنزل عن الحمار وخيط عليه جلد ثور قد سلخ فى الحال وجعلت قرونه على رأسه وعلق بكلاب فى حلقه واستبقى فى الخشبة حياً الى أن مات من يومه * انقضت أيام القائم بأمر الله ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابن ابنه المقتدى بأمر الله ﴾

وهو أبو القسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم * بويع فى سنة سبع وستين وأربع مائة

كان المقتدى عالى الهمة خبيراً بالامور من أفاضل خلفائهم اتفق له مع السلطان ملكشاه واقعة عجيبة . كان السلطان ملكشاه قد قصد بغداذ فوصلها فى سنة خمس وثمانين وأربع مائة . وقد تغيرت نيته على المقتدى . فأرسل ملكشاه الى المقتدى يقول له تخرج من بغداذ وتسكن أى بلد شئت فانزعج المقتدى من ذلك وطلب منه أن يمهله شهراً . فقال ملكشاه ولا ساعة واحدة وتردّدت الرسل بينهما . ثم استقرت الحال بوساطة تاج الملك أبى الغنائم وزير ملكشاه أن يؤخره عشرة أيام . فقال ملكشاه يجوز . فى عيد الفطر

صلى السلطان وخرج الى الصيد. فحم وافتصد فتوفى فى نصف شوال وضبطت زوجته زبيدة خاتون العسكر بعد موته. واستقرّ مع المقتدى ترتيب ابنها محمود فى السلطنة. وعمره يومئذ ست سنين فخطب له وخلع المقتدى عليه وخرج العسكر وخاتون وابنها محمود بن ملكشاه الى إصفهان وكفى الله المقتدى شر ملكشاه . وتوفى المقتدى فجأة فى سنة سبع وثمانين وأربع مائة

« شرح حال الوزارة فى أيامه »

لما بويع المقتدى بالخلافة أقرّ فخر الدولة بن جهير وزير أبيه على وزارته وقد مضى من سيرته ما يغنى عن ذكر شيء آخر

« وزارة ابنه عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير للمقتدى »

كان القائم والمقتدى يرسلانه فى رسائل الى السلاطين فتنجح على يده وكان فاضلا حصيفاً. فاستحلاه نظام الملك وزير السلطان وكان يعجب منه ويقول وددت انى ولدت مثله. ثم زوجه ابنته واستوزره المقتدى وفوّض الامور اليه. ثم عزله فشفع له نظام الملك فأعيد الى الوزارة . فقال ابن الهبارية الشاعر فى ذلك يهجو عميد الدولة (بسيط)

لولا صفية ما استوزرت ثانية فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

صفية هى بنت نظام الملك الوزير التى تزوجها عميد الدولة . ثم وقع بين عميد الدولة وبين سلاطين العجم. فطلبوا من الخليفة عزله وأشار أصحاب الخليفة بذلك. فعزله وحبس بباطن دار الخلافة ثم أخرج ميتاً فدفن . وكان يقول الشعر فمن شعره (بسيط)

الى متى أنت فى حل وترحال تبغى العلى والمعالى مهرها غال
يا طالب المجد دون المجد ملحمة فى طيها خطر بالنفس والمال

وللیالی صروف قلما انجذبت　　الی مراد امرئ یسعی بلا مال

﴿وزارة أبی شجاع ظهیر الدین محمد بن الحسین الهمذانی للمقتدی﴾

كان رجلا دیناً خیراً كثیر الخیر والبر والصدقة. وقف له علی ثبت خرج علی وجوه البر والصدقات خاصة بما قدره مائة وعشرون الف دینار وكان الذی أورد هذا الثبت كاتباً من جملة عشرة كتبة یكتبون صدقاته خاصة ولما ولی ظهیر الدین المذكور كتب الیه ابن الحریری صاحب المقامات

(متقارب)

هنیئاً لك الفخر فافخر هنیاً　　كما قد رزقت مكاناً علیا
وبتَّ كآبائك الاكرمین　　لدست الوزارة كفئاً رضیا
تحملت أعباءها یافعا　　كما أوتی الحكم یحیی صبیا

كان یصلی الظهر ویجلس لكشف المظالم الی وقت العصر وكان الحجاب ینادون فی الناس من كانت له حاجة فلیعرضها

ومن مناقبه أنه لما وقعت الفتن بین السنة والشیعة بالكرخ وباب البصرة من مدینة السلام تغاضی عن اراقة الدماء غایة التغاضی حتی قال له المقتدی. ان الامور لا تمشی بهذا اللین الذی تستعمله. وقد أطمعت الناس بحلمك وتجاوزك ولا بد من نقض دور عشرة من كبار اهل المحال حتی تقوم السیاسة وتسكن هذه الفتن. فأرسل الوزیر الی المحتسب وقال له قد تقدم الخلیفة بنقض دور عشرة من كبار اهل المحال ولا تمكننی المراجعة فیهم وما آمن ان یكون فیهم أحد غیر مستحق للمؤاخذة او ان یكون الملك لیس له فأرید ان تبعث ثقاتك الی هذه المحال وتشتری املاك هؤلاء المتهمین فاذا صارت الاملاك لی نقضتها وأسلم بذلك من الاثم ومن سخط الخلیفة ونقده

الثمن فى الحال . ففعل المحتسب ذلك . ثم بعد ذلك ارسل ونقضها * وحج بيت الله تعالى ولم يؤرخ عن وزير أنه حج فى ايام وزارته الا هذا فان الوزراء قبله كانوا يحجون بعد خلوّهم من الوزارة الا البرامكة فانهم حجوا فى حال وزارتهم وطلب السلطان جلال الدولة ملكشاه من المقتدى عزل هذا الوزير فخرج توقيع المقتدى بعزله على حالة جميلة لم يصرف بمثلها وزير وانصرف الى داره وهو ينشد (وافر)

تولاها وليس له عـدوّ　　وفارقها وليس له صديق

ثم اعتزل وتزهـد ولبس ثياب القطن وتوجه الى الحج وأقام بمدينة الرسول صلوات الله عليـه وسلامه فكان يكنس المسجد النبوىّ ويفرش الحصر ويشعل المصابيح وعليـه ثوب من غليظ الخام وبدأ بحفظ القرآن وختمه هناك وله شعر لا بأس به فمنه قوله (خفيف)

ان من شتت الجميع من الشمـــــل قدير بأن يجمع أهـلا
لست مستيئساً وان طال هجر　　ربّ هجر يكون عقباه وصلا
واذا أعقب الوصـال فراقاً　　كان ذاك الوصال فى القلب أحلى

ومات رضى الله عنـه فى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة * انقضت أيام المقتدى بأمر الله ووزرائه

* ثم ملك بعده ابنه المستظهر بالله أبو العباس أحمد *

بويع له بالخلافة فى سنة سبع وثمانين وأربع مائة

كان المستظهر كريماً وصولا حسن الاخلاق كبير الهمة سهل العريكة مهذب الخلال محباً للخير مبغضاً للظلم * فى أيامه تفاقم حال الباطنية واستولوا على المعاقل والحصون بخراسان وكان اصل دعوتهم بخراسان الحسن بن صباح

وهو رجل أصله من مرو . وسافر الى مصر وأخذ من دعاة آل أبي طالب بها المذاهب وكان رجلا ذا دهاء وصاحب حيل . ثم انه رجع من مصر الى خراسان وصار داعياً لآل أبي طالب وتوصل بأنواع التوصلات حتى ملك قلعة من بلاد الديلم تعرف بالروذبار فلما ملكها قوى أمره واستغوى طوائف من الناس وفشا مذهب الباطنية ونمى واعتقده خلق من الاكابر فى باطن الامر وما زال يستفحل أمرهم الى ان قصدت العساكر المغولية قلاعهم وفعلت بها ما فعلت ومات المستظهر فى سنة اثنتى عشرة وخمس مائة

﴿ شرح حال الوزارة فى ايامه ﴾

لم يكن للوزارة فى ايامه كبير أبهة . فمن وزرائه زعيم الرؤساء ابو القاسم علىّ بن فخر الدولة بن جهير لم تطل ايامه ولم يكن له من السيرة ما يؤثر . وبعد يسير من وزارته عزل وقبض عليه

﴿ وزارة أبي المعالى هبة الله بن محمد بن المطلب للمستظهر ﴾

كان رجلا كافياً من كفاة الدولة العباسية . استوزره المستظهر بعد زعيم الرؤساء بن جهير وكان قبل الوزارة يتولى ديوان الزمام . فحدث عنه بعض أصحابه قال دخلت يوماً اليه قبل الوزارة وهو صاحب ديوان فرأيته مفكراً مضطرب الخاطر فسألته عن السبب فقال كنت قد أنهيت الى المستظهر فى السنة الخالية اجتهادى فى عمارة البلاد وضبطى للارتفاع وتميزى للحاصل وقلت قد حصل فى هذه السنة أثنا عشر الف كرّ وفى السنة المستقبلة يحصل عشرون الف كرّ فخرج جوابه يشكرنى ويثنى علىّ وشرفنى بشيء من ثيابه فسررت وقلت هذه ثمرة الاجتهاد ثم جردت همتى للعمارة وانبعثت بجهدى وطاقتى فى عمارة المستقبل فاتفق أن انفجر بثق فتلف من الارتفاع شيء

كثير وجرت أحوال أخر اقتضت خفوق الارتفاع بحيث نقص عن ارتفاع السنة الخالية جملة فكتبت مطالعة الى الخليفة أعرفه فيها بخفوق الارتفاع وذكرت له كمية الحاصل ولم أشرح له السبب فى نقيصة الارتفاع وقلت فى نفسى ان سألنى عن السبب شرحته له فخرج جوابه الى يشكرنى ويثنى علىّ وشرفنى بشيء من ثيابه كما فعل فى السنة الخالية فقلت فى نفسى وا ويلاه هذا حالى معه فى حالة الاجتهاد والتقصير وقد شكرنى على الحالتين المتناقضتين وهذا يدل على أنه لا يفكر فيما يقوله ويفعله. فما يؤمننى أن بعض من هو قريب اليه من أعدائى يعرض عليه فى أمرى ما يكون سبباً لهلاكى فلا يتأمل القضية بل يتقدم بما يوافق غرض العدو. قال الحاكى فقلت له يعيذك الله ويقيك مما تحذر. وما برحت حتى سليته وأزلت غمه* وكان هذا أبو المعالى ابن المطلب من علماء الوزراء وافاضلهم وأخيارهم * انقضت أيام المستظهر بالله ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه المسترشد ابو منصور الفضل بن المستظهر بالله ﴾

بويع فى سنة اثنتى عشرة وخمس مائة

كان المسترشد رجلا فاضلا. ولما بويع بالخلافة هرب أخوه الامير أبو الحسن وأخفى نفسه ومضى الى الحلة مستجيراً بدبيس بن صدقة صاحب الحلة وكان دبيس بن صدقة أحد اجواد الدنيا. كان صاحب الدار والجار* والحمى والذمار. وكانت ايامه أعياداً وكانت الحلة فى زمانه محط الرحال. وملجأ بنى الآمال. ومأوى الطريد. ومعتصم الخائف الشريد. فأكرمه دبيس اكراماً زائداً عن الحد وأفرد له داراً وأكرمه اكراماً كثيراً ومكث عنده مدة على أحسن حال. فلما علم أخوه المسترشد بالله انه عند دبيس

قلق لذلك وخاف من أمر يحدث من ناحيته. فبعث نقيب النقباء على ابن طراد الزينبيّ الى الحلة بخاتمه وأمانه . وأمره ان يأخذ البيعة على دبيس ويطلب منه أن يسلم اليه الامير ابا الحسن . فقال دبيس أما البيعة فالسمع والطاعة لامر أمير المؤمنين وبايع . واما تسليم جارى فلا والله لا أسلمه اليكم وهو جارى ونزيلى ولو قتلت دونه الا ان اختار . فأبى الامير أبو الحسن التوجه صحبة النقيب الى أخيه فمضى النقيب وحده . ثم بعد ذلك ظفر به المسترشد فسجنه فى بعض دوره على حالة جميلة * وجرت بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود وحشة وتفاقم الامر فيها وأفضى الحال الى الحرب . فتوجه الخليفة المسترشد وصحبته العسكر وأرباب الدولة . وتجهز مسعود للقائهم . فلما التقوا والتحم القتال انكسر عسكر المسترشد واستظهر السلطان مسعود عليهم ونهب عسكره من العسكر الخليفيّ أموالا عظيمة فيقال ان صناديق المال كانت على مائة وسبعين بغلا وهى أربعة الف الف دينار وكان الرحل على خمس مائة جمل . وكان معه عشرة الف عمامة . وعشرة الف جبة . وعشرة الف قباء . كل ذلك من فاخر الثياب كان قد أعدها للتشريفات ان ظفر فيقال ان جملة ما نهب عشرة الف الف دينار ونهى مسعود عن اراقة الدماء وقبض على أصحاب الخليفة وحملهم الى القلعة . وأما الخليفة فأفرد له خيمة ووكل به جماعة . وسار مسعود والخليفة معه الى مراغة فوصل كتاب السلطان سنجر الى مسعود يأمره بالاحسان الى الخليفة واعادته الى بغداد مكرما معززاً وأن يتلافى الحال معه وأن يرد عليه أمواله وأن يجعل له من الخشم والبرك والاسباب أعظم وأجمل مما ذهب منه ويعيده الى بغداد على أتم حال . فامتثل مسعود جميع ذلك وصنع له من البرك والاسرة والخيم

والحمول أشياء جميلة . ووقع العزم على العود الى بغداذ . واتفقت غفلة من مسعود والعسكر فهجم جماعة من الباطنية على المسترشد فضربوه بالسكاكين فى مخيمه بقرية بينها وبين مراغة فرسخ واحد وقتلوا معه جماعة من أصحابه وحين علم مسعود بذلك ركب منزعجاً مظهراً للجزع وأخذ القوم فقتلهم . ثم نقل المسترشد على رؤس العلماء والامراء الى مراغة فدفن بها . وقبره الآن بها معروف تحت قبة حسنة رأيتها عند وصولى الى مراغة فى سنة سبع وتسعين وستمائة

واختلف الناس عند قتل المسترشد فى سبب قتله . فقال قوم ان مسعودا لم يعلم بذلك ولا رضى به . وقال قوم بل مسعود هو الذى واطأ الباطنية على قتله وأمرهم بذلك لانه خافه حيث قويت نفسه على جمع الجموع وجرّ الجيوش ولم يمكنه قتله ظاهراً ففعل مافعل من الاحسان اليه ظاهراً ثم قتله باطناً . ثم انه أخرج جماعة من أهل الجرائم فقتلهم وأوهم الناس أنه قد قتل قتلته . ثم أطلقهم سراً . وذلك فى سنة تسع وعشرين وخمس مائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

من أفاضل وزرائه أبو علىّ الحسن بن علىّ بن صدقة . كان فاضلا نحريراً عالماً بقوانين الرئاسة خبيراً . استوزره المسترشد سنة ثلاث عشرة وخمس مائة ولقبه بجلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين وكانت له معرفة بالحساب وأعمال السواد غير انه لا ينسب اليه شئ من الكرم

ثم ان المسترشد قبض عليه وعزله عن الوزارة ولم يكن ذلك عن ارادة من المسترشد وانما دعته الضرورة الى القبض عليه لان وزير السلطان كان يتعصب عليه

ثم بعد ذلك بمديدة زال المانع فأعاده المسترشد الى وزارته وخلع عليه خلع الوزارة وتقدّم الى أرباب الدولة بالسعى بين يديه الى الديوان * وهو أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة

كان الوزير ابن صدقة يوماً جالساً فى دست الوزارة فدخل عليه سديد الدولة بن الأنبارى كاتب الانشاء وفى كمه أبيات قد هجا فيها الوزير فسقطت الرقعة من كمه فمد الوزير يده سريعاً وتناولها فكان فيها من جملة أبيات

(بسيط)

أنت الذى كونه فساد   فى عالم الكون والفساد

فلما رآها سديد الدولة فى يد الوزير سقطت قوته خوفاً وخجلا . فلما قرأها الوزير فطن القصة وصرف الهجو عن نفسه الى سديد الدولة . وقال أعرف هذه الابيات ومن جملتها

ولقبوه السديد جهلا   وهو برئ من السداد

ونظم الوزير هذا البيت فى الحال فاستحي السديد بن الانبارى وأمسك عن الجواب

ولما عزم السلطان سنجر على الوصول الى بغداذ وتوعد الخليفة كتب اليه الوزير ابن صدقة والله لئن تحركت لأقطعن جميع ماوراءك عنك وأقطعك عنه ولئن سرت فرسخاً لأسيرنّ اليك فرسخين

ومرض الوزير أبو علىّ بن صدقة فى آخر أيامه فعاده المسترشد وأنشده

(طويل)

دفعنا بك الآفات حتى اذا أتت   تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا

ولم يزل أمره يضمحل حتى توفى فى سنة اثنتين وعشرين وخمس مائة

﴿ وزارة الشريف أبي القاسم عليّ بن طراد الزينبيّ ﴾

هو أبو القاسم عليّ بن طراد بن محمد نقيب النقباء ابن أبي القاسم عليّ نقيب النقباء ابن الحسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم الامام بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس وانما عرفوا بالزينبيين لأن أمهم زينب بنت سليمان بن عليّ بن عبدالله بن العباس عرفوا بها . كان مترويا من المعرفة بقوانين الوزارة وأسباب الرئاسة وهو الذى جمع الناس على خلع الراشد . وقام فى خلعه وأخذ البيعة للمقتفى القيام العظيم واتفق مع السلطان مسعود على ذلك ووزر لخليفتين المسترشد والمقتفى

ولما استوزره المسترشد وشافهه بالولاية قال له كل من ردّت اليه الوزارة شرف بها إلا أنت فان الوزارة شرفت بك * وحمل اليه الدست الكامل من دار الخليفة . وتقدم الى أرباب المناصب بالسعى بين يديه الى الديوان ومكث على ذلك مديدة . ثم قبض عليه المسترشد وعزله . ثم أعاده الى أجمل ما كان عليه . فلما خرج المسترشد الى حرب مسعود كما تقدّم شرحه خرج الوزير معه . فلما جرى على المسترشد ما جرى حظى الوزير عند السلطان مسعود وقرّبه وأعلى محله واستصحبه صحبته الى بغداذ . وقام الوزير بين يديه فى خلع الراشد وإجلاس المقتفى القيام الذى عرفه له مسعود وشكره عليه وباقى أخباره ترد عند ذكر وزارته للمقتفى

﴿ وزارة الوزير أبى نصر أحمد بن الوزير نظام الملك للمسترشد ﴾

كان كريما جميل الصورة وزر للمسترشد بالله فشكرت سيرته . لما عزم المسترشد على عمارة سور بغداذ قسط على الناس خمسة عشر الف دينار فقام الوزير أبو نصر بها وأداها عن الناس من ماله . ولم تطل أيامه فتوفى

فى سنة أربع وأربعين وخمس مائة

« وزارة أنوشروان بن خالد بن محمد القاشانى للمسترشد »

كان رجلا من أفاضل الناس وأعيانهم وأخيارهم تولى الوزارة للسلاطين وللخلفاء . وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب لها فيجيب كارهاً . هو الذى صنف له ابن الحريرىّ المقامات الحريرية واليه أشار فى أولها بقوله فأشار من اشارته حكم وطاعته غنم

طلب الأرجانىّ الشاعر من الوزير أنوشروان خيمة فأرسل اليه بدنانير كثيرة وقال له اشتر بها خيمة فقال الأرجانىّ فى ذلك

(منسرح)

لله درّ ابن خالد رجلا أحيا لنا الجود بعد ما ذهبا
سألتـه خيمة ألوذ بها فجاد لى ملء خيمة ذهبا

وكان أنوشروان بن خالد كثير التواضع مشهوراً بذلك يقوم لكل من يدخل عليه فهجاه ابن الهبارية الشاعر بقوله (بسيط)

هذا تواضعك المشهور عن ضعة تبدو فمن أجلها بالكبر تتهم
قعدت عن صلة الراجى وقمت له فذا وثوب على الطلاب لا لهم

وفيه يقول أيضاً يشير الى كثرة قيامه (بسيط)

رأيت مشروبه يعـبى مزاوداً فى يد الغلام
فقلت لا يعرضن لشرب الـدواء من غير ما سقام
فما به حاجـة اليـه فانه دائم القيـام

وكان بين أنوشروان بن خالد وبين الوزير الزينبى عداوة وتباغض وتنافس على الوزارة فعزل الوزير الزينبى وتولى أنوشروان بن خالد فتقرّب

الناس اليه بثلب الزيني فدخل الحيص بيص الشاعر عليه وأنشده قصيدة أولها (كامل)

شكراً لدهري بالضمير وبالفم ... لما أعاض بمنعم عن منعم

يشير الى أنوشروان والى الزيني فاستحسن الناس منه ذلك واستدلوا به على وفائه وحريته . ثم إن انوشروان بن خالد مات وأعيد الزيني الى الوزارة فتقرب الناس اليه بعيبة أنوشروان فدخل عليه الحيص بيص وانشده (طويل)

بقيت ولا زلت بك النعل إنني ... فقدت اصطباري يوم فقد ابن خالد

ومات انوشروان في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة * انقضت أيام المسترشد بالله ووزرائه

« ثم ملك بعده ابنه الراشد بالله ابو جعفر منصور بن المسترشد »

بويع له بالخلافة عقيب وصول الخبر بقتل ابيه سنة تسع وعشرين وخمس مائة . وجهز الراشد عسكراً كثيفاً وتوجه لمحاربة مسعود . وتوجه مسعود نحو العراق طالباً لتملكه فوصل الى بغداذ في خمسة الف فارس ودخلها فكف الراشد عن حربه وخرج منها متوجهاً الى الموصل . ودخل السلطان مسعود بغداذ واستبد بتدبير الامور فيها وأظهر العدل ومنع الجند من الاذى . وجمع القضاة والشهود وأخذ خطوطهم بالقدح في الراشد وكتب محضراً بخلع الراشد واثبته على القضاة وتولى ذلك له الوزير الزيني . وكان مسعود قد استشار الزيني فيمن يوليه الخلافة فقال له يامولانا هناك رجل يصلح لها فسأله عن اسمه فقال له يامولانا ان سميته أخاف أن يقتل ولكن اذا دخلنا بغداذ سميته لك . فلما احتاجوا الى اجلاس خليفة سمى الزيني له أبا عبد الله محمداً

المقتفى عم الراشد فبايع له واجلسه على سرير الخلافة . ثم ان الراشد لم يتم له بالموصل أمر فسار عنها الى اصفهان فوثب عليه جماعة من الملاحدة فقتلوه على باب اصفهان. وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة. وقبره هناك معروف

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما أفضت الخلافة اليه استوزر جلال الدين أبا الرضى محمد بن صدقة ولم تطل أيامه . وخاف مما جرى فالتجأ الى زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل فأجاره وأصلح أمره . ثم لما خرج الراشد من بغداذ استخدم هذا أبو الرضى فى بعض الخدمات غير الوزارة. ومات فى سنة ست وخمسين وخمس مائة . ولم يكن له من السيرة ما يؤثر * انقضت أيام الراشد ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده عمه المقتفى لامر الله ابو عبد الله محمد بن المستظهر ﴾

بويع له بالخلافة سنة ثلاثين وخمس مائة

كان المقتفى من أفاضل الخلفاء . ولما أجلسه مسعود وبايع له وكان قد أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب أو أثاث ورحل وغير ذلك وتصرف نوابه فى جميع أعمال العراق أرسل الى المقتفى يقول له اذكر ما تحتاج اليه أنت وكل من يتعلق بك حتى أعين لك به اقطاعات. فأرسل اليه المقتفى يقول عندنا بالدار ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة ليشرب به عيالنا فانظر انت كم يحتاج اليه من يشرب فى كل يوم ماء يحمله ثمانون بغلا فقال مسعود لقد أجلسنا فى الخلافة رجلا عظيما فالله تعالى يكفينا شره * وجرت فى أيامه فتن وحروب بينه وبين سلاطين العجم كانت الغلبة فيها له * وثار فى أيامه العيارون والمفسدون فنهض بقمعهم أتم نهوض . وتوفى المقتفى فى سنة خمس وخمسين وخمس مائة

﴿شرح حال الوزارة فى أيامه﴾

أول وزرائه الزينبيّ ابو القاسم على بن طراد العباسى وزير أخيه المسترشد استوزره حين بويع لانه هو الذى قام فى بيعته وأشار على مسعود به ومكث مدة فى وزارة المقتفى . ثم جرت بينه وبينه وحشة خاف فيها منه فاستجار بدار السلطان وأقام بها مدة معتصما من المقتفى الى أن روسل الخليفة من جهة السلطان فى معناه فأذن فى عوده الى داره مكرماً فانصرف الى داره وأقام بها على قدم البطالة واضمحل أمره ورق حاله ولقى شقاء عظيما وضائقة شديدة حتى انه مرض فاشتهت نفسه شيئاً من المشموم فلم يقدر على ثمنه وقد كان أنفق أكثر ماله لما كان مستجيراً بدار السلطان على خواتينه وأتباعه وأرباب دولته وكانت مواهبه دارة على أكثر أرباب الدولة وغيرهم من العلماء والوافدين والطالبين . ولما مرض مرضته التى مات فيها كتب اليه المقتفى رقعة يستميله فيها ويعده بكل جميل فتمثل الوزير

(طويل)

أتت وحياض الموت بينى وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وقال وصيتى حفظ حرمى وأطفالى . فلما توفى قام المقتفى بجميع ما يحتاج اليه أولاده وصغاره وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة

﴿وزارة نظام الدين أبى نصر المظفر بن على بن محمد بن جهير البغداذىّ للمقتفى﴾

كان له أنس بالعلوم وخاصة بالحديث النبوىّ صلوات الله على صاحبه ولم تطل أيامه ولم يكن له من السيرة ما يؤثر

﴿وزارة مؤتمن الدولة أبى القاسم علىّ بن صدقة للمقتفى﴾

بيته بيت مشهور بالوزارة معروف بالرئاسة . وكان مؤتمن الدولة حسن

الصورة والخلق لكن لا علم عنده بقوانين الوزارة. وكان كثير التعبد والصدقة استوزره الخليفة المقتفي لامر الله. قالوا كان هذا مؤتمن الدولة الوزير قليل الاشتغال بالعلم. وكان ضعيف القراءة فى الكتب. وكان قد أدمن فى قراءة جزء واحد من أجزاء القرآن وفى كتاب واحد من كتب الأدب فكان لا يزال الجزء المذكور والكتاب بين يديه يقرأ فيهما قراءة جيدة فخفى على الناس حاله مدة وزارته. فلما مات ظهر ذلك عنه ولم يكن له من السيرة ما يؤثر

﴿ وزارة عون الدين أبى المظفر يحيي بن هبيرة للمقتفى ﴾

أول منشئه من قرية تعرف بالدور من أعمال دجيل تعرف اليوم بدور الوزير نسبة الى ابن هبيرة. وكان أبوه أكاراً بالقرية المذكورة. وكان يحث ولده على تحصيل الأدب وادراك الفوائد. وكان يردده صغيراً الى بغداذ ويحضره الى مجالس الصدور وصدور المجالس وكان هو كما قيل

(مديد)

ولها من نفسها طرب

ومات أبوه وهو صبي فتفرد بالاشتغال وتقلبت به تصاريف الامور ومرت عليه شدائد وكابد من الفقر أهوالا. وتنقل فى الخدمات فكان لا ينتقل من خدمة الا الى أكبر منها وما زال ينتقل من خدمة الى أخرى أرفع منها حتى تقلد الوزارة للمقتفى فمكث فيها مدة ومشاهرته فى كل سنة مائة الف دينار. وكان كريماً جواداً سمحاً لا يخرج من السنة وفى خزانته منها درهم واحد. وكان المقتفى والمستنجد يقولان ما وزر لبنى العباس كيحيي بن هبيرة فى جميع أحواله. وكانت له فى قمع الدولة السلجوقية يد قوية وحيل مرضية. وكان وقوراً حليما متواضعاً * لما تولى الوزارة دخل الديوان وعليه الخلع فرأى غلاماً

من غلمان الديوان واقفاً عن بعد فاستدناه وتبسم فى وجهه وأمر له بذهب وكسوة ثم قال لا اله الا الله أذكر مرة وقد دخلت هذا الديوان وجلست فى بعض المجالس فجاء هذا الغلام وجذبنى بيدى وقال قم فليس هذا مكانك وقد رأيته الساعة واقفاً وأثر الخوف ظاهر عليه فأحببت أن أوانسه وأزيل رعبه ورأى يوماً فى الديوان جنديا فقال لحاجبه أعط هذا الجندى عشرين دينارا وكرّ حنطة وقل له لا يدخل الديوان ولا يرينا وجهه فتغامز الناس وتشوفوا الى معرفة السبب فى ذلك وفطن الوزير لذلك فقال لهم كان هذا الجندى شحنة فى قريتنا فقتل شخص من أهل القرية فجاء هذا الشحنة وأخذ جماعة من أهل القرية واخذنى معهم مكتوفاً فى عرض الفرس وبالغ فى أذاى وضربى ثم أخذ من كل واحد منهم شيئاً واطلقهم وبقيت أنا معه فقال لى أعطنى شيئاً واخلص فقلت والله ما أملك شيئاً فأعاد علىّ الضرب والاهانة ثم قال لى اذهب الى لعنة الله ثم أطلقنى فانا لا احبّ ان أرى صورة وجهه

ومن أفكاره اللطيفة ان الوزراء كانوا قبله يلقبون القاباً من جملتها سيد الوزراء فتقدم هو الى الكتاب أن لا يكتبوا هذا اللقب فى القابه وقال اننى افكرت فى هذا فرأيت الله تعالى قد سمى هارون وزيرا حتى قال عزّ من قائل حكاية عن موسى عليه السلام (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى) وسمعت عن النبي عليه السلام أنه قال (لى وزيران من اهل السماء جبرائيل وميكائيل ووزيران من اهل الارض ابو بكر وعمر) وقال عليه السلام (ان الله تعالى اختار لى أصحابا فجعلهم وزراء وأنصاراً)

وحدث عنه بعض مجالسيه قال كنا يوما عنده فدخل الحاجب وقال يامولانا بالباب رجل سوادىّ يذكر انه فلان ابن فلان ومعه شملة مكورة

وهو يطلب الحضور بين يديك فعرفه الوزير وقال له أدخله . قال فدخل شيخ طويل من اهل السواد عليه ثياب غليظة من القطن وعمامة فوط ملونة وفى رجله جمجمان فسلم على الوزير . وقال يا سيدى أم الصغيرات يعنى زوجته لما علمت أنى اجئ الى بغداد قالت لى سلم على الشيخ يحيى بن هبيرة واستوحش له وقد خبزت لك هذا الخبز على اسمك فتبسم الوزير وهش به وقال جزاها الله خيرا وحل تلك الشملة فاذا فيها خبز شعير مشطور بكامخ التوث فأخذ الوزير منه رغيفين وقال هذا نصيبى من هذه الهدية وفرق الباقى على الصدور الحاضرين وسأل الرجل عن حوائجه وحوائج زوجته فقضاها وقال للحاضرين هذا كان جارى فى قريتى وشريكى فى زريع واعرف منه الامانة

ومن حيله انه كان ببعض بلاد العجم رجل كلما أقيمت الخطبة يوم الجمعة فى الجامع يقوم ويذم الخليفة ويدعو للسلطان فاتصل ذلك بالوزير ابن هبيرة فأحضر شخصاً من اهل بغداد وامره ان يسافر الى تلك البلدة واعطاه عشرة دنانير ذهبا وقارورة فيها خطر وقال له اذا دخلت ذلك البلد وحضرت يوم الجمعة فى الجامع ورأيت الرجل الذى يسب الخليفة فانهض اليه وانت على زىّ التجار وأمن على كلامه واظهر البكاء عند مسبة الخليفة وقل إى والله فعل الله به وصنع وهل غربنى عن عيالى ووطنى وأفقرنى غيره ثم افعل فى الجمعة كذلك وقل له قد حلفت انى أملأ فمك دنانير وضع هذه الدنانير حشو فمه واخرج عنه وبادر الى استعمال هذا الخطر على وجهك ولحيتك فانه يحدث فى الوجه سمرة وفى شيب اللحية سوادا وغير زيك حتى لا تعرف فتهلك . ففعل الرجل ذلك . وكانت الدنانير مسمومة فلما راح ذلك الرجل الى بيته ما زال يتقلقل حتى مات من يومه . واستعمل الرجل المنفذ الصبغ فأخفى به نفسه

ورجع الى بغداذ

ومن حيله انه كان يكتب الى ملوك الاطراف ملطفات صغارا فى رق خفيف ويشق فى جلد ساق الركابى بمقدار ما يدخلها فيه ثم يتركه حتى يلتحم ويسيره الى حيث اراد * ومن قوة جاشه وثباته انه كان يوماً جالساً بالديوان وبين يديه الامراء والصدور والاكابر فسقطت من السقف حية كبيرة فوقعت على كتف الوزير وسرحت من كتفه الى حجره فنفر كل من كان هناك من ارباب الدولة عن مستقره وانزعجوا عن مراتبهم والوزير جالس لم يتحرك عن مكانه ولا تغير من دسته ما كأن وقع عليه شيء. ثم أمر المماليك بقتلها فقتلت بين يديه

وفى الجملة فكان ابن هبيرة من أفاضل الوزراء واعيانهم واماجدهم . له فى تدبير الدولة وضبط المملكة اليد الطولى وله فى العلوم والتصانيف التبريز على اهل عصره وله اشعار كثيرة فنها (طويل)

يقين الفتى يزرى بحالة حرصه ... فقوة ذا عن ضعف ذا تتحصل
اذا قل مال المرء قل صديقه ... وقبح منه كل ما كان يجمل

وفى آخر أيامه عرض له تزايد البلغم فمات وهو ساجد * وذلك فى سنة ستين وخمس مائة * انقضت أيام المقتفى لامر الله ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ﴾

بويع عقيب موت أبيه فى سنة خمس وخمسين وخمس مائة

كان المستنجد شهماً عارفاً بالامور لما ولى الخلافة أزال المكوس والمظالم إلا انه فعل فعلة قبيحة . حل المقاطعات وأعادها الى الخراج . فشق ذلك على العلويين بالكوفة والمشاهد مشقة عظيمة . ونسبوا هذا الفعل الى ابن

هبيرة ولعنوه بالمشاهد

وفى أيامه ابتداء فتح مصر وضعفت دولة الفاطميين بها . وفى أيام ولده المستضيء تكامل فتحها على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب

ومات المستنجد مخنوقا فى الحمام خنقه أكابر دولته عقيب مرضة صعبة كانت قد عرضت له لانهم خافوه على أنفسهم . وذلك فى سنة ست وستين وخمس مائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقرّ ابن هبيرة وزير أبيه على وزارته وزاد فى رفع منزلته وقد مضى من سيرة ابن هبيرة ما يغنى عن الاعادة

﴿ وزارة ولده محمد بن يحيى بن هبيرة لقبه عز الدين ﴾

ناب عن الوزارة بعد وفاة والده . وكان فاضلا رئيساً عبقاً بالسيادة شاعراً رشيق المعانى خبيراً بالادب والحديث النبوى . وحبس بعد موت أبيه ولم يعلم خبره بعد الحبس . وروى عنه هذان البيتان أنهما له

(خفيف)

كم منحت الاحداث صبراً جميلا ولكم خلت صابها سلسبيلا
ولكم قلت للذى ظل يلحا نى على الوجد والأسى سل سبيلا

﴿ وزارة شرف الدين ابى جعفر محمد بن أبى الفتح بن البلدى للمستنجد بالله ﴾

كان قبل الوزارة ناظراً بواسط . فأبان فى مدة ولايته عليها عن قوّة وجلادة وارتفاعات نامية وحمول دارة . فعظمت منزلته عند المستنجد وكوتب عن الخليفة الى واسط بما يقضى أن يكون وزيره وتأكد الحال فى ذلك . فحكم حكم الوزراء وهو بواسط ووقع وكاتب ملوك الاطراف

وهو بواسط . ثم أصعد الى بغداذ فخرج الموكب لتلقيه وفيه جميع أعيان الدولة . وكان عضد الدين أبو الفرج محمد بن رئيس الرؤساء أستاذ الدار بينه وبين ابن البلدى كدر فكره عضد الدين الخروج الى تلقيه . وقد كان الخليفة تقدم اليه بالخروج فبذل خمسة الف دينار على أن يعفى من الخروج اليه فقال الخليفة ان عجلها نقداً أعفيته من الخروج فوزنت فى الحال وحملت فلما صارت فى الخزن تقدم الخليفة اليه بالخروج لتلقى الوزير . وقيل له هذا المال جناية عن كونك تكره ما نؤثر وتراجع فى التقدمات الشريفة فذهب المال منه وخرج عابراً الى الجانب الغربىّ صحبة الموكب . ومضى الناس كلهم الى صرصر فتلقوه هناك . فلما وقعت عين عضد الدين أستاذ الدار على الوزير أراد عضد الدين أن يترجل فصاح به الوزير والله لئن ترجلت ترجلت أنا أيضاً فخدمه . ثم اعتنقا على ظهور الدواب . وسار بين يديه ووصل الوزير الى محاذاة التاج . وعبر فى سفينة وحضر بين يدى الخليفة . فشافهه بالوزارة وخلعت عليه خلع الوزارة وأكد عليه النهوض بالمهام الديوانية فنهض بأعباء الوزارة وما زال أمره على السداد الى أن جرى للمستنجد ما جرى من تغلب عضد الدين أستاذ الدار وأكابر الامراء عليه وإدخاله الحمام وهو مريض حتى مات من الحرارة . ثم ان عضد الدين أستاذ الدار أخرج ولده المستضىء وبايعه وشرط عليه شروطاً وأحلفه عليها أيماناً مؤكدة . منها أن يكون هو وزيراً . وأن يكون ولده أستاذ الدار . وفلان أمير العسكر . وفلان كذا وكذا . فالتزم المستضىء لهم بذلك وحلف أيماناً غليظة . ثم بويع المستضىء فى باطن الدار البيعة الخاصة واستدعى الوزير ابن البلدى ليبايع . فلما حضر الدار عدل به الى مكان وضربت فيه عنقه وأخرج

فرمي على مزبلة بباب المراتب • ثم سحب والقى فى دجلة • وكان حسن الطريقة مشكور الاخلاق * انقضت أيام المستنجد بالله ووزرائه

« ثم ملك بعده ولده المستضىء ابو محمد الحسن بن المستنجد بالله »

بويع فى سنة ست وستين وخمس مائة • لم يكن بسيرته بأس * فى أيامه وردت البشائر الى بغداذ بفتح مصر وانقراض الدولة الفاطمية

ولما جلس على سرير الخلافة تقدّم بقتل ابن البلدىّ وزير أبيه * وتوفى فى سنة خمس وسبعين وخمس مائة

« شرح حال الوزارة فى أيامه »

أول وزرائه عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء الذى كان قبل ذلك أستاذ الدار

كان عضد الدين من أفاضل الناس وأعيانهم • وكان أستاذ الدار فى أيام المستنجد • فلما جرى للمستنجد ما جرى استولى عضد الدين ونهض فى إخراج المستضىء من الحبس ومبايعته وأحلافه فاستوزره المستضىء • ونهض عضد الدين بأعباء الوزارة نهوضاً مرضياً وفرق فى يوم جلوسه فى دست الوزارة ذهباً كثيراً وحنطة على المقيمين بالمشاهد والجوامع والمدارس والربط وتلطف بالامور تلطفاً لم يكن فى حساب الناس وبيته بيت مشهور بالرئاسة يعرفون قديماً ببيت الرفيل • وكان ابن التعاويذى الشاعر البغداذى شاعرهم ومنقطعاً اليهم واتفق جل عمره معهم ولهم يخاطب بقوله (سريع)

قضيت شطر العمر فى مدحكم ظناً بكم انكم أهله
وعدت أفنيه هجاء لكم فضاع فيكم عمرى كله

وله فيهم مدائح كثيرة فمن جملتها

(طويل)

وما زلت فى آل الرفيل بمعزل عن الجور مبذولا لى الامن والخصب
فان أقترف ذنباً بمدح سواهم فان خماص الطير يقنصها الحب
وان عاد لى عطف الوزير محمد فقد أكثب النائى ولان لى الصعب
وزير اذا اعتل الزمان فرأيه هناء به تطلى خلائقه الجرب

وما زال أمر عضد الدين يجرى على السداد حتى عزله المستضىء وقبض عليه* وصورة عزله كان يوماً جالساً فى الدست فهجم عليه خادم من خدم الخليفة فقال له قد استغنى عنك. ثم أطبق دواته ودخل الاتراك والجند الى دوره فنهبوا ما بها ودخل العوام ايضا وكسرت الصناديق الآبنوس والعاج بالدبابيس وأخذ جميع ما كان بها. فخرج عضد الدين وهو يتشاهد ويقول للاتراك أما تستحيون منى. أما دخلتم دارى. أما أكلتم زادى فلم ينفعه ذلك فلم يمض الا ساعة واحدة حتى صارت داره بلاقع. ثم حمل الى الحريم ووكل به هناك مدة. ثم أعاده المستضىء الى الوزارة وحكمه وبسطه فصفت له الدنيا وعظم شأنه وكثرت خيراته وهباته وأحبه الناس. وكان سخيا وهوباً شريف النفس* قيل انه ما اشترى لداره قط سكراً بأقل من الف دينار

حدث عنه بعض مماليكه قال احتاج مرة الى الف دينار فأنفت نفسه أن يقترضها من أولاده أو من غيرهم وكان يأنس بى. فقال لى يا ولدى قد احتجت الى الف دينار أعيدها عليك بعد أيام فقلت السمع والطاعة يا مولاى ثم مضيت واحضرت له خمسة الف دينار وقلت يا مولاى هذه والله اكتسبتها منك فخذ منها ما شئت فأطرق ساعة ثم قال والله لا أخذت منها حبة واحدة خذها وانصرف. ثم أنشد

(كامل)

والصاحب المتبوع يقبح أن يرى   متتبعاً ما فى يدى أتباعه

ولم يزل أمره فى الوزارة الثانية جارياً على السداد حتى كان آخر مدته فطلب من الخليفة الاذن له فى الحج فأذن له فتجهز تجهزاً لم ير مثله . ثم عبر الى الجانب الغربىّ من مدينة السلام ليتوجه الى الحلة والكوفة ومنها الى مكة وبين يديه جميع أرباب الدولة . فلقيه رجل عند محلة هناك تعرف بقطفتا فقال يا مولانا مظلوم مظلوم وناوله قصة . فتناولها الوزير منه . فوثب عليه وثبة عالية وضربه بسكين فى ترقوته . ووثب عليه آخر من الجانب الآخر فضربه فى خاصرته . ووثب آخر وبيده سكين مسلولة فلم يصل اليه وتكاثر الناس على الثلاثة فقتلوهم . ثم مات الوزير وصلى عليه ودفن فى تربتهم * وقيل ان الثلاثة الذين قتلوه كانوا من الباطنية من جبل السماق

وحكى بعض أهل قطفتا قال دخلت قبل قتل الوزير بساعتين الى مسجد هناك فرأيت به ثلاثة رجال وقد قدموا واحداً منهم الى المحراب وأناموه ثم صلى الرجلان الآخران عليه صلاة الميت ثم قام ونام آخر وصلى الآخران عليه حتى صلى كل واحد منهم على الآخر وأنا أراهم وهم لا يرونى فعجبت مما فعلوا ثم لما قتل الوزير وقتل الثلاثة تأملت وجوههم فاذا هم هم

﴿ وزارة ظهير الدين أبى بكر منصور بن أبى القاسم نصر بن العطار ﴾

كان تاجراً فى ابتداء أمره . ثم مازج المتصرفين ونفق على المستضىء فاستوزره . وكان ثقيل الوطأة على الرعية وكانت العامة تبغضه . فبقى الى أن مات المستضىء وولى الناصر وهو آخر وزراء المستضىء * انقضت أيام المستضىء ووزرائه

﴿ثم ملك بعده ابنه الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله﴾

بويع بالخلافة فى سنة خمس وسبعين وخمس مائة

كان الناصر من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيراً بالامور مجربا سائساً مهيباً مقداما عارفا شجاعا متأيداً حاد الخاطر والنادرة متوقد الذكاء والفطنة بليغاً غير مدافع عن فضيلة علم ولا نادرة فهم يفاوض العلماء مفاوضة خبير ويمارس الامور السلطانية ممارسة بصير . وكان يرى رأى الامامية . طالت مدته وصفا له الملك وأحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه حتى كان يتمشى فى الليل فى دروب بغداذ ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم . وكان كل احد من أرباب المناصب والرعايا يخافه ويحاذره بحيث كأنه يطلع عليه فى داره . وكثرت جواسيسه وأصحاب أخباره عند السلاطين وفى أطراف البلاد . وله فى مثل هذه قصص غريبة . وصنف كتباً . وسمع الحديث النبوى صلوات الله على صاحبه وأسمعه . ولبس لباس الفتوة وألبسه . وتفتى له خلق كثيرون من شرق الارض وغربها . ورمى بالبندق . ورمى له ناس كثيرون . وكان باقعة زمانه ورجل عصره . فى ايامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكلية . وكان للناصر من المبار والوقوف ما يفوت الحصر . وبنى من دور الضيافات والمساجد والربط ما تجاوز حد الكثرة . وكان مع ذلك يبخل . وكان وقته مصروفا الى تدبير أمور المملكة والى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الاموال * يقال عنه انه ملأ بركة من الذهب فرآها يوما وقد بقى يعوزها حتى تمتلئ وتفيض شيء يسير فقال ترى أعيش حتى املأها فمات قبل ذلك . ويقال ان المستنصر شاهد هذه البركة فقال ترى أعيش حتى افنيها وكذلك فعل * مات الناصر فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع الناصر بالخلافة أقر ابن العطار وزير ابيه على قاعدته أياما يسيرة ثم نكبه وقبض عليه وحبسه فى باطن دار الخلافة . ثم أخرج بعد ايام ميتاً فسلم الى أخته لتجهزه وتدفنه فغسلته واخرجته فى تابوت على رأس حمال لتدفنه فغمز به بعض الناس فرجموه فرمى الحمال بالتابوت وهرب فأخذه العوام واخرجوه من التابوت ومثلوا به وشدوا فى رجله حبلا وفى ذكره وسحبوه ووضعوا فى يده خشبة ولطخوها بالعذرة ونادوا به يا مولانا ظهير الدين وقع لنا

ومن طريف ماوقع فى ذلك أن بعض الاتراك عمر حماما وجعل مجراته تجوز على دار بعض الجيران فتأذى ذلك الجار بتلك المجراة فشكا ذلك الى الوزير فزبره ولم يأخذ بيده وقال له ان لم تسكت والا جعلت رأسك فى المجراة فيقال ان ابن العطار لما سحبه العوام ومثلوا به اجتازوا به على باب الحمام المذكور فاتفق انه وقع فى المجراة فسحبوه فيها خطوات فتعجب الناس من ذلك

(وزارة جلال الدين أبى المظفر عبيد الله)

كان فى ابتداء أمره أحد الشهود المعدلين . ثم تقلبت به الاحوال حتى بلغ الوزارة . وأرسله الناصر صحبة عسكر كثيف الى محاربة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل السلجوقى فالتقيا . فكانت الغلبة لعسكر السلطان وانهزم عسكر الخليفة وثبت الوزير فأسر ومكث مدة فى الاسر . ثم أطلق فوصل الى بغداذ متخفياً ولم تطل مدته بعد ذلك

﴿ وزارة معز الدين سعيد بن عليّ بن حديدة الانصارى ﴾

كان رجلا فاضلا متصونا موسراً كثير المال * روى ان نقيب البصرة أبا جعفر محمد بن أبي طالب الشاعر أصعد الى بغداذ متظلما الى هذا الوزير من ناظر البصرة وانشده قصيدة من جملتها

(كامل)

وقبائل الانصار غير قليلة ... لكن بنو غنم هم الاخيار
منهم ابو أيوب حل محمد ... فى داره واختاره المختار
أنا منه فى النسب الصريح وانت من ... ذاك القبيل فلى بذاك جوار
ولقد نزلت عليك مثل نزوله ... فى دار جدك والنزيل يجار
فعلام أظلم والنبي محمد ... أنمى اليه وقومك الانصار

قالوا فلما سمعها الوزير رق له وبكى وخلع عليه ووصله وقضى حوائجه وأنصفه من ناظر البصرة وعزله * ومات الوزير المذكور معزولا فى سنة ست عشرة وستمائة

﴿ وزارة مؤيد الدين ابى المظفر محمد بن احمد بن القصاب ﴾

هو أعجميّ الاصل . كان ابوه يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداذ ونشأ هو مشتغلا بالعلوم والآداب وبرع فى علوم المتصرفين . كالحساب ومعرفة الكروث . والمساحات . والمقاسمات . ثم تبصر بأسباب الوزارة وكانت نفسه قوية وهمته عالية . قاد العساكر وفتح الفتوح . وجمع بين رئاستى السيف والقلم . ومضى الى بلاد خوزستان وفتحها وقرر امورها وقواعدها . ثم مضى الى بلاد العجم وصحبته العساكر فملك اكثرها . ثم ادركه اجله فمات هناك

﴿ وزارة السيد نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازى للناصر ﴾

هو مازندرانى المولد والاصل . رازى المنشأ . بغدادى التدين والوفاة كان من كفاة الرجال وفضلائهم واعيانهم وذوى الميزة منهم . اشتغل بالآداب فى صباه فحصل منها طرفا صالحاً ثم تبصر بامور الدواوين ففاق فيها كان فى ابتداء أمره ينوب عن النقيب عز الدين المرتضى القمى نقيب بلاد العجم كلها ومنه استفاد قوانين الرئاسة وكان عز الدين النقيب من اماجد العالم وعظماء السادات . فلما قتل النقيب عز الدين . قتله علاء الدين خوارزمشاه هرب ولده النقيب شرف الدين محمد وقصد مدينة السلام مستجيراً بالخليفة الناصر وصحبته نائبه نصير الدين بن المهدى وكان من عقلاء الرجال فاختبره الناصر فرآه عاقلا لبيباً سديداً فصار يستشير به سرا فيما يتعلق بملوك الاطراف فوجد عنده خبرة تامة باحوال سلاطين العجم ومعرفة بامورهم وقواعدهم وأخلاق كل واحد منهم فكان الناصر كلما استشار به فى شئ من ذلك يجده مصيباً عين الصواب . فاستخلصه لنفسه ورتبه اولا نقيب الطالبيين ثم فوض اليه امور الوزارة فمكث فيها مدة تجرى أموره على أتم سداد . وكان كريماً وصولا عالى الهمة شريف النفس * حدث عنه انه كان يوما جالساً فى دست الوزارة وفى يده قطعة عود كبيرة فرأى الوزير بعض الصدور الحاضرين وهو يلح بالنظر اليها فقال له تعجبك هذه فدعا له فوهبه اياها وقام الرجل ليخرج فلما بعد عن مجلس الوزير استدعاه بسرعة وقال له تريد أن تفضحنا وتصدق المثل فينا (بخره عريان) ثم أمر فخلع عليه ودفع اليه تخت ثياب وقال له تبخر فى هذه الثياب * ومدحه الابهرى الشاعر الاعجمى بقصيدة مشهورة فى العجم من جملة مدحها

(بسيط)

وزير مشرق ومغرب نصير ملت ودين كه بادرايت عاليش تا أبد منصور
صريركلك تودركشف مشكلات أمور كه ثم جو نغمه داود در أداء زبور

وأرسلها الابهرى صحبة بعض التجار مع بعض القفول . وقال للتاجر أوصلها الى الوزير وان قدرت أن لا تعلمه من قائلها فافعل . فلما عرضت القصيدة على الوزير استحسنها وطلب التاجر ودفع اليه الف دينار ذهباً وقال هذه تسلمها الى الابهرى ولا تعلمه ممن هى

وقبض الناصر عليه كارهاً لأمور اقتضت ذلك . وكان القبض عليه فى سنة أربع وستمائة . ونقل الى دار فى دار الخلافة فأقام بها تحت الاستظهار على حالة الاكرام والمراعاة الى أن مات تحت الاستظهار فى سنة سبع عشرة وستمائة

﴿ وزارة مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم برالقمى للناصر ﴾

هو قمىّ الاصل والمولد . بغداذىّ المنشأ والوفاة . ينتسب الى المقداد بن الاسود الكندى . كان رحمه الله بصيراً بأمور الملك خبيراً بأدوات الرئاسة عالماً بالقوانين . عارفا باصطلاح الدواوين . خبيراً بالحساب . ريان من فنون الادب . حافظاً لمحاسن الاشعار . راويا لطرائف الاخبار . وكان جلداً على ممارسة الامور الديوانية . ملازماً لها من الغدوة الى العشية . وكان فى ابتداء أمره قد تعلق بخدمة سلاطين العجم . وكان يلوذ ببعض وزراء العجم باصفهان فى حال صباه ولم يبلغ العشرين من عمره . وكان ذلك الوزير قد ضجر من الكتاب الذين بين يديه ونسبهم الى أنهم يخالفون تقدماته فأبعدهم عنه واستكتب القمىّ ظناً منه انه لمجرد حداثة سنه لايقدم على مخالفة ما يشير

به . فمكث القمى يكتب بين يديه مدة . ففى بعض الايام أحضرت بين يدى الوزير جملة من الثياب النسيج بعضها صحيح وبعضها مقطوع . فأحضر القمى بين يديه ليثبت عددها ويحملها الى الخزانة . وكان الوزير يورد عليه كذا وكذا ثوباً صحاحاً فيكتب القمى كذا وكذا ثوباً وما يكتب لفظة صحاحاً فقال له الوزير لم لا تكتب كما أقول لك . فقال يا مولانا لا حاجة الى ذكر الصحاح . فانى اذا وصلت الى ذكر ثوب مقطوع ذكرت تحته أنه مقطوع فتخصيص المقطوع بالذكر يدل على أن مالم يوصف بالقطع صحيح . فقال الوزير لا بل اكتب كما أقول . فراجعه القمى . فحرد الوزير لذلك وارتفع صوته والتفت الى الحاضرين . وقال أنا عزلت الكتاب الكبار الذين كانوا عندى لأجل مخالفتهم ولجاجهم فيما أقوله . واستكتبت هذا الصبى ظناً منى انه لحداثة سنه لا يكون عنده من التجرؤ والمخالفة ما عندهم فاذا هو أشد مخالفة من اولئك . فخرج بعض خدام السلطان من بين يديه . وكان جالسا قريباً من مجلس الوزير وسأل عن كثرة الصياح وحرد الوزير . فعرف الخادم صورة ما جرى بين الوزير والقمى . فدخل وحكى للسلطان ما قيل . فقال له اخرج وقل للوزير الحق ما اعتمده الصبى الكاتب . فنبل القمى فى عيون الناس وعلت منزلته وأنس القمى بهذا الخادم وصار الخادم يستشيره ويسكن اليه ويأنس به . فاتفق أن السلطان عين على هذا الخادم وعلى رجل آخر ليتوجها فى رسالة الى ديوان الخليفة فالتمس الخادم أن يكون القمى صحبته فأرسل صحبته فتوجهوا الى بغداذ وحضر الخادم ورفيقه عند الوزير ابن القصاب فشافهوه بالرسالة وسمعوا الجواب . وكان جوابا غير مطابق للرسالة . ولكنه كان نوعا من المغالطة فقنع الخادم ورفيقه بذلك الجواب . وما تنبهوا على فساده وخرجوا

فرجع القمى ووقف بين يدى الوزير وحادثه سراً وقال له يا مولانا الجواب غير مطابق لما أنهاه المماليك . فقال له الوزير صدقت . ولكن دعهم على غباوتهم ولا تفطنهم الى ذلك . فقال السمع والطاعة . ثم ان ابن القصاب كتب الى الخليفة يقول له انه قد وصل صحبة خادم السلطان فلان شاب قمى قد جرى من تنبهه كيت وكيت . ومثل هذا يجب أن يصطنع ويحسن اليه ويستخدم . فكتب الخليفة اليه يأمره بأن لا يمكنه من التوجه معهم . فعمل له حجة وقطع عنهم فتوجهوا . وأقام القمى ببغداذ فعين عليه فى كتابة الانشاء فمكث على ذلك مدة . ثم تولى الوزارة وتمكن فى الدولة تمكنا لم يتمكن مثله أحد من أمثاله . وكان أوحد زمانه فى كل شئ حسن . كثير البر والخير والصدقات

حدث عنه مملوكه بدر الدين آياز . قال طلب ليلة من الليالى حلاوة النبات فعمل فى الحال منها صحون كثيرة وأحضرت بين يديه فى ذلك الليل فقال لى يا آياز تقدر تدخر هذه الحلاوة لى موفرة الى يوم القيامة . فقلت يا مولانا وكيف يكون ذلك وهل يمكن هذا . قال نعم . تمضى فى هذه الساعة الى مشهد موسى والجواد عليهما السلام . وتضع هذه الاصحن قدام أيتام العلويين فانها تدخر لى موفرة الى يوم القيامة . قال آياز فقلت السمع والطاعة . ومضيت وكان نصف الليل الى المشهد وفتحت الابواب وأنبهت الصبيان الايتام ووضعت الاصحن بين يديهم ورجعت

وما زال القمى على سداد من أمره . تولى الوزارة للناصر . ثم للظاهر ثم للمستنصر حتى قبض عليه المستنصر وحبسه فى باطن دار الخلافة مدة فمرض وأخرج مريضاً فمات رحمه الله فى سنة تسع وعشرين وستمائة

انقضت أيام الناصر لدين الله ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ولده أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله ﴾

بويع فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة

لم تطل أيامه ولم يجر فيها ما يسطر سوى احتراق القبة الشريفة بمشهد موسى والجواد عليهما السلام . فشرع الظاهر فى عمارتها . فمات ولم تفرغ فتممها المستنصر

وأيضاً فان الظاهر هو الذى عمل هذا الجسر الجديد الموجود الآن ببغداذ . ولما فرغ عمل الشعراء فيه المدائح ووصفوا الجسر فيها . فمن نظم فى ذلك شعراً موفق الدين القسم بن ابى الحديد كاتب الانشاء وهو قوله

(متقارب)

إمام يحرم ذل السؤال ... ويعمل بالكرم الواجب
أقام طريقاً على دجلة ... لذى القصد منه وللذاهب
فعارض جسراً على جانب ... بجسر جديد على جانب
كسطرين فى كاغد أبيض ... أجادهما قلم الكاتب
كمخنقتى عنبر ضمتا ... بياض الترائب من كاعب
كصفين من إبل أصبحا ... وقوفا على جدد لاحب

ومات الظاهر فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أقر القمى وزير أبيه على وزارته ولم يستوزر غيره

﴿ ثم ملك بعده ولده أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ﴾

بويع بالخلافة فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة

كان المستنصر شهماً جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً . وكانت هباته وعطاياه أشهر من أن يدل عليها وأعظم من أن تحصى . ولو قيل انه لم يكن فى خلفاء بنى العباس مثله لصدق القائل . وله الآثار الجليلة . منها وهى أعظمها المستنصرية وهى أعظم من أن توصف . وشهرتها تغنى عن وصفها . ومنها خان حربى وقنطرتها وخان نهر سابس بأعمال واسط . وخان الحرنينى وغير ذلك من المساجد والربط ودور الضيافات . وكان المستنصر يقول انى أخاف أن الله لا يثيبنى على ما أهبه وأعطيه لانّ الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب

كانت أيامه طيبة . والدنيا فى زمانه ساكنة . والخيرات دارة والاعمال عامرة . وفى أيامه فتحت إربل . أرسل المستنصر اليها إقبالا الشرابىّ وصحبته عارض الجيوش . وذلك عند وفاة صاحبها مظفر الدين بن زين الدين علىّ كوجك . ومات المستنصر فى سنة أربعين وستمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقر القمى وزير أبيه وجده على وزارته سنوات . ثم قبض عليه وجرى له ما تقدم شرحه

﴿ وزارة نصير الدين ابى الازهر أحمد بن محمد بن الناقد ﴾

ثم استوزر المستنصر بعد القمىّ أبا الازهر أحمد بن الناقد . كان فى ابتداء أمره وكيلا للمستنصر فمكث مدة فى الوكالة . ثم انتقل منها الى أستاذية الدار ثم منها الى الوزارة فنهض بأعبائها نهوضاً حسناً . وقام بضبط المملكة قياما مرضياً . وكان عظيم الامانة قوى السياسة شديد الهيبة على المتصرفين حاسماً لمواد الأطماع والفساد * قيل انه هجى ببيتين فلما سمعهما استحسنهما وهما

(بسيط)

وزيرنا زاهد والناس قد زهدوا   فيه فكل عن اللذات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم خالية   من المعاصى وفيها الجوع والعطش

وما زالت السعادة تخدمه الى آخر عمره . فمن جملة سعادته وهو من الاتفاقات العجيبة ما حدث عنه . وهو أنه قبل الوزارة عمل فى بعض الاعياد سنبوسجا كثيراً . وأحب ان يداعب بعض أصحابه . فأمر ان يحشى سبعون سنبوسجة بحب قطن ونخالة وتجعل مفردة وعمل سنبوسجا كثيراً كجارى العادة . وركب الى دار الخليفة فطلب منه عمل شيء من السنبوسج فذكر ان عنده شيئاً مفروغا منه . وأمر خادما له باحضار ما عنده من السنبوسج فمضى الخادم عن غير معرفة بذلك المحشو بحب القطن ومزج الجميع ووضعه فى الأطباق ليحمله الى دار الخليفة . فجاء الجوارى والخدم وقالوا أعطونا حصتنا من هذا فأخذوا منه مائة سنبوسجة وحمل الخادم الاطباق بما فيها الى دار الخليفة . فلما حمل السنبوسج وصار بدار الخليفة ورجع ابن الناقد الى داره سأل عن السنبوسج المحشو بحب القطن . فقالوا له ما عرفنا بشيء من ذلك وفلان الخادم جاء ومزج الجميع وأخذه ومضى فلم يشك أنه هالك وكادت تسقط قوته خوفا وخجلا فقال أما تخلف منه شيء قط قالوا قد اقتطع الجوارى والخدم منه حدود مائة سنبوسجة فقال أحضروها فأحضرت وفتحت بين يديه فوجد السبعون سنبوسجة المحشوة بحب القطن قد حصلت بأيدى الجوارى والخدم فى جملة ما أخذوه لأنفسهم لم تشذ منها واحدة الى دار الخليفة . ومات نصير الدين فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصم

انقضت أيام المستنصر ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ولده أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله ﴾

* بويع له بالخلافة فى سنة أربعين وستمائة . هو آخر الخلفاء

كان المستعصم رجلا خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطاً مليحاً وكان سهل الاخلاق وكان خفيف الوطأة الا انه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الامور . وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الاغانى والتفرج على المساخرة . وفى بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة . وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمىّ . فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال . وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

وكانت عادة الخلفاء أكثرهم أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم . وبذلك جرت سنتهم الى آخر أيام المستنصر . فلما ولى المستعصم أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم * وهم الامير الكبير أبو العباس أحمد والعامة تسميه أبا بكر وليس بصحيح وانما سموه بذلك لانه لما نهب الكرخ نسب الامر فى ذلك اليه وقيل انه هو الذى أشار بذلك * والامير الأوسط وهو أبو الفضائل عبد الرحمن . كان شهماً خرج الى بين يدى السلطان هولاكو ووقع كلامه بموضع الاستحسان فى الحضرة السلطانية * والامير الاصغر أبو المناقب

حدثنى صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر الارموىّ . وكان قد صار فى آخر ايام المستعصم مقربا عنده ومن خواصه وكان قد استجد فى آخر أيامه خزانة كتب . ونقل اليها من نفائس الكتب وسلم مفاتيحها الى عبد المؤمن فصار

عبد المؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد. واذا خطر للخليفة الجلوس في خزانة الكتب جاء اليها وعدل عن الخزانة الاولى التي كانت مسلمة الى الشيخ صدر الدين عليّ بن النيار. قال أعني عبد المؤمن كنت مرة جالساً في حجرة صغيرة وأنا أنسخ وهناك مرتبة برسم الخليفة اذا جاء الى هناك جلس عليها وقد بسطت عليها ملحفة لترد عنها الغبار. فجاء خويدم صغير ونام قريباً من المرتبة المذكورة واستغرق في النوم فتقلب حتى تلفف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند قال وأنا مشغول بالنسخ فأحسست بوطأ في الدهليز. فنظرت فاذا هو الخليفة وهو يستدعيني بالاشارة ويخفف وطأه فقمت اليه منزعجا وقبلت الارض. فقال لي هذا الخويدم الذي قد نام حتى تلفف في هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند متى هجمت عليه حتى يستيقظ ويعلم أني قد شاهدته على هذه الحال تنفطر مرارته من الخوف فأيقظه أنت برفق فاني سأخرج الى البستان ثم أعود. قال وخرج الخليفة فدخلت الى الخويدم وأيقظته فانتبه ثم أصلحنا المرتبة ثم دخل الخليفة

وحدثني بعض أهل بغداذ قال حدثت أن الشيخ صدر الدين بن النيار شيخ الخليفة قال دخلت مرة الى خزانة الكتب على عادتي وفي كمي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج فطرحت المنديل وفيه الرقاع في موضعي ثم قمت لبعض شأني فلما عدت الى الخزانة بعد ساعة حللت الرقاع من المنديل حتى أتأملها واقدم منها المهم فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة بالاجابة الى جميع ما فيها فعلمت ان الخليفة قد جاء الى الخزانة عند قيامي فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقع على جميعها. والمستعصم هو آخر خلفاء الدولة

العباسية ببغداد * ولم يجر فى أيام المستعصم شيء يؤثر سوى نهب الكرخ وبئس الأثر ذلك

وفى آخر أيامه قويت الاراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو فلم يحرك ذلك منه عزماً ولا نبه منه همة ولا أحدث عنده هما وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيصته من التفريط والاهمال ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك ولا يعرف هذه الدولة يسر الله إحسانها وأعلى شأنها حق المعرفة . وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى يعرف حقيقة الحال فى ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد وهو لا يزداد إلا غفولا . وكان خواصه يوهمونه أنه ليس فى هذا كبير خطر ولا هناك محذور وأن الوزير انما يعظم هذا لينفق سوقه ولتبرز اليه الاموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه

وما زالت غفلة الخليفة تنمى ويقظة الجانب الآخر تتضاعف حتى وصل العسكر السلطانى الى همذان وأقام بها مديدة . ثم تواترت الرسل السلطانية الى الديوان المستعصمى فوقع التعيين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدار وهو شرف الدين عبد الله بن الجوزى . فبعث رسولا الى خدمة الدركاه السلطانية بهمذان فلما وصل وسمع جوابه علم أنه جواب مغالطه ومدافعة . فحينئذ وقع الشروع فى قصد بغداذ وبث العساكر اليها . فتوجه عسكر كثيف من المغول والمقدم عليهم باجو الى تكريت ليعبروا من هناك الى الجانب الغربى ويقصدون بغداذ من غربيها ويقصدها العسكر السلطانى من شرقيها . فلما عبر عسكر باجو من تكريت وانحدر الى أعمال بغداذ أجفل الناس من دجيل . والاسحاق ونهر ملك . ونهر عيسى . ودخلوا الى المدينة بنسائهم وأولادهم حتى كان الرجل

أو المرأة يقذف بنفسه فى الماء . وكان الملاح اذا عبر أحداً فى سفينة من جانب الى جانب يأخذ أجرته سوارا من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير فلما وصل العسكر السلطانى الى دجيل وهو يزيد على ثلاثين الف فارس خرج اليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار . وكان عسكراً فى غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربى من بغداد قريباً من البلد . فكانت الغلبة فى أول الامر لعسكر الخليفة . ثم كانت الكرة للعسكر السلطانى فأبادوهم قتلا وأسراً وأعانهم على ذلك نهر فتحوه فى طول الليل فكثرت الوحول فى طريق المنهزمين فلم ينج منهم الا من رمى نفسه فى الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشأم . ونجا الدويدار فى جمعية من عسكره ووصل الى بغداذ . وساق باجو حتى دخل البلد من جانبه الغربى ووقف بعساكره محاذى التاج . وجاست عساكره خلال الديار . وأقام محاذى التاج أياماً

وأما حال العسكر السلطانى فانه فى يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمائة ثارت غبرة عظيمة شرقى بغداذ على درب يعقوبا بحيث عمت البلد فانزعج الناس من ذلك وصعدوا الى أعالى السطوح والمناير يتشوفون فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكراعه وقد طبق وجه الارض وأحاط ببغداذ من جميع جهاتها . ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار وشرع العسكر الخليفتى فى المدافعة والمقاومة الى يوم تاسع عشرى محرم فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداذ من برج يسمى برج العجمى من ناحية باب من أبواب بغداذ يقال له باب كلواذى وكان هذا البرج أقصر أبراج السور . وتقحم العسكر السلطانى هجوماً

ودخولا . فجرى من القتل الذريع . والنهب العظيم . والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله . وكان ما كان مما لست أذكره . فظن ظناً ولا تسئل عن الخبر

وأمر السلطان بخروج الخليفة وولده ونسائه اليه فخرجوا فحضر الخليفة بين يدى الدركاه . فيقال أنه عوتب ووبخ بما معناه نسبة العجز والتفريط والغفول اليه . ثم أوصل الى الياسا وولداه الاكبر والاوسط . وأما بناته فأسرن . ثم استشهد المستعصم فى رابع صفر سنة ست وخمسين وستمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقر وزير ابيه وهو نصير الدين أحمد بن الناقد على وزارته الى أن توفى . فلما توفى استوزر مؤيد الدين محمد بن العلقمى

﴿ وزارة مؤيد الدين أبى طالب محمد بن أحمد بن العلقمى ﴾

هو أسدى أصلهم من النيل . وقيل لجده العلقمي لانه حفر النهر المسمى بالعلقمى . وهو الذى برز الامر الشريف السلطانى بحفره . وسمى القازانى . اشتغل فى صباه بالادب ففاق فيه . وكتب خطاً مليحاً . وترسل ترسلا فصيحاً وضبط ضبطاً صحيحاً . وكان رجلا فاضلا كاملا لبيباً كريما وقوراً محبا للرئاسة كثير التجمل رئيسا متمسكا بقوانين الرئاسة خبيراً بأدوات السياسة لبيق الاعطاف بآلات الوزارة . وكان يحب أهل الادب ويقرب أهل العلم اقتنى كتبا كثيرة نفيسة

حدثنى ولده شرف الدين أبو القسم على رحمه الله . قال اشتملت خزانة والدى على عشرة الف مجلد من نفائس الكتب . وصنف الناس له الكتب فممن صنف له الصغانى اللغوى . صنف له العباب . وهو كتاب عظيم كبير فى لغة

العرب . وصنف له عز الدين عبد الحميد بن أبى الحديد كتاب شرح نهج البلاغة يشتمل على عشرين مجلداً فأثابهما وأحسن جائزتهما . وكان ممدحاً مدحه الشعراء . وانتجعه الفضلاء . فممن مدحه كمال الدين بن البوقىّ بقصيدة من جملتها (سريع)

مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمىّ الوزير

وهذا بيت حسن جمع فيه بين لقبه وكنيته واسمه واسم أبيه وصنعته

وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعا

قيل ان بدر الدين صاحب الموصل أهدى اليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائف قيمتها عشرة الف دينار . فلما وصلت الى الوزير حملها الى خدمة الخليفة . وقال ان صاحب الموصل قد أهدى لى هذا واستحييت منه أن أردّه اليه . وقد حملته وأنا أسئل قبوله فقبل ثم انه أهدى الى بدر الدين عوض هديته شيئاً من لطائف بغداذ قيمته اثنا عشر الف دينار . والتمس منه أن لا يهدى اليه شيئاً بعد ذلك

وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه . وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه . وكثروا عليه عنده فكف يده عن أكثر الامور . ونسبه الناس الى أنه خامر . وليس ذلك بصحيح . ومن أقوى الادلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فان السلطان هولاكو لما فتح بغداذ وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه . فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه

حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين

ابن العلقمى قال لما نزل السلطان هولاكو على بغداذ أرسل يطلب أن يخرج الوزير اليه . قال فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه . فقال له الخليفة قد أنفذ السلطان يطلبك . وينبغى أن تخرج اليه فخرج الوزير من ذلك . وقال يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام . فقال له الخليفة لابد من أن تخرج . قال فقال السمع والطاعة . ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج . فلما حضر بين يدى السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان . وكان الذى تولى تربيته فى الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسى قدّس الله روحه . فلما فتحت بغداذ سلمت اليه والى علىّ بهادر الشحنة فمكث الوزير شهوراً . ثم مرض ومات رحمه الله فى جمادى الاولى سنة ست وخمسين وستمائة

انقضت دولة بنى العباس ووزرائهم . وبذلك انقضى الكتاب والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله الطيبين الطاهرين وسلامه

فرغ من تأليفه واستنساخه مؤلفه فى مدة أولها جمادى الآخرة من سنة إحدى وسبع مائة وآخرها خامس شوال من السنة المذكورة بالموصل الحدباء وهذا خط يده تجاوز الله عنه

﴿ يقول مصحح مطبعة الموسوعات البهية . الفقير احمد مكى أعانه رب البرية ﴾

حمداً لمن خلق الخلق وأنفذ فيهم أمره . وسيرهم بقدرته وجعل سيرهم عبره . سبحانه دلت على ربوبيته آلاؤه . وشهدت بوحدانيته أرضه وسماؤه . وصلاة وسلاما على أولى الانفس المطهرة خصوصاً سيدهم الأكمل . وعلى آلهم وصحبهم الذين شهد لهم التاريخ بالقدر الانخم . والفضل الاجزل

هذا وان علم التاريخ من أجل العلوم قدراً . واسمى المعارف فخراً ومن أحسن ما ألف فيه كتاب (الفخرى) كتاب تشهد سلاسة مبانيه وسهولة معانيه . بوفور علم مؤلفه واقتداره فى صناعة الكتابة . وتفرض اقتناءه على كل من أراد أن يتحلى بفضيلتي التاريخ والخطابه . وكان الفراغ من طبعه بهذا الشكل الجميل على نفقة شركة طبع الكتب العربية فى ٢٢ رمضان المعظم سنة ١٣١٧ الف وثلاثمائة وسبع عشرة من الهجرة النبوية وفق الله هذه الجمعية لامثال هذا العمل الشريف الذى يدل على حسن عواطفها وحبها تقدم ابناء أمتها . وانها والحق يقال خدمت الامة بطبع هذا الكتاب خدمة جليلة تستحق عليها جزيل الثناء (وكان) طبعه بمطبعة الموسوعات البهية الكائن مركزها فى مصر باب الشعرية وهى مطبعة جليلة الطبع . فريدة فى الوضع . ولعمرى انها غنية عن المدح . حرسها الله بعنايته وكفلها برعايته

فهرست

كتاب الفخرى

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

